جان مارك مورا

الحرب الخفيّة

ترجمة:

ماري طوق

مكتبة
Telegram Network

جان مارك مورا

الحرب الخفيّـة

رواية

ترجمة:

ماري طوق

مراجعة:

كاظم جهاد

© مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي.

PQ2673.M68 G84125 2022

-Moura, Jean-Marc, 1956

الحرب الخفيّة: رواية / تأليف جان مارك مورا ؛ ترجمة ماري طوق ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2022.

ترجمة كتاب: La guerre insaisissable تدمك:8-97-811-978-9948

1- القصص الفرنسية- مترجمات إلى العربية- القرن 21. 2- القصص العربية- مترجمات من الفرنسية- القرن 21. أ- طوق، ماري. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Jean-Marc Moura

La guerre insaisissable

by Editions Jean-Claude Lattès 2018 ©

لوحة الغلاف: «المختبَر» لأوليفييه بون ليون (1833-1901)
صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام- وزارة الثقافة والشباب- رقم الطلب MC-03-01-3502763 .

طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 80022220

مركز أبوظبي للغة العربية
Abu Dhabi Arabic Language Centre

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي غير مسؤول عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المركز.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي. يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّ وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطيّ من الناشر.

«مكتبة ♔ النخبة»

مقدّمة المُراجِع

ما برح الإنسان يحيا في ظلّ جائحة كورونا، أو كوفيد 19، يقلق من تحوّراتها القادمة ويدخل إلى الحشود وجِلاً، متهيّباً من عدوى ممكنة قد لا تبعده عنها مختلف الطّعوم. كما إنّه يدخل إليها مفعمَ الذّهن بذكريات شهورٍ عاشها في تباعد اجتماعيّ ممضّ ومملّ. يتذكّر وجوهاً حبيبة عصفت بها الجائحة، ويأْلم للتخبّط الطويل الذي عاشه العِلم والطبّ أمام وباء ربّما كان من أكثر الأوبئة غموضاً.

في انتظار أن يحقّق المبدعون مسافة كافية تتيح لهم أن يعرضوا «طباع» الجائحة الأخيرة وآثارها على عيش الإنسان وعلاقته بنفسه وبالزّمن والعالَم، يمكن الالتفات إلى الأعمال الأدبية الصادرة في العقود أو الأعوام السّابقة عن جوائح أخرى غزت المعمورة وأصابت البشر بالقدر نفسه من الإجهاد العميق والقلق الشّالّ. من الأعمال الكبرى في هذا المضمار اخترنا أربع روائع فرنسيّـة تصدر ترجماتها تباعاً عن مشروع «كلمة» للترجمة، هي «الفارس على السّطح» لجان جيونو، و«الكرنتينة» لجان ماري لوكليزيو،

و«الجغرافية السياسيّـة للبعوض» لإريك أورسينا بالتّعاون مع إيزابيل دو سانت أوبان، ورواية «الحرب الخفيّـة» لجان مارك مورا، المترجمة ههنا.

يستعين جيونو ولوكليزيو بالتّاريخ ضمن تعويل كلـيّ على لغة الرواية، فيما يضيف أورسينا ومورا إلى مصادر إلهامهما محتويات المكتبة العلميّـة وما تسلّطه من أضواء كاشفة على الأوبئة والأمراض السّارية. فيرصد أورسينا، بمعونة الطبيبة المتخصّصة بأمراض الأوعية الدمويّـة إيزابيل دو سانت أوبان، نشاطَ البعوض وتحوّلاته العجيبة، وفي الوقت نفسه سعيَ العلماء والباحثين والأطبّاء الدّائب لاجتراح سبُلٍ لِتَوقّيه. ويتابع مورا تاريخ الأبحاث البكتريولوجيّـة من جهة، وسجلّ الممارسات الإخفائيّـة و«الشّيطانيّـة» التي شهدتها بعض الأجواء الكنسيّـة حتّى عهد قريب، من جهة أخرى، ليرسم لنا صورة بالغة التأثير عن نضال امرأة ضدّ التّلاعب بالإيمان والعِلم لغايات وصوليّـة أو تدميريّـة.

جان مارك مورا Jean-Marc Moura، المولود في مونتروي سو بواMontreuil-sous-Bois في 1956، كاتب وأكاديميّ فرنسيّ عُرف في مجال الأبحاث الأدبيّـة بإنتاجه الغزير المجدِّد. ثمّ أضاف إلى رصيده العلميّ سمعة روائيّ مرموق، مقلّ إلى حدّ ما في الإبداع السّرديّ، بيد أن أيّاً من أعماله في هذا المضمار لم يفته أن يجذب التفات النقّاد والقرّاء بقوّة. هكذا كان على قاب قوسين أو أدنى من حصْد جائزة رونودو Renaudot للرّواية باثنتين من رواياته الأربع الصّادرة حتّى الآن.

منذ أبحاثه الأولى عُني مورا بحضور الآخَر في الأدب الفرنسيّ والأوروبّي. أطروحته للدكتوراه التي ناقشها في جامعة السّوربون الجديدة في

1987 حملت عنوان «العالَم الثالث في الأدب الفرنسيّ»، وقد عمّقَها بعد سنوات في كتاب حمل عنوان «العالَم الثالث في الرّواية الفرنسية من 1968 إلى 1980» [1]. كما وضع عدّة مؤلّفات فرديّـة وأدار عدّة أبحاث جماعيّـة ساهم عبرها في إدخال التأويل ما بعد الاستعماريّ postcoloniale للأدب، ودراسات في الآداب الفرانكفونيّـة littératures francophones، أي هذه التي يكتبها بالفرنسية أدباء غير فرنسيّين، وفي الأدب المعنيّ بالآخر والغريب exotisme، وفي العولَمة والأدب وفكرة الأدب العالميّ والعابر للثّقافات transculturelle، وفي الدّعابة humour وتجليّاتها في الأدب، ثمّ في مناهج تحليل الأدب المقارن littérature comparée.

انخرط مورا في مجال التّعليم في فرنسا ثمّ في بانكوك (تايلاند) لعدّة سنوات. وهناك تعمّقت معرفته للشّرق الأقصى، وتمخّض ذلك عن روايته الأولى «أسطورة من بانكوك» (1986) [2]. تُصّور الرّواية في تعدّد أجوائها وعوالِمها تعدّد العالَم التّايلانديّ نفسه، حيث تايلاند العريقة تتخفّى وراء هياجها الظاهريّ (ملك يُحتَضر وحداثة عمرانيّـة مُغالية وجرائم «مافيويّـة» ومَصادر تهديد غامض مُحدق بالجميع). هذا كلّه يرصده الكاتب بِعينَي ملحق بالسّفارة الفرنسيّـة يهيم حبّاً بالبلاد ولا يفتأ يسائل تناقضاتها المدهشة، وينطوي اسمه على تورية شديدة الدّلالة: كريستيان سانتير Christian Santerre، ونلمح في اسم الشهرة إدغاماً للعبارة Sans Terre، التي تعني حرفيّاً «بلا أرض»، أي «المُنبَتّ».

إذا كانت هذه الرّواية تندرج في إطار الأدب المعنّي بالغريب [3]، فإنّ رواية مورا الثّانية، «غندارا» [4]، تجمع بين الغريب بمعنى الغرائبيّ أو العجيب،

والغريب بمعنى الآخَر أو الأجنبيّ. وبأكثر دقّة، يندرج هذا العمل في نمط روايات «العَوالم المفقودة»، المخصّص لابتكار أماكن معزولة، تقيم في العالَم وكأنّها خارج العالَم، لا ينفد إليها مَن لـم يكـن من سكّانها، وتعيش خارج الزّمن التاريخيّ مُنعِمةً بسلام فريد ووفقَ نمطِ عيشٍ خاصّ بها، ثمّ يحدث أن تزول، أو أنّ من ينفد إليها صدفةً لا يعود يهتدي إليها إنْ هوَ غادرَها.

هكذا يبتكر مورا تداعيات رجل مشرف على الموت، يتذكّر ما هو موقن من أنّه شاهدَه قبل خمسين سنة، يوم كان في 1938 عضواً في بعثة آثاريّـة فرنسيّـة إلى شمال الهند الغربيّ: وادي غندارا، حيث تشمخ مَعالِم حضارة بقيت مجهولة من بقيّـة العالَم طيلة ألفَي سنة. ذاهلين ثمّ مصدّقين شيئاً فشيئاً، يحاول هو ورفاقه الآثاريّون الآخرون فكّ ألغاز هذا الوادي وأبنيته السّاحرة وصفائه العجيب. وفي ما وراء جانبها الفنطازيّ، تشكّل الرّواية نشيد إجلال للحضارة الآسيويّـة وللهند التّاريخيّـة. وقد حظي العمل باهتمام لجنة تحكيم جائزة رونودو وكاد يصل إلى تصفيتها النّهائيّـة.

في الرّوايتين التاليتين، يبحث مورا عن الغريب، بمعنيَين للكلمة أيضاً، معنى المغترب والمختلف والاستثنائيّ، ومعنى العجيب، في بلاده نفسها، وبالذّات في منطقة البيكاردي الفرنسيّـة، الموسومة تاريخيّاً، كما يبين عنه المؤلّف، بماضٍ من الظّلاميّـة الدّينيّـة.

في «موسيقى الأوهام» [5]، تسرد الرّاوية حكاية فرانشيسكا، فتاة تولد في إحدى غابات البيكاردي في نهايات القرن التّاسع عشر، وسرعان ما تعرب عن مجموعة قدرات خارقة للطّبيعة. فهي تتمتّع بالقدرة على تقليد كلّ الأصوات، وترى ما لا يرى الآخرون، ويمكنها أن تقتل شخصاً بمجرّد إطلاق

صرخة. مواهبها هذه تثير اهتمام عالِم سويسريّ شابّ كان قد ابتكر آلة لتسجيل الأصوات، كما يستثمرها مشعوِذ يتاجر بها باستغلال سذاجة النظّارة. ثمّ إنّ الخوريّ كافيل يتمنّى موت فرانشيسكا، ربّما لأنّ من شأن افتضاح سرّ ولادتها، الذي يعرفه هو وحده، أن يهدّد مصالحه، هو الزّائف في إيمانه والذي يستغلّ موقعه في الكنيسة لإرضاء جشعه. هذا كلّه تقابله الفتاة، من خلال يوميّاتها التي ابتكرها الكاتب ليمنحها الكلام انطلاقاً من عالمها الحميم، بمزيج من التمرّد والتشبّث ببراءتها المطلقة وسعيها الدّائب إلى استنطاق تناقضات المجتمع المحيط بها وتفادي فخاخه. وعبرَ هذا كلّه تفجّر الرّواية جملة أسئلة خطيرة عن تصادُم الإيمان والعِلم والموسيقى والشّعوذة والدّجل الدّينيّ وغربة البراءة والموهبة في هذا العالَم.

بصورة شديدة الدّلالة، تبدو الرّواية المترجمة هنا طالعة من ثنايا العمل السّابق، الذي يعير هذه الرّواية مسرح أغلب أحداثه: منطقة البيكاردي الفرنسيّـة، واثنين من شخصيّاته: فرانشيسكا، الفتاة-المعجزة، هي هنا والدة ليلي، بطلة الرّواية الجديدة، تهجرها فور ولادتها، وتخلّف وراءها أسطورتها، والخوريّ كافيل يعاود الظّهور بدَوره، في هيئة راهب زائف الإيمان ذي مطامح شخصيّـة ملتوية هذه المرّة أيضاً. فلا شكّ في أنّ الكاتب مصرّ على إعادة استنطاق هذا العالَم الظلاميّ، ظلاميّـة يكمن فيها أحد مصادر مأساة العصر.

صدرت «الحرب الخفيّـة» [6] في 2018، قبل الجائحة الأخيرة بأقلّ من عامين، وفي ذلك مصادفة مثيرة، ووصلت إلى التّصفية النّهائيّـة لجائزة رونودو للرّواية. تنشأ الفتاة ليلي بلا أبوين في بدايات القرن العشرين. اسمها في البداية هو ليليت، وبين الدّلالة المحايدة للاسم «ليلي» وتلك المعبّأة بمحمول

أسطوريّ معروف للاسم «ليليت» يقوم في حياة هذه المرأة ووعيها صراع محتدم ومستمرّ يقف القارئ على تفاصيله المقلقة، ولعلّه يلخّص كاملَ سرّ الرّواية وشخصيّـتها المحوريّـة.

باختصار شديد نرجو ألّا يسيء إلى رغبة القارئ في الاكتشاف، نقول إنّ ليلي تحظى بعناية قرويّتين تعثران عليها في الغابة المجاورة، وسرعان ما تعرب عن ذكاء استثنائيّ، وولع غريب بالمخلوقات والأشياء المتناهية الصّغر. وفي صباها تنخرط في جمعيّـة كنسيّـة تعمل في الظّاهر لغايات خيريّـة، وتكون شاهدة على ممارسات إخفائيّـة و«شيطانيّـة» (ما يُسمّى «القدّاس الأسود») يتلاعب فيها راهب مشعوِذ و«الأمّ الرئيسة» بكيانات الرّاهبات وأجسادهنّ، بحجّة تطهيرهنّ وتطبيبهنّ. تهرب ليلي من هذا العالَم بمشقّة وعلى أثر نضال رهيب. ثمّ تتعرّف على أودويرتس، عالِم فلمنكيّ كان مثلها مولعاً بالمخلوقات المتناهية الصّغر. كانت أوروبّا تواجه يومذاك حربين عاتيتين: الحرب العالميّـة الأولى وجائحة الإنفلونزا الإسبانيّـة (سُمّيت كذلك لأنّ الإصابات الأولى بها حصلت كما يبدو في إسبانيا)، وكان أودويرتس يسعى إلى اكتشاف الفيروس المتسبّب بها.

تضع ليلي في خدمته قدراتها العلميّـة وموهبتها الرّفيعة في الرّصد، وتكشف له عن المصدر الحيوانيّ للفيروس المتسبّب بهذه الجائحة، ثمّ تندم على ذلك أشدّ النّدم عندما تكتشف التناقض المُريع لهدفَيهما في البحث: هي تسعى إلى تشخيص الفيروس وإيجاد طُعم ينقذ البشريّـة من أضراره، وهو يسعى لاستخدامه لصالح فرنسا في حرب جرثوميّـة أو بكتريولوجيّـة ضدّ الألمان، الذين كانوا يسعون هم أيضاً إلى تحقيق الهدف ذاته، كلّ جيش ينشط في هذا المسعى من خلال علمـائه المسخّريـن ومختبراته الملحقة بقوّاته. عبثاً

تسعى ليلي إلى إيقافه، ثمّ تختفي الجائحة كما ظهرت، بعد إيقاعها مئات آلاف الضحايا، وتضع الحرب أوزارها، وينتهي الأمر بليلي/ليليت إلى الجنوح إلى ليل الوعي، على أحد أسرّة مستشفى سانت آنّ الباريسيّ للأمراض العصبيّـة.

هكذا تَجابَه في هذا العمل، كما في الرّواية السّابقة، عالَمان هما على طرفَي نقيض: عالم البراءة والموهبة والإيمان بالعِلم الحقّ، وعالَم الشعوذة والدّجل الدّينيّ والِعلميّ واستغلال المواهب والقدرات لغايات إجراميّـة. وإذا بالجائحة تضيف نفسها إلى حرب البشر، بصفتها حرباً شعواء أخرى، لا من خلال خفائها المُلغِز وانتشارها وأذاها المريعَين، اللّذين بسببهما سمّاها العرب «جائحة»، فحسب، بل بفعل الجشع الآثم لبعض البشر أيضاً.

بالرّغم من كوننا في هذه الرّواية في بدايات القرن العشرين، فإنّ رائحة قرون وسطى تنبعث من أجوائها، أفلح الكاتب في بثّها في عمله، مخترقاً مناطق مكفهرّة حافلة بالظّلام الروحيّ وبَلادة الفكر، فكأنّه يريد إفهامنا أنّ القرون الوسطى لا تزال مقيمة فينا وبيننا، لا يبدّدها إلّا نضال فكريّ وعلميّ لا هوادة فيه. وبقدر ما تشيع الظّلمة في الصفحات الطّوال المكرّسة لمُمارسي الطّقوس السّوداء وأنصار الشيطان، وما هُم إلّا استعارة عن مختلف صنوف الدجّالين الذي يلقون متعة هائلة في التّضليل، وبقدر ما يحتلك العالَم، تنال مساحة النّور المتمثّلة في محبّة الاكتشاف المخْلص والبحث الأمين أهميّـة عالية وقيمة مضاعفة. من هنا لم يكن في توظيف الكاتب لكواليس بعض الأجواء المتشبّهة بالدّين وولوجه دهاليز بعض مراكز العبادة من شطط، بل هي هنا لترينا الثّمن الباهظ الواجب تسديده لبلوغ التنوير الحقيقيّ.

كاظم جهاد

إلى أرواح الممرّضات والأطبّـاء المنسيّين الذين ناضلوا وقضوا نحبهم إبّان إحدى أعتى الكوارث الطبيّـة في التاريخ.

لِيلي (1)

«إن أمعنْتَ النظر وخبرْتَ الألمَ عرفْتَ كلّ شيء.

وشهدْتَ في موتِ حشرةٍ الويلاتِ جميعَها.

يكفيك طيفٌ من الأثير لترى عبور الكواكب...»

إدمون روستان

مصحّ سانت آنّ، يونيو 1919

تعرف لِيلي الغرفة الصغيرة بنافذتها العالية الموصدة، وجدرانها المطليّـة باللّون الرماديّ. لا يفترض بها أن تكون تغيّرت منذ افتتاح المصحّ في القرن الفائت. بقدر ما تُسعفها ذاكرتها، احتُجِزت فيها عند كلّ واحدة من نوبات جنونها. في تلك اللّحظات- النادرة للغاية- لا أحد كان يريد الاقتراب منها. ولم يكن الأطبّاء يأتون لمعاينتها إلّا مدفوعين بشعورٍ بالواجب يعذّبهم. وكانت الممرّضات يقتربن منها متردّدات ويقمن بحركاتٍ عدائيّـة تتّسم بالرعونة والشراسة بقصد إخفاء خوفهنّ. على أيّ حال، أمعنت في الانزواء في حِصنها الداخليّ لا سيّما وأنّ أيّاً من معارفها القدامى لم يأتِ منذ أشهرٍ لتقصّي أخبارها خلا شقيقها ألكسندر في الفترة الأولى. ولا يسعها أن تلومهم بعدما عيلَ صبر الجميع. والأطباء السّريريّون أيضاً لم يعودوا لزيارتها إلّا عملاً بالمعتاد، وذلك لشعورهم المسبق بالإحباط حيال مريضة ممتنعة عن كلّ حوارٍ، وكلّ عملٍ، ولا تريد الخروج من حلقة الأفكار المفرغة التي لا تفصح هي عنها شيئاً، والتي تجعلها خطيرة على نفسها وعلى المجتمع، حسبَ العبارة المستخدمة في هذه المؤسّسة الرائدة في ميدان البحث العلميّ.

«خطيرة على نفسها وعلى المجتمع»: ما أصحّ هذه العبارة! كانت ليلي طاويةً ساقيها، وإزاءها يقف عند السّرير الطبيب الخمسينيّ الملتحي حاملاً كرسيّاً مطويّاً صغيراً.

«أشعر بأنّني أعرفكَ. سبق أن تقابلنا. أليس كذلك دكتور؟ دكتور...»

أنزل الطبيب كرسيّه وجلس مستقيماً وهو يعاينها. هزّ رأسه قائلاً:

- دكتور أمبرتو. تحادثنا عدّة مرّات في هذه الأسابيع الأخيرة، حين كنتِ تحت تأثير التنويم المغنطيسيّ.

- صحيح! التنويم المغنطيسيّ! إجراء حديث. ويبدو أنّه ناجع...

فاجأها سماع صوتها، هذه النبرة الجشّاء، المشوّشة، المتهدّجة، وليدة الوهن ولحظات الثوران التي كادت تحطّم فيها حبالها الصوتيّـة. لقد باتت، هي التي تجيد الغناء، تمقت سماعَ صوتها، تماماً كما تهرب من المرايا كي لا ترى كم أنّ جمالها تضاءل بصورة مرعبة. ومع ذلك تابعت الكلام مدفوعةً بحاجة لا تُقاوَم، شاعرةً بارتياحٍ غريب في حديثها إلى الطبيب.

- قرأتُ كتاباً بهذا الخصوص كتبه بروفسور في «الكوليج دو فرانس» [7]، يدعى بيير...

- تقصدين بيير جانيه؟ أنا أحد تلاميذه. نعم، استخدم التنويم المغنطيسيّ للاهتداء إلى الصدمات النفسيّـة القديمة لمرضاه.

- يذكّرني قولك بذلك العِلم اليهوديّ... علم التحليل النفسيّ. أليس كذلك؟

- ليس إلى هذا الحدّ. الدكتور فرويد وزملاؤه يسعون لردّ أصل كلّ شيء إلى اضطراب جنسيّ فيما يعتبر بيير جانيه أنّ للمريض عدّة شخصيّات، وميولاً مختلفة تتصارع... للجنس تأثيره أحياناً وفي أحيانٍ أخرى لا تأثير له.

- الأمر معقّد جدّاً بالنسبة إليّ! على أيّ حال، لقد نجحتَ في مسعاك. لا بدّ أنّ لديك موهبة في هذا المجال.

- لا أملك موهبة جانيه. ببساطة لديّ القدرة على تنويم الأشخاص القابلين للتأثّر. وهُم أكثر ممّا نظنّ، وأنتِ منهم.

- هل نوّمْتَني مغنطيسيّاً؟ لا أذكر شيئاً. ما الذي فعلته بي دكتور؟

- أرغمتكِ على الكلام، إن جاز القول. طلبت منك ذلك خلال جلسة التنويم المغنطيسيّ السابقة. سجّلتِ طلبي بصورة لاواعية وها أنتِ تستجيبين له في هذه اللّحظة.

فكّرت ليلي هنيهة وقد تجهّم وجهها. لا يسعها التركيز.

- ما قمتَ به في غاية البراعة. ومع ذلك...

- ماذا؟

- بما أنّك تكشف لي «الخدعة»، فأنا يجدر بي أن أفهمها وأمتنع عن التجاوب معك. أليس كذلك؟ يجدر بي التوقّف عن التحدّث إليك.

- في الواقع كان لديّ الفضول لرؤية ردّة فعلكِ. وتبيّن لي أنّ الإيحاء المغنطيسيّ لا ينقطع بمجرّد الكشف عن مسار عمله.

صمتَ أمبرتو قليلاً ثمّ أردف قائلاً: «أقدر بالفعل أن أكتب مقالة مهمّة بهذا الخصوص...».

- مقالة!... ظريف منك أن تهتمّ بأمري... أيعني هذا أنّك ستسمح لي بالخروج عمّا قريب؟ أتعتقد أنّني شُفيت؟

تردّد في الإجابة. كان يُفترض بلِيلي أن تعرف أنّ أفضل طريقة للبقاء محتجزة في المصحّ هي التأكيد على استعادتها وضوح بصيرتها الكامل. أطبّاء الأمراض العقليّـة معتادون على ذلك، فكلّ المجانين، كلّهم على الإطلاق، يؤكّدون أنّهم الأشخاص الأكثر تعقّلاً بين البشر.

وأخيراً ابتسم قائلاً: «نوبة هياجك في الأسبوع الفائت تُظهر أنّك لم تشفي».

- لم أحتمل تلك المرأة التي كانت تغنّي. أمر لا يطاق!

- ألأنّها كانت تغنّي بِنشاز؟... هل أيقظ فيكِ غناؤها ذكرى مؤلمة؟

- ...

- قيل لي إنّها كانت أغنية للصّغار بريئة للغاية: «النّمس يَعدو، ويَعدو»[8]...

- يصعب علـيّ كثيراً شرح الأمر دكتور. ثمّ ألا تظنّ أنّ لديّ أسباباً تخفيفيّـة؟ بالنّظر إلى كلّ ما حصل لي...

تنحنح الطبيب وقال: «هذه الحرب التي مرّت بنا حملت المآسي إلينا جميعاً. كان لديّ ثلاثة أبناء. فقدتُ اثنين منهم. أحدهما توفّي بالإنفلونزا الإسبانيّـة، والثاني توفّي في مايو 1918 بالقرب من بولوني [9]. هكذا دون أن يُعرف ماذا حدث له».

- هل كان جنديّاً؟

- كان يعتني بأحصنة الجيش. وكان يرغب في أن يصبح طبيباً بيطريّاً... كانت وفاته مؤلمة جدّاً خصوصاً لزوجتي. إنّه دوماً هنا حتّى في غيابه أشبه بشظيّـة يستحيل انتزاعها...

- أمّا أنا أعرف ماذا حلّ بابني. مهما كان الأمر مرعباً ورغم شعوري بالذنب...

- بالذنب؟ ممَّ؟

لم تجب ليلي. أخذت تنظر إلى ذبابة يجذبها الضوء في الخارج وتصطدم بالنافذة بِعناد. ثمّ قالت: «الحياة أو الموت... ما الفرق بالنسبة إليها؟... براءة الملائكة تلك التي لا تطاق. تقترب منّا كما تقترب من الجثّة، الأمر سواءٌ لعينيها... عينيها برؤيتهما المذهلة بحقّ».

- تنطقين بالألغاز.

- إنها كلمات رجلٍ تسبّب لي بألمٍ كبير... تراودني الكلمات ومعها صور ليست جميلة إطلاقاً... أسراب من الطّير تتساقط على السرير، وجوه بعيونٍ منقورة، شعر طويل يطوّق تكشيرة فظيعة... ثمّ تتصاعد رائحة غثّة تصيبك

بالدوار وتُشعرك بأنّك تعوم في بحرٍ دبِقٍ... أذكر حيواناتٍ جائعة تعوي في الهُري، أحصنةً تركل في الأبواب، خنزيراتٍ تلتهم صغارها ثمّ تهوي في سحابة من الذباب الأخضر، جرذاناً تصرف بأسنانها جاهزة للذود عن جثّة التُهم نصفها، كلباً ذا عينين جميلتين عذبتين كاشفاً عن شدقه الذي تقطر منه أشلاء اللّحم... مشاهد غير جذّابة على الإطلاق أليس كذلك؟

- تابعي... ماذا تتذكّرين أيضاً؟

- أذكر وجوهاً بشفاهٍ تكشّر عن أنيابها، أسناناً تقضم الفراغ، وجوهاً مزرقّة ممتقعة إلى حدّ يفوق التّصوُّر... وتلك الطفلة التي رأت والدها ميتاً في سريره فلاذت بالفرار وهي تنتحب قائلة: «هذا ليس أبي! هذا ليس أبي!»، ثمّ ما لبثت أن خرّت صريعة بدورها... صور تبدو وكأنّها طالعة من نفقٍ كنت أظنّني خرجت منه. نفق كان حياتي...

- تطرّقتِ إلى هذه الأحداث بصورة غامضة تحت تأثير التنويم المغنطيسيّ. ما الذي حصل؟ اشرحي لي.

استوت لِيلي قليلاً في سريرها. بدت مستغرقة في التأمّل. للمرّة الأولى حدّقت في الطبيب بعينيها السوداوين الثاقبتين. «لمَ لا في الحقيقة؟...»، ثمّ قالت بسرعة وبنبرة أكثر انخفاضاً: «بالمناسبة، سأقول لك كيف قتلتُ ابنكَ...».

كان أمبرتو يعرف جنون العظمة لدى المختلّين عقليّاً: بعضهم يدّعي أنّهم أبطال مجهولون، وبعضهم الآخر أنّهم من أصحاب المليارات الذين يملكون الأرض بأكملها، وثمة من يؤكّد أنّه يخاطب الله مباشرة. ولكنّ هذه المريضة تتحدّث تحت تأثير التنويم المغنطيسيّ بطريقة مغايرة. ثمّ إنّ هناك

شيئاً ما في صوت هذه المرأة الشابّة يجعله يرتعد، شيئاً ما في نبرة هجومها الشخصيّ هذا، المدهش في غرابته، المرسل بالثقة المطلقة التي تمتلكها العارفات بالأسرار.

كان يُفترض بالجملة التي تلفّظت بها للتوّ أن تصادق على تشخيصه، ومع ذلك...

أسندت لِيلي ظهرها إلى الوسادة مغمضة عينيها، مستعدّة للعودة إلى قرية طفولتها ورواية مأساة وجودها. وبصوتٍ لا رونق فيه ولا عمر له قالت: «أحياناً أفكّر بأنّي ابنة الشيطان، دكتور».

غابة سان غوبان، البيكاردي، 1896

كان جورج يمشي في الزقاق الزلِق، والندى لم يجفّ بعد، محاذراً أن يوقظ الطفلة التي يحملها بين ذراعيه نائمةً على هدهدة وقع خطاه المنتظم. كان هذا الفتى نحيلاً طويل القامة، أشقر أسوة بسكّان البلدان الشماليّـة، في الخامسة عشرة من عمره، ولكنّه كان يبدو أكبر سنّاً من ذلك بكثير. يبدو أنّ مَن يُدعَون بـ «التماسيح [10]» يهرمون بسرعة، أولئك المتسوّلون الذين كانوا يعيشون في سراديب مدينة لان العالية، ولا يخرجون منها إلّا ليسلبوا ما يقدرون عليه من البورجوازيّين. كان جورج لا يزال طفلاً حين شوّهه من كان حاميه آنذاك. واحتفظ من ذاك الاعتداء بساعدَين ملتويين ويدين متورّمتين لا تنقصهما مع ذلك المهارة في العراك بالسّكاكين.

بما أنّه تتلمذ على أيدي الأرذال، فقد تعامل بالمثل مع الفتية الذين كان يلتقطهم ويجدعهم بخفّة ليجعلهم مثيرين للشفقة ويأتوا له بالمال. كان يقود فرقة صغيرة يرسلها للتسوّل في المدينة، وكانت تدرّ عليه ما يعتاش منه. كان أعضاء الفريق يتجدّدون غالباً لأنّ الدهاليز الرطبة تقضي على أكثرهم ضعفاً. هو نفسه كان يعاني من مرض في صدره ويبصق دماً، وكان حدسه ينبئه أنّه لن يعيش طويلاً. كان يفكّر بذلك أحياناً وهو يهزّ رأسه ثمّ يسقط في نوعٍ من الخدر لا يفارقه إلّا ليتوعّد أو يقاتل.

حين كانت تحدث أعمال شغب في لان [11]، لم يكن جورج يوماً بعيداً عنها. كان قد لاحظ وجود الطفلة حين لم يعرها أحد اهتماماً فانتهز الفرصة.

لحسن الحظ، كانت الرضيعة- التي تُدعى ليليت إذا ما احتكم للاسم المطرّز بخيط أحمر على أقمطتها- نائمة في ذلك الوقت، فقدرتُها على الصراخ كفيلة باستنفار كلّ رجال الشرطة في البيكاردي.

كان يصطحب الرضيعة إلى سان غوبان حيث يفترض أن يدفع له الزوجان غريمال مبلغاً جيّداً من المال لقاء هذه المجنّدة الصغيرة. كان الزوجان الشحيحان يعنيان بتربية الأيتام حتّى بلوغهم سنّ الخامسة أو السادسة. حينئذٍ كانا يبيعانهم لأصحاب مصانع النسيج في سان كنتان حيث تُبلي أيديهم الصغيرة بلاء حسناً، أو إلى معامل الفوسفات في شوني هناك حيث تقضي صناعة الأسمدة على القسم الأكبر من العاملين.

كانت إحدى تلك الصبيحات الرطبة التي تجعلك تخال أنّ الشمس لن تعود أبداً. كان جورج يسير منذ ساعة وأكثر حاملاً صرّته الصغيرة بين ذراعيه حين سمع رجالاً يقتربون. عرف من أصواتهم المبحوحة أنّهم من تلك العصابات المخيفة التي تضمّ قدامى الجنود وعمّالاً متمرّدين يسطون على الغابات. توغّل جورج في الأجمة وانحنى ليختبىء بالقرب من كومة أحجار متداعية واضعاً الطفلة على العشب برفقٍ متناهٍ. «إذا استيقظت قُضي علـيّ».

عبثاً كان يحاول الاختباء فروّاد الغابة أولئك لاحظوا فوراً ثيابه المدنيّـة الفاقعة وإن بهتت ألوانها. توجّب عليه الهرب وترك الطفلة. طاردوه لوقتٍ طويل إلى أن نجح في تضليلهم بتوغّله داخل أجمة شائكة مزّقت شجيراتها ثيابه وخدشت وجهه. تعثّر في الأشواك ثمّ نهض مسعوراً كحيوانٍ بائس إلى أنْ شعر أخيراً بأنّهم أحجموا عن مطاردته.

بعد مضيّ ساعات، حين عاد أدراجه، عجز عن إيجاد المكان الذي ترك فيه الصغيرة. كان يتذكّر شجرة جوز وحجارة قديمة كستها الطحالب. لكنّ الغابة كانت من الشُسوع والتناسق بحيث تبدو كلّ الأمكنة فيها متشابهة. ثمّ أمطرت السماء مدراراً فَضَلّ طريقه لا سيّما وأنّ المساء أخذ يهبط. كان جورج مبلّلاً مرتعدَ الفرائص حين انحرف غرباً، آملاً في استعادة طريق لان على وجه السرعة.

أمّا الطفلة فكان جورج مطمئنّاً بشأنها. في مثل هذه السّاعة لا بدّ أنّ اللّصوص الذين يرودون الغابات قد لاحظوا وجودها.

كان جورج قد ترك الطفلة بين شجرة جوز كبيرة قاتمة والأنقاض المتداعية لمقبرة ميروفنجيّـة [12] غزاها النمل. ما إن لاذ الفتى بأذيال الفرار حتّى طار الذباب ليحطّ على وجه الطفلة ممتصّاً العصائر، ثمّ اندفعت نمال متكاسلة، كان لا يزال يخدّرها برد الصباح، منقضّة على الجسد الصغير. ثمّ انضمّت إليها حشرات كشّافة أكثر حيويّـة وجسارة، فتسلّقت الأقمطة الرطبة وقد أغوتها الرائحة. وما لبثت أن جالت عشرات الحشرات الأخرى في الأقمشة التي تلفّ الطفلة النائمة وقدميها ورأسها، بشعره القليل، ووجهها. وهكذا تدثّرت الرضيعة بعددٍ لا يحصى من الأجسام الدقيقة المتحرّكة العصبيّـة التي مضت تستكشف كلّ زاوية فيها بحثاً عن النكهات اللّذيذة. كانت ملايين الأرجل السريعة والزُّبانِيات المتحرّكة والأبدان المرتعشة تدبّ دون توقّف على الأقمطة البيضاء.

طفقت الحشرات تتدافع وتتصادم وتدوس بعضها على بعضٍ وقد استثارتها الفرومونات المنبعثة من هذه البهيمة العملاقة التي لا حول لها ولا

قوة. جعلت تتنشّق روائح جلدها وتتشبّث بذرّات عطرها وتلعق الأماكن حيث الجلد مغطى بمادّة عضويّة جافّة. سعت إلى اختراق الأجزاء التي تنبعث منها روائح أكثر نفاذاً منزلقة تحت الأقمطة، متوغّلة في الفم شبه المغلق وفي الفتحات المفضية إلى داخل الجسد، في الأنف وفي الأذنين، ملتصقة بالعينين اللّتين فُتحتا للتوّ. أخذت الطفلة تسعل وتحاول عبثاً الحراك. فات الأوان.

أرادت أن تصرخ لكنّ عناقيد الأجساد الصغيرة المتحرّكة كانت ملتصقة بلسانها وحنكها وحلقها. وبعضها كان يتوغّل في بلعومها. سعلت من جديد بشقّ النفس. كادت تختنق فالفم والأنف امتلآ بالنمل والعينان انسدّتا بالجسيمات السوداء. كانت الطفلة عاجزة عن الدفاع عن نفسها، وما لبثت أن تحوّلت إلى كثيب رابض على العشب تجوبه الأرجل العصبية، أشبه بكومة جامدة ومهتزّة بما يجوبها. في هدأة الصبيحة هرعت قرية النّمل كلّها باتّجاه الطفلة متدافعة متلمّظة متنشّقة الفرومونات. انقبضت معدتها لكنها عجزت عن التقيّؤ، وانتفض جذعها بارتعاشات خفيّـة تحت وطأة الحشرات التي كانت ترودها. تنهّدت للمرّة الأخيرة متنشّقة جرعة من الهواء فتغلغلت معها حشرات صغيرة. ثمّ توارت محتجبة خلف ملايين الحشرات.

وفجأة انفجرت الغيوم الأردوازيّـة اللّون التي كانت تسدّ السماء وصبّت مطراً جليديّاً ثقيلاً على الغابة. لم يتسنّ للنملات الوقت لتغادر طريدتها وتعدو إلى ملجأ ما، فالقطرات العملاقة قصفت ظهرها. بدأت السيول تغسل وجه الطفلة وخاصرتيها وتجرف النّمال كيفما اتفق جاعلة ما مات منها على العشب المبلول أكثر ممّا بقي حيّاً. تحت الطوفان، بدأت الطفلة بالسعال والصراخ والتخبّط بكلّ قواها. ما من جواب في الغابات الشاسعة المضطربة التي يعبرها صفير الزوابع.

في ذلك الصباح، وبالرغم من السماء المنذرة بالمطر، خرجت أورور بسْلي تجمع الفطر. في هذه النواحي الرطبة، وفي كنف الأوراق الكثيرة كان البوليطس والقوقع الأصفر [13] يزدهران بحلول أواخر الصيف. اكتنفت رائحة الأرض المبلّلة والعفن الذابل الأدغالَ حيث كانت فلول القوم الصغير المهرول في الغابات والأفاعي والقنافذ والطيور التي سقطت إنهاكاً ملتصقة بالعشب والأوراق. وصلت أورور إلى ركن ملائم، عند تخوم مقبرة متداعية حيث لم تلحظ أي أثر لفطرٍ. فقط رأت، قرب إحدى أشجار الجوز، كومة صغيرة بيضاء ناتئة في البريّـة. فكّرت بحيوان ميت، بغُرَيرٍ أو ثعلب. لدى اقترابها رأت الحدبة تتحرّك. لفرط دهشتها، أفلتت سلّتها من يدها. كان هناك طفل صغير راقد على طبقة الأعشاب الرطبة.

هرعت تنفض الأقمطة المبلّلة منتزعة قدر استطاعتها النمال الملتصقة بالأنف والأذنين وزوايا العينين، ومسرّحة بيدها الشعيرات الرقيقة التي التصقت بها الحشرات الميتة. رفعتِ الرضيعةَ فتقيّأت بقية الحليب المتخثّر والدويبات المسحوقة. سقتها أورور القطرات الأخيرة من قربتها فتجرّعتها الطفلة وهي تسعل حتّى الاختناق. ثمّ حملتها وانطلقت مسرعة. كانت الطفلة بين ذراعيها عابسة فاتحة فمها أشبه بزينابة فضيّـة أُخرجت من النّهر، وأوهن من أن تبكي.

بريمونتريه، 1896

انهمكت المرأتان في مراقبة الرضيعة حائرتين بعدما نظّفتاها وجفّفتاها بعناية ثمّ وضعتاها على الطاولة وكأنّها دجاجة سمينة منتوفة الريش. بدت لهما بملامحها المسطّحة في غاية القبح، لا سيّما وأنّها استعادت حيويّتها وبدأت تزعّق مثل عجلٍ فُصِل عن أمّه. راودتهما الفكرة نفسها: يجب التخلّص منها. شعرت أورور، التي عثرت عليها، بالندم لأنّها أدخلت هذه الطفلة الدميمة في بيتها. ها قد مرّت عشر سنوات على سكنها في هذا البيت عند أطراف قرية بريمونتريه مع صديقتها ماري روسو، وهي امرأة سمراء جميلة في مطلع الثلاثينيّات. كانتا تقيمان هناك وترتزقان من بيع الفراريج والبيض والجبن في أسواق المنطقة. إنّ حسنة هذه المهنة، كما كانت أورور تعقّب من دون أي تهكّم، تنحصر في كونهما تقدران أن تقتاتا من رأس المال نفسه في حالة كسادِ السوق.

تبادلتا النظرات. وجب عليهما الاحتفاظ بالطفلة لهذه اللّيلة على الأقلّ. أطعمتاها الحليب الممزوج بالماء المغليّ والقليل من الكحول لحملها على النوم، وجهّزتا لها فراشاً مرتجلاً من بطانيّـة وأغطية. بقيت الطفلة هادئة حتّى الصباح. وفي اليوم التالي، في سوق سان غوبان، سمعت أورور أحدهم يتحدّث عن الاختفاء الغريب لطفلة في لان، على مرأى ومسمع من الشرطة، وعن تردّد شائعات بشأن احتفالات غريبة أُقيمت في اللّيلة السابقة في كنيسة فرسان الهيكل، وطقوس مريبة جدّاً، وطفلة اختطفت في ظروف مشبوهة، ورجال شرطة لم يقوموا بشيء (أتُراهم كانوا متآمرين؟). تصوّروا أنْ لا أحد

بات في مأمن. ثمّة ما كان يدعو حقّاً الفلّاحات للثرثرة. لا شكّ أنّ الزمن شديد القتامة والسلطات ضعيفة وفاسدة... حسناً يا سيّدتي قولي لي هل تريدين بعض البَيض؟

في المساء، اجتمعت أورور وماري للتشاور. بعد ما حصل للطفلة، كان يتوجّب حمايتها والاحتفاظ بها على الأقلّ لبضعة أيّام حتّى تتعافى ويهدأ الوضع. وسرعان ما عثرتا على مرضعة، امرأة من البيكاردي ذات صدر عارم قبلت أن تبقي الأمر سرّاً. بعد أسبوع تابعتا تحرّياتهما مستجوبتين الناس في الأسواق ومتحدّثتين إلى معارفهما. ربّما كانت الرضيعة ابنة لامرأة تدعى فرانشيسكا توفّيت أثناء الوضع، وقد مُنِحَت الطفلة اسماً غريباً: ليليت، وكان مطرّزاً على أقمطتها. في تلك الأثناء تُرك عدّة أطفال في المنطقة أمام باب إحدى المؤسّسات الدينية وربّما كانت ليليت بينهم. لكن لا أحد كان يتحدّث عنها، ولا حتّى الخوارنة في لان (وقد ذُكِرَ أحدهم ويدعى كافيل) الذين تسبّبت لهم القضيّـة ببعض المتاعب.

كانت أورور مهووسة بالتّجميع، فتلتقط صدفات الحلازين وكِسَر القشور والفراشات واللّآلىء والأشرطة. ثمّ انتقلت من تجميع الأشياء الحسيّـة إلى تلك الأكثر تجريداً: الأخبار. ما إن انطلقت في مسعاها حتّى استطاعت تقصّي كمّ هائل من الأخبار. وبما أنّها كانت تُعَدّ شبه مخبولة فقد أفسح لها المجال لتنقّب في كلّ مكان، في المكتبات، والأرشيفات، والسجلّات الكهنوتيّـة والإداريّـة. وفي غضون بضعة أيّام من الأبحاث العشوائيّـة، استطاعت أن تعيد تركيب حياة والدة ليليت وتضع يدها على أشياء زُعِمَ أنّها كانت تخصّها: خاتم، وشريط مصفّر، وزجاجة نظّارةٍ مخدوشة، وخصلة شعر كستنائيّـة اللّون.

كانت قصّة فرنشيسكا تلك مليئة بالثغرات والأحداث التي لا تكاد تُصدّق. ولكنّها سرعان ما بدت لأورور وماري شخصاً جديراً بالاهتمام حقاً. تذكّرت ماري صبيحة أقيم فيها منذ عدّة أشهر قداس جنائزيّ في كاتدرائيّـة لان. حينذاك غنّت فرنشيسكا بصوتٍ أخذ بألباب المؤمنين المجتمعين هناك. بقيت ماري واقفة في ساحة الكاتدرائيّـة ولم تسمع شيئاً من الغناء لكنّها فوجئت بسيماء الرجال والنساء الخارجين من الكنيسة. لكأنّ الغناء أيقظ فيهم عاطفة جعلتهم بمنأى عن الآخرين. تذكّرت تلك القامات السائرة بخشوع وكأنّ أشباحاً تواكبها. لكنّ هذا لم يمنع فرنشيسكا من الالتجاء في النّهاية إلى مأوى بريمونتريه ثمّ الهرب منه لتلد طفلها قبل أن تموت. أمّا الأب فلا أحد كان يعرف عنه شيئاً.

كلّما روت أورور مقتطفات من اليوميّات التي تركتها فرنشيسكا أو نوادر عن حياتها القصيرة، أمعنت ماري في اعتبارها كائناً علويّاً. تلك المرأة التي سمعت ما لا يستطيع أحد سماعه وارتقى غناؤها إلى مرتبة من السموّ المطلق، بدت لها كائناً مختاراً استطاع بلوغ بُعدٍ خفيٍّ من الحياة. لذا قرّرت الاحتفاظ بوليدة امرأة مدهشة، لا سيّما وأنّها تعلّقت بهذه الطفلة البكّاءة التي لا أحد كان يطالب بها. فاتحت أورور بالأمر فتقبّلت وجود ليليت كمن يقبل قطعة أثاثٍ جديدة في منزله. غيّرتا اسمها الثقيل على السّمع لتدعوانها «ليلي»، تيمّناً باسم زهرة [14] Lily of the valley الذي تلفّظت به ماري مبتسمة معتزّة بأنّها تعرف بضع كلمات بالإنجليزية.

اختلقتا وجود عمٍّ بعيد القرابة عهد إليهما بابنته قبل رحيله إلى المستعمرات. لم تنطلِ الحيلة على فلّاحي الجوار. لكنّ أيّاً منهم لم يشِ بهما للشرطة. لم تكن هاتان المشعوذتان محبوبتين كثيراً في المنطقة نظراً

لحياتهما الفضائحيّـة. تصوّر يا صاحِ امرأتين جذّابتين فاتنتين تعيشان معاً في منزل واحدٍ وما من رجل بينهما! هذا ما كانوا يتندّرون به، أمّا أن يصل الأمر بهم إلى حدّ إبلاغ الشرطة فلا...

كبرت ليلي بين والدتين شديدتَي الاختلاف. كانت ماري نشيطة ومرحة وأكثر لطفاً من أورور، تلعب مع ليلي وتقصّ عليها الحكايات لتنام، وتعرف كيف تواسيها. أمّا أورور فلم تكن تهتمّ لأمرها، لكنّها هي من علّمها القراءة والكتابة بانضباطٍ لا يكلّ. كانت أورور في الخامسة والخمسين وتتمتّع بجمالٍ لافت، ومع ذلك فهي منذ ثلاثين عاماً مجرّد شرنقة فارغة، وغلاف لكائن حيّ توارى، يتحكّم بها مزاج بارد ولامبالٍ. إلّا أنّ شيئاً وحيداً كان يثير فيها رعباً جنونيّاً إلى حدّ الإغماء: السّروال الأحمر [15].

في عام 1871، كانت أورور إحدى مُشعِلات الحرائق اللّائي دافعن عن كومونة باريس [16] حتّى النهاية، حتّى ذلك اليوم المشؤوم في 24 مايو حين اضطرّت إلى ترك المتراس في شارع ريفولي ونجحت في الانسحاب مع بعض الرفاق إلى متحف اللّوفر. كانت تلك أسوا لحظات حياتها.

بعد انتصار قوّات ماك ماهون، وانتهاء كلّ شيء، التجأت أورور إلى بريمونتريه لدى عمّة مسنّة. ما عادت تشعر بأيّ انفعال، لا حيال عائلتها ورفاقها القدامى في الكومونة، من رحل منهم إلى المنفى أو رُحِّل، ولا، من بَعدُ، إزاء الرجال الذين غازلوها. الشخص الوحيد الذي كانت تشعر حياله باهتمامٍ باردٍ كان ماري روسو، لأنّها هي التي اعتنت بها، وكانت لا تزال طفلة، لدى وصولها إلى بريمونتريه وساعدتها طيلة أسابيع حين كانت عاجزة عن النهوض. احتفظت أورور من تلك الفترة بعادة غريزيّـة: كانت تشعر بنفسها

خفيفة بجوار ماري، ومتعبة ما إن تبتعد. حين استعادت عافيتها، بدأت تعمل في الأسواق برفقة عمّتها، تبيع البيض والجبن.

بعد مرور بضع سنوات بدأ أهل ماري يفاتحونها في أمر الزواج. كانت ماري رشيقة وجميلة ومجتهدة في العمل، وكان الكثير من فتيان المنطقة مهتمّين بأمرها، وبينهم طلاب زواجٍ ذوو شأن. أصغت ماري إلى أبيها دون أن تنبس بكلمة. لم تكن تناوئ الرّجال، ولكن أن تعيش مع أحدهم أو، الأسوأ من ذلك، أن تحبل من أحدهم فهذا ما لا طاقة لها على احتماله. وبما أنّها فتاة تعرف كيف تقنع الآخرين فقد فاوضت أهلها وإخوتها، واستطاعت بفضل مبلغ متواضع من المال، ما يعادل مهراً، أن تشتري منزلاً صغيراً عند تخوم بريمونتريه، غير بعيد عن المصحّ، وسكنت فيه مع أورور. اقتنت المرأتان بضعة خراف وعنزات وأنشأتا مزرعة دواجن ظلّت تدرّ عليهما مبلغاً مقبولاً من المال على مرّ السنين.

ولاحقاً، حسب الوثائق التي عثرت عليها أورور وبعض الشهادات المتناقلة أصبحت والدة ليلي مرجعاً غامضاً ومبهراً للمرأتين. أخذتا تترصّدان لدى ليلي كلّ ما كان بإمكانه أن يذكّر بفرنشيسكا. في الكلمات التي تفوّهت بها بادىء الأمر، وفي الأشياء التي كانت تحبّها مذ كانت في المهد، ثمّ عند قيامها بخطواتها الأولى، والتصرّفات التي تدرج عليها، أخذتا تبحثان عن علاماتِ تميُّزِها. هل كشفت عن موهبة أو قدرة خاصّة؟ هل كان سلوكها يبشّر بمزايا استثنائيّـة؟ ليس حقّاً. في أحسن الأحوال كان صوتها جميلاً وتغنّي بشكلٍ ظريف. ولكنّ فرنشيسكا، وفق ما كانت ماري تقوله محملقة إلى أورور، كانت قادرة على سماع انبثاق فراخ الطّير من بيوضها في الأعشاش، أو صرير عنكبوت تلتهم ذبابة صغيرة. لم تكن ليلي تملك مثل هذه الرهافة في

الإحساس. وأخيراً، كان لا بدّ لهما من الاعتراف بأنّ الصغيرة ربّما ورثت شيئاً من والدتها، ولكن ليس العبقريّـة بكلّ تأكيد.

ألقى الظلّ الأموميّ العملاق بثقله على طفولة ليلي برمّتها. في سنّ الخامسة أُخبِرَت أنّ والدتيها ليستا تماماً كذلك، وأنّ أمّها كانت شخصاً خارقاً للعادة أبكرَ جدّاً في الرحيل، وأنّ اسمها الأصليّ كان ليليت. وقتئذٍ غمرها حزن كبير لدرجة السّقم، فلازمت سريرها رافضةً التحدّث إلى هاتين الكاذبتين اللّتين لعبتا دور الأم زوراً. وذات صباح، نهضت من سريرها لأنّها لم تعد تستطيع الاستمرار على هذه الحال، وهرعت لتعانق ماري. بكت طويلاً وهي تنتحب قائلة: «لا أريد أن أدعى ليليت! أنا ليلي!». وعندما هدأ روعها وصمّمت فعلاً على التحدّث بالأمر استمعت إلى ماري تروي لها ما كانت تعرفه عن والدتها. أدركت سبب الضوء الغريب الذي رأته يلتمع مرّات كثيرة في أعين رفيقتيها، ضوء الترقّب: كانتا ترصدان الإشارات التي من شأنها أن تثبت أنّها ابنة تلك المرأة الخارقة للمألوف. لكنّها شعرت أنّها لن تكون أبداً على مستوى توقّعاتهما.

شعرت بالخوف. كانت تدرك جيّداً أنّ ألعابها وعاداتها وكلماتها الطفوليّـة لم تكن توافق ما تتوقّعه أورور وماري منها. حلمتا بكائن أكبر من الحياة وألفيتا نفسيهما برفقةِ بُنيّـةٍ لا موهبة عندها، ومجرّدة من كلّ طموح، أي عاديّـة في المحصّلة. لم توجّه أيّ من المرأتين أدنى ملامة إليها. لم تكونا محتاجتين لذلك. كان يكفي أن ترمقهما بنظرة لدى قيامها بحماقة ما أو لدى جوابها مواربة عن سؤال لكي تقرأ الخيبة في نظراتهما. في تلك اللّحظات كانت تشعر بقامتها تضؤل، فتخفض رأسها، وتثني كتفيها للداخل ملصقةً ذراعيها بجسدها كمن يريد أن يجتاز نفقاً. بدا لها أنّ حياتها متقوقعة داخل شرنقتها.

طيلة أشهرٍ، أظهرت اهتماماً عجيباً بأصغر الأشياء وأدقّها. تخلّت عن دميتها القماش لأجل تمثال صغـير من الآجرّ آتٍ من مغـارة مصغّرة. كانت تلهو بلآلىء صغيرة، وإذا جلست إلى طاولة الطعام أكلت شرائح الخبز الرقيقة بعدما تقسّمه بعناية إلى فتات، وتشرب في كوب يوازي حجمه كشتبان الخياطة. وحين تنصرف الى الخياطة كان مدهشاً رؤيتها كيف تدخل خيطاً واهياً كخيط العنكبوت في خرم إبرة لا يكاد يُرى. ذات يوم أسقطت أورور زجاجة فتحطّمت على أرض المطبخ، وحينها التقطت ليلي أدقّ شظايا الزجاج، عاثرةً على كِسَرٍ كانت من الرقّة بحيث تعذّر على المرأتين رؤيتها. كذلك دأبت على معاينة أدقّ ذرّات الغبار، وأقلّ لطخة على الثياب، أو أدنى خطأ في القماش، وكان ميلها المفرط إلى كلّ ما هو بالغ الصغر يغيظ أورور وماري.

في الحديقة، كانت تجذبها الكائنات الهشّة الضئيلة التي تسكن الفضاء والأرض خفْية. استمتعت بداية بالفراشات ولكنّها سئمت طيرانها المتهاون. فضّلت عليها الدبابير والنّحل بمساراته المزاجيّـة المتغيّرة، وأيضاً الذباب الصغير الذي كان يحوّم سكران في الضوء. كانت تعاين في بضعة سنتمترات مربّعة من التراب جمهرة من الكائنات تمور بين أماليد العشب وتجدها مهيبة مثلها مثل جذع سنديانة معمّرة؛ ترفع طبقة الطحالب فتهرول حشرات صغيرة محمومة مرتعبة من الضوء ومن الطيف العملاق الذي بان وسط أشعّته. هكذا تخيّلت الخالق الذي كان يتحدّث عنه الكاهن (ولم تكن تلاقيه إلّا لماماً): حضور هائل يراقب الناس بصمت دون أن يوليهم اهتماماً خاصّاً، وكان من وقتٍ لآخر، ومن دون سبب، قادراً على إحداث كارثة بإيماءة من يده.

كانت ليلي لا تأبه بما تردّده ماري عن الغابة قائلة إنّها مرتع الشيطان والمتشرّدين الأشدّ خطراً من خنزير بريّ جريح، بل تمضي في الأحراج أيّاماً بمفردها. وحين تعود عند المساء محمّرة الخدّين، والأوراق وأماليد العشب ملتصقة بشعرها، وأظافرها متّسخة من التراب، كانت تقول لاهثة إنّها لم تتعرّض لأيّ خطر، وأنّها تعاين عن بعـدٍ المتسكّعين التائهين الذيـن يرودون الأحراش وإنّ لديها الوقت الكافي للاختباء في غيضة أو في أجمة العليق أو السرخس لدى اقترابهم.

في تلك النهارات، تحت الأغصان التي تعتعتها الريح، وبين الجذوع والحجارة التي قضمها الحزاز، كانت تفكّر بوالدتها مستمعةً مراراً وتكراراً إلى الأغاني والصرخات، مستشعرةً الأنفاس الخافتة الدافئة للحيوانات الكبيرة بين الأشجار، لكنّها لم تكن تستطيع النفاذ إلى البعد الخفيّ والعمق الحميم لكلّ ألوان الموسيقى هذه. هناك جعلت ملاذ الأمّ العظيمة التي كانت أورور وماري تحدّثانها عنها.

وذات صبيحةٍ شتائيّـة لمحت ليلي في الغابة، من جهةِ كروا سان جان، رجلَين يحملان أقفاصاً حُبست فيها حيوانات ضخمة إلى حدّ ما. كان ذاك الرجل، هنري، يصطاد مع زميل له يدعى بازيل، وهو فلّاح ممتلئ الجسم ذو أنف أتلفته الكحول يسكن على مقربة من منزلها. جاء الرجلان لمعاينة مخرج أحد الأوكار وأخذا يجرفان الثلج عنه. أرسل إليها بازيل لدى نهوضه إشارة ودّ. «هل تعرفين أن تتصيّدي النّموس يا ليلي؟». اقتربت منهما جزعة نافية برأسها. في أحد الأقفاص تعرّفت إلى النّموس التي رفعت خطومها إلى أعلى وأخذت

تحدّق إليها ملتصقة بقضبان الخشب. رفع هنري حافة قبّعته السوداء وابتسم لها. «هلّا ساعدتِنا قليلاً يا صغيرة؟». تردّدت. كانت ماري حذّرتها منه ذات يوم حين التقياه في الأسواق.

كان هنري رجلاً قصير القامة، مربوعاً، وجهه شبيه بوجه ابن عرس، أنفه طويل وفكّه ضيّق تكسوه لحية تخفي بقبحٍ بشرته الورديّـة وندوب الجدريّ. كانوا يطلقون عليه في الوادي ألقاباً غير محبّبة أحدها، والأكثر حياديّـة بينها: «رجل النّموس». كان هنري يعيش وحيداً في مزرعته في الدوفليير ويعينه على الاهتمام بها زوجان من المؤاكِرين [17]. قبل ذلك ببضع سنوات، توفّيت والدته إيرين وكانت سمعتها من السوء بحيث اضطرّ لتهديد العمدة كي يأمر بدفنها في مقبرة القرية. كان يُشاع أنّه ورث عن والدته مواهبها الشرّيرة. يحكى أنّه بعد أسبوع من شجاره مع أحد المزارعين خنقت خنزيراته صغارها، وأنّ نائب العمدة في بريمونتريه رفض أن يبيعه قطعة أرض فاجتاحت منزله حشود من القمل أخذتْ تعجّ في كلّ مكان، في الشّراشف والثياب. لا أحد كان يستطيع أن يجد أيّ صلة بين هذه الأحداث ورجل النّموس. ولكنّ معظم القرويّيين رأوا في ذلك برهاناً إضافيّاً على دجله. إذا دخل ملهى القرية، جمدت الأنظار وخفتت الأحاديث وأمسك الرجال كؤوسهم بتوتّر مطرقين رؤوسهم.

عبثاً حذّرتها منه ماري وذمَّه أهل القرية، فقد تغلّب الفضول لدى ليلي على كلّ شعور عداه. أعانت الرّجلَين على إيجاد مداخل الأوكار. جلست قرب الثقب الذي أشارا إليه وراقبتهما يولجان النّموس في النفق. حين فرّ أوّل أرنب بسرعة البرق وكاد يلامس وجهها خافت وتراجعت جفِلة. ثمّ استمتعت باللّعبة ونجحت في إمساك أحد الأرانب من أذنيه فيما كانت رجلاه عالقتين في الشِّباك. جاء بازيل يساعدها على الإمساك بالحيوان الذي بدأ يتخبّط. أدخله

القفص بسرعة وأغلق بابه فيما طفقت هي تقهقه عالياً فخوراً بصيدها. وهكذا اعتادت أن ترافق هنري عند ذهابه للصّيد بالنّموس. وسرعان ما أصبحت خبيرة في اكتشاف فتحات الأوكار: كانت تضع بخفّة شِباكاً صغيرة على هذه المداخل وتنتظر بالقرب من أحدها آملة أن يخرج الأرنب منها، ثمّ يعنى هنري بتكميم خطم النّمس ويدخله في الثقب واضعاً شبكة خلفه.

لا أحد كان يدري من أيّ جهة تنبجس الأرانب التي يقضّ النّمس مضجعها. أحياناً وبقليل من الحظّ، كان حيوانان أو ثلاثة تخرج معاً، أوّلها يعلق بالشبكة فيما الآخران ينطلقان بسرعة السّهم. كانت ليلي تهوى أن يقفز الأرنب بين ساقيها، تصاب بالذعر لكنّها تمسكه قدر ما تستطيع مستهدفةً الأذنين ساعيةً لأن تجمّد البهيمة التي شلّها الخوف. كانت بعض الأرانب تفلت منها فتعمل على استعادتها، وإذا لم تعلق بالشباك وعدَتْ مسرعة كانت تجهد للإمساك بها ولكن دون جدوى. ما إن يخرج النّمس من الوجار من جديد حتّى تداعبه ليلي قبل أن ينزع هنري خطامه الصغير ويضعه في القفص. عند المساء كانت ليلي تعود إلى منزلها عبر الدروب وهي تغنّي بصوت عالٍ: «يعدو النّمس ويعدو، نمس الغابة الجميل...». في البيت كانت تستمع إلى تأنيب ماري لها بصمتٍ، متجنّبة أن تروي ما فعلته وبرفقة مَن، مخفضةً رأسها لإخفاء ابتسامة خافتة.

عندما توطّدت معرفة ليلي بهنري بما يكفي لتجرؤ على سؤاله عمّا إذا كان باستطاعته أن يلقي بالناس أذىً من السِّحر، هزّ رأسه قائلاً: «جدّتي كانت قادرة على ذلك ولم تتخلّ قطّ عن هذه القدرة! كانت تريد أن تعلّمني كلّ ما تتقنه ولكن يا للخيبة! في ذاكرتي فجوات، كما تعرفين...». رأته ليلي عدّة مرّات يتواصل مع حيواناته، خصوصاً البقر والأحصنة، من خلال إشارات لا ترى، وحركات محكمة، وبعض عبارات التعجّب الخفيضة التي تشوبها خُنَّة. ولكن

حين سألتْه هل ورث ذلك من أمّه، نفى الأمر. «أعرف حيواناتي عفو الخاطر، هذا كلّ ما في الأمر... أمّا الضفادع المخوزقة والدّجاجات السوداء المذبوحة فليست من اختصاصي. لديّ بعض المعارف، ومن الأفضل عدم اختباري، لكنّي لست قويّاً بقدر أمّي».

كانت ليلي تهوى الاستماع إليه حين يسيران جنباً إلى جنب في الغابات، حاملين القفص حيث تتجمّع النموس قلقة. قال لها إنّ إيرين كانت ترى أنّ المسألة تتعلّق بتأثير مغنطيسيّ إذا قدرنا على امتلاكه أمكننا التاثير في الناس والحيوانات. هو لم تكن لديه هذه الموهبة. كان يقول: «أرى أنّ كلّ شيء منوط بالحيوانات الصغيرة التي لا نراها. لو استطعنا أن ندرك هذه الكائنات المتناهية الصّغر لفهمنا أشياء كثيرة». كان هنري يهتمّ بالأحياء البالغة الصّغر أكثر من اهتمامه بالحيوانات الكبيرة والبشر.

كانت مزرعته بمثابة مأوى حقيقيّ للحشرات. في الحديقة وضع محاضن يعشّش فيها النحل البريّ والدبابير والزنابير الطنّانة. كذلك حفر أنفاقاً قطرها بضعة مليمترات في أغصان مقطوعة كان يضعها في مكان مشمس فتلجأ إليها حشرات من كلّ نوع. على الجدار من جهة الجنوب علّق قصباً مقصوصاً كيما توفّر سيقانه المأوى لمئات الحيوانات المجنّحة الصغيرة. مع حلول الربيع كانت ليلي تحبّ الجلوس لمراقبة رقصاتها الدائريّـة. وعلى مقربة من هناك حافة حجارة بلا ملاط استوطنتها الزنابير ذات الوبر الطويل والألوان الجميلة، وتكاثر عديدها لدرجة أنّه في الصيف، عندما تشتدّ حرارة الشمس، تخال الحائط نفسه يهتزّ مزمجراً.

بفضل هنري، تعلّمت ليلي التعرّف إلى المخلوقات المتناهية الصّغر الساكنة في الغابة التي لا يحصى عديدها. خرّب إحدى قرى النمل بضربات من

كعب حذائه وأراها النمل الذي كان يهرول حاملاً البَيض الأبيض الملتصق بفكّيه. ثمّ أخرج عدسة مكبّرة ليريها القراديّات الأكبر قليلاً من البَيض والتي يتشبّث بعضها بصدور النمال ليمتصّ دمها، وبعضها الآخر يغطّي أفواهها وزُبانِياتها. الغريب أنّ النمال لم تكن تسعى للتخلّص منها. كان يكفيها أن يلعق بعضها بعضاً لتبعد عنها هذه الطفيليّات. لكنّها لم تكن تبذل هذا الجهد. أمّا النمال التي أوهنتها هذه الضيوف المزعجة فكانت تجمد في أرضها وتموت دون أن ينقذها أحد.

مع هنري كانت الدعسوقة المتشبّثة بنبتةٍ تلتهم حشرات المنّ الصّغيرة الراكضة على طول ساقها تشكّل مشهداً جديراً بالتأمّل. وحين تهاجم النّمال الدعسوقة، كان هنري يصفها براعيات يحرسن القطيع. كان يُري ليلي كيف أن النّمال تدعك ظهور حشرات المنّ بزُبانِياتها [18] لتجعلها تقطر سائلاً لذيذاً تتجرّعه على الفور. «تحلبها كمثْلِ أيّ فلاح...». كانت النمال فضلاً عن ذلك مربيّات ممعنات في القسوة. إذا لم ينتج أحد رعاياها منّاً عسليّاً أو كان مهتاجاً جدّاً فإنّها تلتهمه.

في مرّات أخرى، حين يتسنّى لهنري الوقت، كانا يراقبان معاً الطيران المتمهّل للنحلات البريّـة ذات الألق المعدنيّ، وأيضاً الطيران السريع والمنتظم للدبّور المتوحّد. كان يُظهر لها فكّي الزنابير اللّذين يشبهان كمّاشة مسنّنة، واللّسان الطويل المدهش للنحلة التي تحطّ على زهرة، والمجسّ المتحرّك للنحلات الكبيرة الطنّانة. كان يلتقط نحلة بين أصابعه برفقٍ ويظهر لها إبرتها، هذا السّهم المستدقّ والقادر مع ذلك على التسبّب بآلام لا تحتمل. «يبدو أنّه كان عضواً لوضع البيض لكنّه تحوّل من واهب الحياة إلى أداة للقتل...». انقبض وجهه المدبوغ بالهواء والشمس. أعاد وضع الحشرة في أنبوب زجاجيّ سدّه

بقطعة من الفلّين المثقوب بدقّة. «كانت جدّتي تقول إنّ الأمر ينتهي دوماً على هذا النّحو».

جالساً برفقة ليلي في القاعة أمام الطاولة والمدفأة الكبيرة، قال هنري: «لم يدجّن أحدٌ هذه الحيوانات، ولكن إذا عرفتِ عاداتها وغرائزها أمكنك استخدامها للقيام بأشياء مدهشة، صنْع العسل على سبيل المثال. يمكنك أيضاً تحويلها إلى سلاح موجّه ضدّ أعدائك وافتعال وباء هو بمثابة جائحة حقيقيّـة».

قالت ليلي مشكّكة:

- العسل، أوافقك الرأي. ولكن عدا ذلك هل تعطينا الحشرات فعلاً شيئاً آخر مفيداً؟

- ما تتناولينه الآن على سبيل المثال.

كادت الصغيرة تسقط شريحة الخبز والجبن التي قدّمها لها رجل النّموس. رفعت نظرها نحوه وكأنّها تقول له: «ما هذه الترّهات!». أضاف هنري:

- إنّها وصفة أعطتها لجدّتي عجوزٌ من أوفيرني... يكفي أن تتركي هذا الجبن في القبو فيكتسحه القُراد. عندما يكون هناك منها ما يكفي تجمعينها وتصبّينها على قشرة الجبن الأقدم عهداً فتتغلغل في كتلة الجبنة، وتعيش هناك مثل اليرقات في اللّحم. هي التي تمنح الجبن هذه النكهة اللّذيذة اللّاذعة.

أعادت ليلي شطيرة الخبز إلى الطاولة وقالت:

- لم أكن أعرف. هذا مقرف!

- لولاها، صدقّيني، الجبن لا قيمة له، ولا طعم.

وأضاف: «في رأيي، هناك حيوانات أصغر حتّى من القُراد. قُرَيْدات، إذا صحّ التعبير. لا بل أصغر وأصغر أيضاً... إلى أيّ حدّ؟ ما هو أكثر أشكال الحياة ضآلة؟ لا أحد موهوب بما يكفي لرؤيته... ربّما يجب أن يكون قادراً على وزن بيض الذباب بخيوط العنكبوت!» وضع قبّعته على رأسه من جديد، طارداً الحشرات الصغيرة التي تدور من حوله، وبصره يضيع في الظلمة: «ولكن لمَ التفتيش عن حدّ؟ ربّما لا نهاية لهذا كلّه ... هذه أشياء تُرى بالبصيرة».

كان الملصق المعلّق على حائط بلديّـة بريمونتريه يعلن أنّ سيرك البراغيث الخاصّ بالفنّان البولوني العظيم السنيور كارلوتو قد استقرّ في ميدان المعارض في سان كانتان [19]. كانت ليلي تجهل أين توجد بولونيا، ولديها فكرة شبه تقريبيّـة عن موقع سان كانتان، لكنّها رغبت بقوّة في مشاهدة هذا السيرك فأصرّت على الذهاب أيّما إصرار، ما حدا ماري إلى اصطحابها إلى هناك ذات يوم أحد. أقنعتها النشرة الدعائيّـة التي كانت تضمن للجمهور أنّه لن يكون هناك حشرات هاربة من فريق السيرك. وتبيّن أنّ الدعاية كاذبة لأنّهما عادتا ملسوعتين من طفيليّات صغيرة شقّ عليهما كثيراً التخلّص منها.

تحت خيمة متواضعة من القماش البالي، كان المدرّب ومساعدته إيطاليَّين أسمرَي البشرة يبدوان في أزيائهما المبرقشة كأنّهما من المتسكّعين، وكانـا يقدّمان عرضهما على منصات مصغّرة زاهية الألوان. عند بدء العرض، شوهد برغوث يجرّ عربة صغيرة مشكولاً من صدره ومتقدّماً بسرعة كبيرة، وكأنّه حصان عملاق. ثمّ تبعته عربة رومانيّـة تقودها أربع حشرات مربوطة بخيط ذهبيّ رفيع. استمتعت ليلي برؤيتها، وأيضاً بذاك البرغوث الذي يدفع عربة يدويّـة، ورفيقه الذي يجرّ مضخّة لإطفاء الحريق. أخذت الصغيرة تصفّق بحرارة عندما رأت البراغيث العشرة في أزياء الحفلات الراقصة تتمايل برقصة خرقاء في ديكور يشبه قصر فرساي مصغّراً مصنوعاً من الورق المعجون. ثمّ شرح كارلوتو أخيراً، لمن يريد أن يسمع، وبلهجة تشدّد على حروف الراء وحركات متصنّعة، كيف رُوّضت هذه الحشرات ذات العقول الأصغر من حبّة الرمل. أشعل عود ثقاب مسلّطاً ضوءه على برغوث متنكّرٍ في

زيّ فلاح يجرّ كومة من القش. وعلى الفور زاد من سرعته مصطدماً بجدار مزرعةٍ صغيرة من الورق المقوّى. «البراغيث تخشى النور. وإذا مُنِعَت من القفز، فستحاول الهروب بأيّ وسيلة ممكنة».

كانت ليلي فضوليّـة وسألته عمّا تقتات منه البراغيث فنظر إليها الرجل مبتسماً: «يا صغيرتي، من لحمي الحيّ، طبعاً!». أمسك البرغوث الذي أُلبِس زيّ فلاح ووضعه على ذراعه الأماميّـة فخفض رأسه الصغير في الحال ثاقباً الجلد بخرطومه. «البراغيث فنّانون يكدّون ويعملون بجهدٍ! ويجب إطعامهم غالباً!». حكى لها عن براغيث المكسيك بلباسها الأميريّ، التي يُنظر إليها على أنّها جواهر في أميركا. قالت ماري مستاءة: «بئس هذا العمل! تربية حيوانات كهذه! لدينا ما يكفي من المشاكل في حياتنا!».

- يا سيّدتي، البراغيث لاعبو قوى! لو كان لهم قامة إنسان لقفزوا بعلوّ «السنيور» إيفل. إنّ الأبطال من أمثالهم يستحقّون قليلاً من دمي!

ظلّت ليلي فاغرة الفم تحاول أن تتخيّل البرج الذي لم تره قطّ والذي كانت تحسبه مماثلاً لبعض البروج القروسطيّـة. بدا لها أنّ حيوانات قادرة على مثل هذه المأثرة جديرة بكلّ الاهتمام.

أكّد لها هنري في اليوم التالي:

- لو كان للحشرات قامتنا لذُعِرْنا منها. لكأنّ تصوّراتنا عن الشياطين نُسخت عن أشكالها... ناهيك عن قوّتها وقدرتها على المقاومة وشراستها. إنّها في حرب دائمة فيما بينها ومعاركها لا ترحم. فالمهزوم يُقتل ويُبقر بطنه ويُقطع رأسه وتُخرج أحشاؤه ويُلتهم في النهاية. لو أُدخِلَ رجل إلى هذا العالم لما صمد دقيقتين.

أثّر هذا الكلام في ليلي حتّى أنّها حلمت به عدّة ليالٍ متتالية. تارة كانت ترى نفسها سوسة خشب تحفر نفقها داخل خشب منضدة، تاركةً كومة صغيرة من نثار الخشب خلفها، وتارة أخرى تتخيّل نفسها أرضةً [20] عاملة تبني عمارة تراب هائلة في أفريقيا، أو ملتهمةً منزلاً في لانوا [21] فينقضّ محدثاً دويّاً هائلاً. كانت تخرج من نفق سوسة الخشب مدهونة بشحم صرصور، ومتدثّرة برائحة مقزّزة تنفّر الجميع، ثمّ تنزلق بسرعة عجيبة وزُبانِياتها وملاقط أرجلها تتحرّى أدنى حركة بدقّة ساعة حائط سويسرية لتتحوّل من بعدُ إلى قرادة لا تحفل بشيء إلّا بحرارة الأجسام المرويّـة بالدّم، رأسها مسلّح بمشرطين ينغرزان في جلد الضحيّـة فارزَين مادّة لاصقة تجعلها تتشبّث به ممتصّة حياته. كانت ليلي تستيقظ ملتفّة بغطائها شبه مخنوقة بالشرشف الذي تقلّبت فيه مذعورة تماماً لتغرق من ثمّ مثل الدودة الوحيدة في الأمعاء مشبعة بالدم والغائط. مذعورة، في ما يشبه الحلم، كانت تتأمّل ذراعيها وساقيها وكان مرعباً أن ترى كم أنّ أعضاءها الهشّة بجلدها الرقيق الناعم هي مجرّد دفاعات واهية قياساً للأرجل المدرّعة والحلقات والمخالب والسّهام والإبر والقواطع الأخرى التي تسكن عالم الكوابيس هذا.

لم تكن ليلي تحبّ منزل هنري وهو مبنى قديم بارد جدرانه مكسوّة بالجصّ. حتّى في الصيف كانت ترتعد حين تدخله. وحده القبو كان يحظى بإيثارها. لم يكن أكثر دفئاً من المنزل وكانت رائحته نتنة، ولكنّ هنري يحتفظ فيه بنُموسه في أقفاص كبيرة. كان لديها نمسها المفضّل: ذكر يافع مربوع القامة جلده أصفر فاتح، أسود الأرجل والذنب. أطلقت عليه اسم ليون. كانت تدخل إلى الغرفة القاتمة وتغلق الباب خلفها واضعة المصباح النفطيّ جانباً ثمّ تجلس على الأرض الترابيّـة وتحرّره. يتسطّح ليون على الأرض، ثمّ يقترب منها بخجلٍ وعيناه تبرقان، يتفحّصها هنيهة ثمّ يبتعد راكضاً. بما أنّها لم تكن تهمّ بحركة، فإنّه يعود إليها ببطء. كانت تجلب له قطعاً صغيرة من اللّحم فيمضغها متراجعاً وهو يراقبها بطرف عينه. تضع أيضاً أشياء صغيرة علـى الأرض، سدّادات وملاعق سرعان ما يدخلها ليون إلى قفصه. ما إن تصير غنيمته في مأمن حتّى يقترب من جديد، يجمد حالَما تقوم بحركة ثمّ يأتي ليعضعضها حين تبقى بلا حراك. في الأيّام التي يطمئنّ فيها إليها، ينام على ركبتيها متخماً وخاصرتاه تتحرّكان على وقع تنفّسه العميق.

في شتاء عام 1902، بدا هنري مشغول البال. أصيبت ثلاثة من خنازيره بمرضٍ. عزلها لكنّه كان يخشى أنّ الأوان قد فات. ربّما سبق أن نقلت العدوى إلى القطيع. أُجبر هو نفسه على ملازمة السرير فريسة حمّى أعجزته عن فتح عينيه. كان يعرف هذا المرض، إنّها الإنفلونزا التي أصابته منذ عشر سنوات.

حين أتت ليلي لزيارته سألته ضاحكة:

- هل الخنازير هي التي نقلت إليك الإنفلونزا؟

- ربّما كان المرض يصيبنا جميعاً البهائم كما الناس... لا أصدّق الأمر كثيراً... لكنّي مختلف عن الخنزير، أليس كذلك؟

بعد ثلاثة أيّام شعر بتحسّنٍ بعض الشيء. اقترح عليها الذهاب للصّيد بالنموس. نزلت إلى القبو لتأتي بأقفاصها فيما كان هو يحضّر العدّة. هناك وجدت ليون منهكاً. كاد الذكر الصغير يتجنّب اللّحم الذي جلبته له. كانت تنتابه تشنّجات تنتهي بزفير صاخب. راقبته فوجدت الأمر غريباً! أخذ يعطس تماماً كالإنسان! في القفص المجاور، أصدر اثنان من رفاقه أصواتاً خافتة غير مألوفة. اقتربت من قفصهما لتراقبهما. كان الصوت آتياً من عمق الحلق أشبه بالسعال. لدى عودتها إلى غرفة الطعام برفقة الأقفاص، لم تجرؤ أن تحدّث هنري عن الأمر. خشيت أن يسخر منها إن شبّهت النموس بأطفال مصابين بالزكام.

سارا طويلاً ليصلا إلى فسحة عند طرف الغابة. بعد أن عاينا وكراً، جرفا الثلج الذي سدّ المداخل ووضعا الشِّباك. تمركزت ليلي أمام مخرج كبير بدا لها واعداً فيما كان هنري يكمّم ليون. استعاد الحيوان شيئاً من العافية في الهواء الطلق لكنّ الوثاق الجلديّ كان يزعجه. أخذ يعطس إلى حدّ الاختناق. لم يكترث هنري لحاله بل أدخله في الجحر حيث انزلق بعد ضربة على ظهره.

مرّت ساعة ولم يظهر لا الأرنب ولا النّمس. أدخلا نِمساً آخر في الجحر، أحد النِّمسين اللّذين كانا يسعلان. ولم يخرج، مثله مثل ليون. أخذت ليلي ترتجف وشعرت بأصابعها وسلاميّاتها متجمّدة. كانت قلقة تتحرّى هنري بنظراتها. هل هاجمت أفعى النّمسَين؟ هل خرجا من منفذ آخر لم يستطيعا

معاينته؟ كانت تتفحّص الوكر من حولها باحثة عن ثقب يُظهر منه ليون خطمه. مرّت عشر دقائق. نهض هنري ومشى بمشقّة ليأخذ الشِّباك الموضوعة عند كلّ واحدٍ من مداخل الوكر. «هيّا نذهب». اعترضت ليلي طريقه: «ماذا عن ليون؟! لن نتركه هنا!»، فرفع هنري كتفيه: «اختفى يا بنيّتي، عليك نسيانه».

اغرورقت عيناها بالدموع وضربت الثلج بقدمها: «غير معقول! تريد أن تترك ليون!».

ابتعد حاملاً أقفاصه وهو يعطس بقوّة. عند حلول المساء، رضيت أن تتبعه بعد تفحّص الوكر لمرّةٍ أخيرة. «ليون! ليون!»، صرخت وكأنّ النّمس قادر على الهرولة إليها مثل كلب أُحسن ترويضه.

حين وصلا إلى المزرعة، كان المؤاكِر بول ينتظرهما حاملاً مصباحاً في يده. ثلاثة خنازير نفقت. تساءل عمّا إذا كانت خنازير أخرى قد أصيبت بالعدوى. هزّ هنري رأسه هزّة طفيفة وهو يرتجف ثمّ تخلّى عن الأقفاص والعدّة وذهب ليستلقي على السرير. انتكس من جديد. لازمته الحمّى لأيّامٍ ثلاثة. وحين استطاع النهوض كانت كلّ خنازيره وهي خمس عشرة بهيمة من الصنف البولوني الصلب نفقت بعد أن قضت عليها الإنفلونزا.

في ذلك المساء، لدى عودة ليلي عند هبوط اللّيل أنّبتها أورور اللّامبالية بطريقة «روتينية» كالعادة. في اليوم التالي، وبالرغم من أنّ ماري نهتها عن الذهاب، عادت ليلي لرؤية الوكر ساعية لتفحّص الأنفاق بعصا وهي تنادي ليون مراراً وتكراراً. كانت صبيحة تعصف فيها ريح الشمال. تحت السماء المضيئة بشمس ساطعة حجبت دفئها، أخذت غربان تحوّم وكأنّها تنبىء بالشؤم. كانت ليلي تتخيّل النّمس في نفقه الضيّق وكأنّه قبره، غير قادر على التحرّر، وفمه مسدود بالخطام. نادته بصوتٍ أكثر فأكثر قوّة تقطعه الشهقات التي انتهت

ببكاء فيه غلوّ. لم تعد إلى المنزل إلّا بعد وقت طويل قضته وهي تجرجر خطواتها هائمة في الثلج وفي الغابات الموحشة. وكما في كل مرّة لا تسير فيها الأمور على ما يرام، ومع أنّها لا ذنب لها بما حصل، أخذت تلوم نفسها وتشعر بالذنب مفكّرة أنّها ليست أهلاً للثقة ولن تكون أبداً كذلك.

لم ترَ ليلي قطّ ثعلباً يتصرّف على هذا النّحو. كان ثعلباً مكتملاً رشيق القامة منثوراً جلده بالوبر الأسود، الذي يقال له فحميّ. توقّف لدى خروجه من جنبة السرخس، خافضاً أذنيه، ومدلّياً لسانه. أخذ يتفرّس فيهما، هي وماري، بعينيه الدامعتين دون أن يبدو عليه أدنى خوف، والزبد الأبيض يسيل من شدقه. تموقعتْ ماري بحذرٍ بين الصغيرة والحيوان، وببطء انحنت لتلتقط غصناً ثخيناً حين تقدّم الثعلب نحوهما مزمجراً.

مضت ساعة وأكثر على ذهاب ماري وليلي للتنزّه في الغابة في المنطقة الأكثر ظلّة هرباً من موجة الحرّ الصيفية، على مسافة غير بعيد عن المقابر الميروفينجيّـة المكتسية بالحزاز. سارتا بادىء الأمر على مهل ثمّ وسّعت الصغيرة الخطى حين بدأت ماري تحدّثها عن والدتها. بلغتا فرجة في الغابة مطلّة على حقل، وعندئذٍ خرجت البهيمة من أجمة العوسج والسّرخس.

تريّث الثعلب مذ رفعت ماري عصاها. حدّق إليها شاهراً أنيابه. قالت ماري للصغيرة دون أن يفارق نظرها البهيمة: «اهربي! اذهبي للبحث عن مساعدة!» لكنّ ليلي لم تبرح مكانها وقد شلّ الخوف ساقيها. تقدّم الثعلب بضع خطوات. بات على مسافة خمسة أمتار وعيناه الزائغتان مصوّبتان إلى ذراع ماري والزبد يسيل من شدقه خيوطاً على العشب.

صرخت ماري وهي تلوّح بعصاها فأوقفت الحركة والصراخ الحيوان وأخذ يهمهم بصوتٍ أقوى وقد انتفش وبر ظهره.

حسمت ليلي أمرها مهرولةً حتّى تخوم الفرجة وهي تصرخ. خلف ظهرها سمعت جلبة غامضة لموكب فرسان على الأوراق الجافة، ثمّ صرخات ماري وعواء الحيوان. اندفعت باتّجاه المرج وهي تستغيث يائسة. وما هي إلّا دقيقة حتّى رأت مجموعة من الصيّادين يهرعون لملاقاتها. رفعت يدها باتجاه الفرجة صارخة: «هناك ثعلب! هاجمَنا!»، فأسرع الرجلان الأصغر سنّاً بينهم.

تهاوت ليلي على العشب خائرة القوى. دوّت طلقتا رصاص فيما أمسك أحد الرجال يدها وساعدها على النهوض. فتبعته منصاعة، مرتجفة الأوصال. عاد الصيّادان من الفرجة حاملين ماري وكانت مشعّثة الشعر، شاحبة الوجه ومضرّجة بالدم. قالت بصوت متهدّج: «ليلي هل بك شيء؟» لم يتسنّ للصغيرة الردّ لأنّ الرجلين اللذين كانا يسندان ماري سرعان ما دفعاها إلى عربتهما المتوقّفة على الدرب.

بعد بضع ساعات اصطحبت ماري إلى المنزل يحملها قرويّان وتتبعها أورور التي بدا عليها الهلع هذه المرّة فحسب. كانت الضمادات تغطّي صدر المرأة وذراعيها، ولكنّ شحوب وجهها والخوف في عينيها هما ما لن تنساه ليلي أبداً: بدت حائرة كطفلٍ تعرّض لعذاب مبرّح. ساعدتها أورور للاستلقاء في غرفتها حيث بقيت ساجدة أمام سريرها في كنف المصاريع المغلقة.

عرف الصيّادون أنّ الثعلب كان مسعوراً؛ أصابوه دون أن يتمكّنوا من قتله. كانوا يعرفون أنّه لا وجود إلّا لدواء وحيد وهو كيّ اللّدغات بالحديد المحمّى. اصطحبوا ماري عند البيطار الذي كوى بحديده المحمّى جروح العنق والصدر والذراعين دون شفقة. في اليوم التالي أشاعت نساء القرية الثرثارات أنّ صرخات ماري وصلت حتّى مزرعة لانسيني على بعد كيلومترين من هناك.

ليلي أيضاً سمعتها وعاودها شعورها المعهود بالذنب وكأنّها هي من تسبّب بالحادثة.

في الأيّام التي تلت، جاء الدكتور كورتو من مدينة لان العليا ليعاين ماري، مدفوعاً بصداقته لأورور التي تودّد إليها عبثاً فيما مضى. استاء من طست الماء الساخن الذي أعدّته أورور، انتزع الضّمادات، ما جعل ماري تصرخ، وعاين الجراح دون أن يلمس المريضة. كانت الجروح متورّمة مائلة إلى البنفسجي ويسيل منها تقيّح مقلق. ومع ذلك اعتبر أنّ الجروح ستشفى، وكان يأمل أن يكون الكيّ ناجعاً. مهما يكن فإنّ آخر حالة كلَب رآها استغرقت أشهراً لتتفشّى. قال لأورور: «لدينا الوقت»، متحسّراً في سرّه على ما خلّفه الزمن من أضرار على هذه المرأة التي كان يراها جميلة فيما مضى.

لم يكن كورتو يجهل أنّ لويس باستور طوّر لقاحاً ضدّ داء الكلَب. وأسوة بالجميع سمع عن الصغير جوزيف ميستر الذي عضّه كلب مسعور واصطحبته أمّه إلى باريس متوسّلة باستور لإنقاذه. من جهة أخرى كانت تختلط في ذاكرته حالة ميستر وحالة الراعي جوبيل الذي أنقذه العالِم أيضاً. لا يهمّ ذلك. في العام 1881، فوجئ كورتو لعلمه بافتتاح معهد باستور في باريس. بالطبع لم يستجب للاكتتاب الدّاعي إلى دعم المشروع. أراد توفير ماله لأسباب أهمّ! كان يرتاب بتركيب لقاح يعتمد على مستخرج من النخاع الشوكي لأرنبٍ مصاب بالكلب. هذا التحديث يفتقر إلى المستوى الطبّي. أمّا هو فكان يتبنّى رأي العديد من زملائه ومن بينهم الدكتور الموقّر دوبلوا دو سان كانتان. كان لويس باستور هذا مروّجاً ممتازاً، ومجرّد كيميائيّ يتدخّل في ما لا يعنيه، وقد سانده الحظّ. لن يرسل فلّاحة من المنطقة لتجرّب مثل هذا العلاج الهمجيّ.

تردّد كورتو في إجراء فصْد [22]، وتذكر أنّه مدعوّ إلى عشاء مهمّ في لان، وأنّ قيامه بذلك قد يؤخّره عن الموعد. أوضح الأمر لأورور قائلاً إنّه يجب متابعة الطريقة التي سيتطوّر بها المرض؛ وأوصى بإعطاء ماري في غضون ذلك الكثير من حساء الدجاج.

في الأيّام التالية، في وقت صلاة التبشير، دخلت أورور الغابة بخطوات رشيقة، لتعود بعد ساعتين متجهّمة الوجه، دون أن تقول السبب. كانت ترتدي فستانها الأسود الأبديّ، رافضة وضع غطاء على شعرها الطويل الذي غزاه الشيب أو يكاد. بدت وكأنّها من الشافيات المشعوذات، واحدة من أولئك النساء المتسكّعات الشريرات اللّواتي يُستدعَين فقط عند الضرورة القصوى. في اليوم الثالث، وأمام إصرارها على عدم قول أيّ شيء، صمّمت ليلي، التي حيّرها الأمر، على أن تتبعها بحذر.

قصدت أورور المكان حيث تعرّضت ماري للهجوم في الغابة. لم تتوقّف في الفرجة المشؤومة، بل دخلت أجمة السرخس، ثمّ دارت حول شجيرات العوسج المتشابكة لتصل إلى فسحة عند أسفل أشجار الزان المعمّرة. هناك سارت إلى ما يشبه ربوة وسط العشب. جلست ليلي القرفصاء خلف جذع شجرة يابسة على بعد عشرين متراً، ورأت سرباً من الذباب يطير لدى اقترابها. محاذرة مثل قطة، تقدّمت لترى ما الذي كان يجذب أورور إلى هذا الحدّ.

كان في مقدور ليلي أن تقسم أنّها كانت أكثر سكوناً من أفعى في اللّيل، ومع ذلك قالت لها أورور: «اقتربي يا جميلتي!» دون أن تلتفت، بصوت عالٍ تردّد صداه غريباً في نهاية ذاك النهار الحارق الخالي من نسمة هواء. جفلت ليلي التي كانت مختبئة وراء شجرة بتولا ضخمة. ثمّ قرّرت موافاة أورور متخلّية عن حذرها. سرت رعشة في أوصالها عندما رأت الحيوان. كان الثعلب الفحميّ اللّون مستلقياً على جانبه، وكان جرح مفتوح، بحجم قبضة

الرجل، يخترق أعلى فخذه. عند اقترابها تقزّزت من الرائحة الكريهة الغثّة للّحم المتحلّل. ومع ذلك كان الثعلب على قيد الحياة، أضعف من أن يتحرّك، ويطلق في بعض الأحيان صرخة مكتومة يعلوها طنين الذباب الأخضر الكبير الذي كان ينكّل به.

سألتها أورور:

- إنّه هو، أليس كذلك؟

- نعم. يجب قتله فهو يتالّم كثيراً!

كان النّغف يتجمّع على اللّحم الحيّ، والذباب يفقّس بيوضه في زاوية العين وفي الأذن. في بعض الأماكن، حفرت اليرقات حتّى العظم، بعضها تغلغل تحت الجلد مُحدِثاً دمامل ثقبت الفرو. كانت كلّ أنواع الحشرات تجول في هذه الجراح. رأت ليلي باشمئزاز جُعَلاً يخرج من دِبر الثعلب. كانت مأدبة حقيقيّـة، لكنّها مأدبة عاجّة بالديدان، والطريدة ملتهمة حيّـة. أمسكت ليلي بيد أورور فسحبتها منها على الفور.

قالت أورور:

- أريده أن يعيش هكذا لفترة طويلة جدّاً.

- إنّه مريض، ولم يفعل ذلك عن قصد.

- وماذا عن ماري؟!

من نبرتها الغاضبة، بدت مستعدّة لأن تضيف طوعاً حفنة إضافيّـة من النغف إلى الجرح. أمسكت بيد الفتاة الصغيرة وشدّتها بعنف قائلة: «هذا

يكفي! تعالي!».

بعد ثلاث ساعات، عادت ليلي بالقرب من أشجار الزان الضخمة التي يكتنفها الظلام. عاينت حجراً كبيراً على بعد ثلاثة أمتار، فحملته بصعوبة ثمّ تركته يسقط على رأس الحيوان. سُمعت قرقعة خافتة، لم يتحرّك الثعلب. كانت تعلم أنّ هذا ما كان ينتظره يائساً، أن ينتهي عذابه.

راقبت ليلي لهنيهةٍ الكائنات الحيّـة الصغيرة تواصل عملها الغامض، وتتغذّى من الحيوان ميتاً كما فعلت به حيّاً. فقط تلاشى التيار الكهربائيّ الخفيف غير المرئيّ الذي كان يحْيي الثعلب. ولكن عدا ذلك لا شيء تغيّر. ربّما كان الكثيرون يجدون المشهد مثيراً للاشمئزاز. بخلاف ذلك كانت ليلي تجده مثيراً للاهتمام، لا بل أخذها العجب، إن جاز القول، أمام هذه القوّة الحيوية التي كانت تنبثق غير آبهة، سليمة على الدوام، ناهلةً قوّتها من أعماق الموت نفسها.

لم تعد ماري تغادر الغرفة. تحوّلت جروحها إلى اللّون الأحمر الداكن وكانت تسقيها ألوان العذاب. على الرغم من شعورها الشديد بالعطش، إلّا أنّها كانت تتقيّأ بمجرّد إسقائها، وقد أصابتها رهبة الماء والسوائل. وكذلك لم تعد قادرة على تحمّل الضوء. عاد الطبيب كورتو لزيارتها بعد أيّام قليلة، وجد صعوبة في التعرّف إليها. هزل لحمها وزادها الأرق شحوباً وتكوّم الزبد في زاوية فمها، كان لها النظرة الجامدة للمريض المستغرق في علّته. ما إن أراد تفحّص جراحها حتّى انقضّت عليه محاولة خدشه وعضّه. كان يتوقّع ذلك وقام بخطوة احترازيّـة سريعة متمكّناً من السيطرة عليها بمعونة أورور. كانت ليلي تقف عند عتبة الغرفة دامعة العينين. لم يكن بمقدورها أن تصدّق أنّ هذا

المخلوق المحجور في عتمة الغرفة النتنة يزمجر ويسيل لعابه كان ماري. بدا لها ذلك مستحيلاً!

كان كورتو يمسكها من كتفيها ويُلبدها بالسرير، لذا هدأت ماري في آخر الأمر وبدأت تصدر فقط نحيباً أجشّ. ثمّ استغرقت في نوم متوتّر، عيناها شبه مغمضتين والزبد الأبيض يتكوّم في زوايا شفتيها. خرج الطبيب من الغرفة وهو يهزّ رأسه آسفاً. كان تشخيصه واضحاً إذ همس وهو يمرّ بجانب ليلي قائلاً: «ربّما كان يجب تقييدها!».

جاء الكاهن لرؤيتها قبل العصر. ظلّ في غرفتها لمدّة عشر دقائق. توجّه ببضع كلمات تعزية إلى أورور التي بدا بديهيّاً أنّها لا تحفل بها، ثمّ رحل موسّعاً خطاه مرخياً أذيال جبّته ومتمتماً صلاة مكرورة. بعدئذٍ أتى أربعة رجال من القرية من بينهم الناطور وهنري. كانت ليلي تنظر إلى كلّ ذلك منقبضة القلب شاعرةً أنّها تشهد طقساً غريباً خاتمته مرعبة.

في الغرفة طفقت ماري تصرخ ألماً وخوفاً وغضباً. لم تعد ليلي تفقه شيئاً ممّا يحدث ولا تريد سماع أيّ شيء. جلست في الحديقة، في برد المساء، بالقرب من إحدى قرى النّمل، وجعلت تراقب الرّواح والذهاب المحمومين للحشرات حين أتت أورور لاصطحابها.

في العتمة كانت ماري واهنة القوى، وجهها مسخه الألم والزبد يسيل من فمها، يحيط بها الرجال الأربعة حاسري الرؤوس واقفين على طول جدار الغرفة أشبه بجنود في لحظة تأهّب. كانت عيناها تحدّقان في سجّادة السّرير، ولم تتعرّف إلى ليلي. حين أرادت الصغيرة الاقتراب، زجرتها أورور ثمّ اصطحبتها من جديد إلى الحديقة وهي تشدّ على ذراعها إلى حدّ إيلامها. في الغرفة أطلقت ماري صراخاً يجمّد الدم في أوصال سامعه. بدا وكأنّ أحد

الرجال يصدر أمراً، ربّما كان هنري. سمعت ليلي جلبة خطوات متسارعة وزحزحة أثاث ولهاث عمّال مكرهين، وزمجرة غضب متعجّب تبعها صمت ثقيل حسم الموقف.

لاحقاً عرفت ليلي من أورور، التي كانت تجهل العرف المتّبَع، أنّه توجّب خنق ماري تحت فراشها. في فاليه دو لا سوليتود [23]، هكذا جرى دوماً التعامل مع المصابين بداء الكلب، والسبب أنّهم لن يموتوا في ظلّ عذابات مبرّحة فحسب بل إنّ عدائيّتهم كانت تجعلهم خطرين. حين سألت الصغيرة هنري، خفض رأسه متمتماً كلمات غير مفهومة وقال لها أخيراً: «وإلّا لكانت نقلت العدوى إلى سواها» وهو يحدّق إلى ليلي بعينيه الزائغتين اللّتين تشبهان أعين السّحرة.

هربت ليلي باكيةً معاهدةً نفسها على ألّا تكلّمه بعد اليوم، لا هو ولا الرجال الذين أعدموا ماري وكأنّها حيوان خطير.

لم يكن هناك حشد في الكنيسة الصغيرة حيث دُفنت ماري. أراد أهلها وإخوتها إقامة قدّاس جنائزيّ على الرغم من الحياة «التي لم تكن مستقيمة كما يجب» التي عاشتها ماري. أورور التي لم تطأ قدماها قطّ أرض المعبد، لم تحضر الجنازة. لم تتذكّر ليلي شيئاً من المأتم الوجيز إلّا بعض الصّور المنثورة هنا وهنالك في عظة الكاهن. وحين بدأت التراتيل ارتفع صوتها صافياً لدرجة أنّ المرتّلين حدّثتهم أنفسهم بأن يتوقّفوا عن الغناء لسماعها.

في يوميّاتها التي تركتها، أشارت إلى انطباعاتها عن ذلك النهار:

«غنّيت ما لم أستطع تفسيره. أردت أن أقول لماري إنّني أسامحها على أنّها كانت تتوقّع منّي ما لم يكن بمستطاعي تقديمه. صنعَتْ من أمّي أسطورة على قدر من العظمة لا يمكنني حياله إلّا أن أخيّب أملها. لم أكن أسمع الأصوات الرائعة الآتية من أعماق الوجود التي تحدّثت عنها فرنشيسكا في يوميّاتها. وبسبب ذلك خشيت دوماً من أن تمتنع عن الاهتمام بي، أنا الفتاة التافهة التي لم تُحْبَ أيّ موهبة. اليوم أدرك خطئي وأنّها لم تكن لتتخلّى عنّي أبداً. لقد أمَلت الكثير منّي ولكنّها على الأقل علّلت نفسها بأملٍ ما.

كنتُ الفرح وكنتُ الخيبة بالنسبة إليها وهآنذا الآن! أصبحت أكثر تواضعاً لأنّي لم أكن على قدر التطلّعات، وأكثر ثقة لأنّها أحبّتني رغم كلّ شيء.

حظيت بثلاث أمّهات: الأولى أعطتني الحياة والثانية أنقذتني والثالثة ربّتني. من ثلاثتهنّ كانت ماري أمّي الحقيقيّـة لأنّها منحتني طفولة. وعلى أيّ حال، أعتقد أنْ لا أحد يعطي الحياة فهي في كلّ مكان وتعبُر من حالٍ لأخرى، ومن جسدٍ لآخر ضمن سلسلة طويلة لامتناهية. وإحدى أحوالها كانت غالية علـيّ. كانت تدعى ماري ولم تعد موجودة. هذا ما غنّيته».

لحظةَ كانوا يدفنون ماري، توغّلت أورور في الغابة لتذهب إلى البَحرة التي لا اسم لها.[24] أثناء المسير، تذكّرت، والحزن يعتصر قلبها، تفصيلاً سحَرها

في قصّة فرنشيسكا: كانت قادرة على إطلاق صوت مدوٍّ، وكان جبّاراً رهيباً يجمّد كلّ من يحاول الاعتداء عليها في مكانه. لو أنّ لديها فقط هذه الموهبة!

لم تسترسل في مراقبة البحرة الباهرة تحت شمس الصباح، وحشرات الجورس المتزحلقة على صفحة الماء الخضراء واليعاسيب المحلّقة بمحاذاة القصب. كان الماضي يعود إليها، وتلك اللّيلة، ليلة الرابع والعشرين من مايو، حين كانت تتقدّم مع ثلاثة من أصحابها قي قاعات متحف اللّوفر، بين لوحات جيريكو وبوشيه ودافيد وواتو [25]. في الخارج كانت أصوات المتفجّرات والحرائق تفرقع في كلّ مكان، وكانت رائحة الورق المحروق والبارود تهيّج حلقها. لم يسبق لها أن دخلت متحفاً، لذا بدت لها اللّوحات وكأنّها رؤى. صعقتها عظمة «طوف ميدوزا»، و«تتويج نابليون» لدافيد، ومن ثمّ جمال لوحة «المحظيّـة الكبرى»، أو في مكان أبعد لوحات الأساتذة الفلمنكيّين بألوانها اللّاذعة. كلّ ذلك بدا لها صنيع أنصاف آلهة. كانت تتذكّر ذلك جيّداً في هذه اللّحظة.

سقطت قذيفة في السّين وأفهمتهم أنّه كان ينبغي عليهم المغادرة. انسلّوا عبر ممرّ ضيّق مفتوح على مصرف جسر الفنون. بقيت متأخّرة عن رفاقها الذين كانوا يتوغّلون في الشارع الذي سوّدته غيوم الحرائق. انبثق خمسة جنود وشهروا أسلحتهم على الفور. على بعد بضعة أمتار، اختبأت أورور خلف قاعدة أحد التماثيل. رأت الجنود يجرجرون الرجلين والمرأة -التي كانت تدعى كليمانس، عاد الاسم إلى ذاكرتها- في الشارع. أُعدِموا دون سابق إنذار بثلاث طلقات وانتهى الأمر. انسحبت أورور مذهولة ممّا رأت وانسلّت بأكبر قدر ممكن من الهدوء إلى القاعة الكبرى.

في اللّوفر المقفر، تجاوزت أورور قاعة المدرسة الهولنديّـة متوغّلة في رواقٍ ضيّق. كانت تتلوّى عطشاً والدخان ازداد كثافة وجعلها تسعل. توقّفت لتستعيد أنفاسها فرأت أمامها رجلاً يرتدي سروالاً أحمر شاهراً بندقيّته في وجهها.

كان الموقف واضحاً للجنديّ وليس هناك ما يدعو للشكّ: كان أمام مُشعِلة حرائق، وهو يعرف التعليمات: القتل الفوريّ. لكنّه لاحظ جمال الفتاة في هذا الثوب المزري الملتصق بجسدها والمبرز مفاتنَها.

كانت منهكة. كادت تدافع عن نفسها حين جرّها إلى قاعة جانبية ورمى بها في حجرة صغيرة محطّماً مقبض الباب الداخليّ بعقب بندقيّـتـه ثمّ أغلق الباب من جديد. كانت الغرفة التي تُستخدَم لإيداع الأغراض لا نوافذ لها، وجدرانها عارية تماماً. حاولت أن تفتح الباب ولم تنجح إلّا بتكسير أظافرها على القفل. تجمدّت برداً وارتعشت بكلّ جسدها منهارة على الأرضيّـة لتستغرق من ثمّ في نوم أشبه بنومِ بهيمة تحتضر.

عندما فتح الجنديّ باب الحجرة أخيراً، في منتصف اللّيل، كان برفقة صديقين. لم تسمع سوى الأسماء الأولى لهؤلاء الرجال لكنّها عرفت منذ البداية ماذا كان ينتظرها. كانوا فلّاحين ناجين من سيدان [26] تركوا حقولهم في بداية صيف 1870، أوان موسم الحصاد، وكانوا يريدون العودة إلى ديارهم لتهيئة علف الحيوانات. لقد خسروا الحرب وأرادوا الانتهاء من هذه الكومونة التي كانت تسلب أملاك الناس الشرفاء وتبرم اتفاقات مع ثلّة من الأجانب الوافدين من كلّ أنحاء أوروبا. أنصار الكومونة فرنسيّون أشرار، من تلك

الحثالة التي تحرق باريس على مرأى من أعين البروسيّين السّاخرة، ويجب أن نريهم من الانتقام ألواناً.

احتست أورور جرعات كبيرة من النبيذ الذي أحضروه. شعرت بأنّ ذلك أنعش فمها وشفتيها الجافّتين. حين وضعت الزجاجة جانباً، وكانت ثملة قليلاً، طفقت تنتظر رصاصة الخلاص. أرادت أن ينتهي كلّ شيء بأقصى سرعة. وفجأة مزّق الجنديّ صدارها.

بعد الكثير من المعارك الخاسرة، ومن النهارات واللّيالي التي أمضاها الرّجال الثلاثة في النّتانة والوحدة، كانوا متلهّفين للمسرّات، نَهِمين. واجهوا الكثير من المخاطر للتسلّل إلى هناك وأرادوا قضاء وقت ممتع، ولقد أمتعتْهم. هذا أمر أكيد.

رحلوا قبل الفجر وهم يهمهمون قائلين إنّها كانت محظوظة لأنّهم لم يطلقوا النار عليها. لم تعرف كيف استطاعت أن تجرجر نفسها إلى خارج اللّوفر. مشت بجوار السّين متسائلة هل كانت مستعدّة للانتحار غرقاً أو للاستحمام انتعاشاً. كانت باريس تشتعل بالنيران، وألسنة الدخان التي حملتها الريح تتصاعد من القصر الملكيّ والضفّة اليسرى، وكان الأفق متوهّجاً وكأنّه فرن. كان الإعدام بالرصاص يتواصل باطّراد تحت سماء سوّدها الدخان. حماها ضجيج الانفجارات، وكان شعورها بالنجاة وبالقيمة السّامية للحياة يتجدّد مع كلّ طلقة. تمكّنت من الوصول إلى منزل إحدى القريبات في الحيّ الشماليّ ومن هناك فرّت إلى بريمونتريه.

أمام البحرة، في تلك الصبيحة المشمسة، أدركت الشيء الذي جذبها في لوحات اللّوفر، هذا الجمال الجامد الذي لن يزول فيما هي إلى زوال. ها قد

وافت ساعة التواري أسوة بشخصيات واتو [27] الشفيفة، ومغادرة المسرح بخطى ثقيلة حائرة برفقـة فلّاحي بروغـل [28] الأفظاظ. تصاعـدت دموع مكتومة لسنوات طويلة إلى عينيها. فكّرت أنّها لم تقل قطّ لماري إنَها تحبّها ولا قالت لليلي إنّها أصبحت ابنتها. بدا لها أنّها تستعيد شيئاً من الدفء الذي فقدته منذ ثلاثين سنة، وفي الوقت نفسه كانت تدرك أنّ هذه الحياة يجب أن تنتهي. اندفعت لتسقط في دفق من الماء والوحل والضوء مروّعةً اليعاسيب المتوالية على صفحة الماء. لم تكن تعرف السباحة، والمياه عميقة سوداء.

ليلي (2)

«قل لي، كلّ هذا الماضي

الذي يعكّر صفو عقلك،

ولا تزال تختلج به روحك،

أفلم ينطفىء بعد؟»

جوستان فرانز سيمون

جمعيّـة عمل الشّمال، لان، 1904

في عتمة المهجع الذي لا يكاد يضيئه شعاع القمر، حاولت ليلي جاهدةً أن تنام على السرير المعدنيّ الذي يحدث صريراً كلّما قامت بحركة. كانت تشعر برغبة جارفة في الذهاب للتبوّل ولكنّ الموت ربّما كان أسهل من اجتياز هذه القاعة المشؤومة السيّئة التدفئة والذهاب إلى المرحاض الكائن في آخر الحديقة. كانت تنام في آخر صفّ من عشرات الأسرّة حيث ترقد فتيات معظمهنّ بالغات وهنّ يزايدن بعضهنّ على بعضٍ في الشّخير والصّفير.

منذ أصبحت نزيلة جمعيّـة عمل الشمال، بدأت تشعر بالخوف. الخوف من الفتيات الكبيرات اللّواتي كنّ ينظرن إليها ساخرات. الخوف من الراهبات المتعَبات والقاسيات. الخوف من الأمّ الرئيسة أديل، وهي امرأة فظّة، تثير الغرابة بتبرّجها ووجهها المكسوّ بالمساحيق. استقبلتها دون كلمة ترحاب وسرعان ما أرسلتها إلى المطبخ لتعمل. الخوف من الأب دوفال وهو رجل ملتحٍ طويل القامة كان يثير الرهبة والإعجاب لدى جميع الراهبات. الخوف من

البناء المقابل حيث تقيم الراهبات، والذي تنبعث منه، من وقتٍ لآخر، أصوات خافتة كأنّها شكوى أو نداءات واهنة تُطلق على ضوء الشموع المرتجفة. لكأنّ الراهبات كن أشدّ تعاسة من المرضى والفقراء الذين يستقبلن في قاعة المستشفى الفسيحة، والذين كانوا يبدون، من ناحيتهم، مستغرقين في نوم لا أحلام فيه.

بعد وفاة ماري واختفاء أورور، حسمت عائلة روسو الأمر على وجه السرعة. لم يكن في نيّـة شقيقَي ماري وشقيقتها، ولكلّ واحد منهم أربعة أولاد، أن يعيلوا فرداً آخرَ لا فائدة تُرجى منه. سمع الأخ الأكبر عن تأسيس جمعيّـة دينيّـة حديثاً في لان السفلى تستقبل، إلى جانب بعض البؤساء الذين كانوا يتلقّون العناية قدر المستطاع، فتيات مهملات ويتامى. ولقاء مبلغ كبير مقتطع من ميراث ماري، قبلت جمعيّـة عمل الشمال ليلي نزيلة تعمل فيها وتحصل بالمقابل على المأوى والقوت والتنشئة المسيحيّـة التي افتقرت إليها في بيت هاتين المرأتين السيّئتي السّمعة. وهكذا، وبقليل من الوقت، تخلّصت عائلة روسو من ليلي.

لم تعد ليلي تتحرّك، بل طفقت تكزّ على أسنانها وتشدّ فخذيها. اغرورقت عيناها بالدمع وأخذت تفكّر بماري وبأورور التي غادرت دون أن تودّعها. رأت عنكبوتاً متدلّية من نسيجها، أمام النافذة الهائلة التي تأتي منها تيّارات هواء متجلّدة. كانت النهارات في هذه الجمعيّـة منهِكة. في الساعة الخامسة يجب التأهّب للذهاب إلى القدّاس، يلي ذلك حضور الدّرس حتّى الساعة الحادية عشرة، ثمّ القيام بأعمال التنظيف والمعاونة في المطبخ. بعد الغداء البائس تذهب ليلي إلى المستشفى لتنظّف القاعات وتساعد الراهبات في اعتنائهنّ بالمرضى. كانت تعمل مع الأخت مادلين وهي امرأة عجوز

ساقاها مليئتان بالتقرّحات وتلهث باستمرار مغمغمة بكلمات غير مفهومة، وتنهرها طوال الوقت.

أخذت العنكبوت تهبط ببطء على طول خيطها. اختفى القمر خلف الغيوم، وكان ضوء الشموع الآتي من مبنى الراهبات يحدث انعكاسات غريبة على الزجاج. ضغطت ليلي على فخذيها حتّى التشنّج. لن يكون بإمكانها الصمود طويلاً. كان يفترض بها أن تنهض وتخرج من المهجع مهرولة حتّى المراحيض. تردّدت، أخرجت ساقاً خارج الشرشف ثمّ ما لبثت أن أدخلتها. تدفّق السائل الساخن فجأة على طول فخذيها. فعلتْها ثانية. لم يكن بمقدورها الامتناع عن التبوّل في سريرها وكان ذلك مريعاً. ما هي إلّا بضع ساعات وتأتي الأخت ماري أوفرازي لتفقُّد المهجع. وستستدعي ليلي. ثمّ تشير دون كلمة إلى الفراش المبلّل منتزعةً الملاءة الخشنة الرطبة، فاركةً بها وجه ليلي لتنهاها عن رغبتها في توسيخ فراشها.

بكت ليلي طويلاً ونامت في آخر الأمر. حان وقت النهوض.

لم تعتد ليلي قطّ على المبنى القديم القاتم ذي السقوف العالية جدّاً، التي تملأ بيوت العناكب السوداء زواياها لكنْ لا أحد كان يكلّف نفسه عناء تنظيفها. لكأنّه صومعة مسكونة بالأشباح، ولم تكن بمنأى عن تصديق أنّه كذلك. على أيّ حال، كان هناك بعض الغرف التي لا تقترب منها الراهبات أبداً قبل رسم إشارة الصليب. كلّ شيء في هذه الجمعية المؤلّفة من عشرين راهبة تفوح منه رائحة الأماكن المغلقة وألم الرأس والعتمة والخبل. وكانت الرئيسة أديل دو لا باسيون [29] هي التي تهيمن على المكان، ثلاثينية شبه صمّاء تفرض طيلة الوقت الصّيام والعزلة على راهبات لم يعد بوسعهنّ التحمّل. غالباً ما رأت ليلي الأخت مادلين تعاني من الدوار والدوخة، ما يرغمها على الاستناد إلى الجدار أو الجلوس خشية السقوط مغمىً عليها.

وسط هذا الغسق من الأجساد والأرواح كان الأب دوفال يترك انطباعاً خارقاً للعادة. كان طبيباً لأرواح الراهبات وأراد ايضاً أن يكون طبيباً لأجسادهنّ، موصياً بأدوية غريبة يعالج بها أمراضهنّ، من قرابين مكرّسة، وضمادات مركّبة تحتوي موادّ مقزّزة، وتضرّعات إلى القدّيسين الأكثر غرابة. وهكذا اكتشفت ليلي، في حجرة التمريض، وجود القدّيس أثينودور الذي يسمح للمحتضر بالموت أثناء نومه، والقدّيسة أنغادريم التي تقي من موت الفجأة، أو أيضاً القدّيس غراتوس الذي يشفي من لدغة القُراد والطفيليّات الأخرى. لا أحد في الجمعيّـة كان يجرؤ على الشكّ بنجاعة العلاجات المشحونة بالسِّحر.

لم تُفلِح ليلي بالعثور على صديقة واحدة. والسّبب عاداتها الغريبة. بدل أن تهتمّ بنظافتها بغسل وجهها ويديها على عجل، كانت تغتسل مراراً بالماء الغزير، وبالمضخّة. تلك عادة ورثتها من أورور التي كانت تصطحبها بانتظام إلى الحمّـامات العامّة. كانت ماري تأنف الاستحمام لكنّ رفيقتها أظهرت هوساً حيال النظافة. كان هذا أمراً فاضحاً في نظر جمعيّـة عمل الشمال. ذات صباح فاجأتها الأخت مادلين حين كانت منصرفة إلى نظافتها الحميمة فأنّبتها قائلة: «أمعقولٌ هذا يا فتاتي؟! اقتدي بي. عمري خمسون عاماً ولم أغتسل في هذا الموضع قطُّ!».

وكان لها أيضاً تلك العين الثاقبة. سرعان ما لاحظت الأخوات والنّزيلات أنّها كانت تفطن لأقلّ عيب، وأدنى أثر احمرار، أو خدش، أو بثرة، أو جرح على الجلد. لا شيء كان يغيب عن نظرها أيضاً إزاء تغيّرات ملامح من يحادثها. كانت تدرك فوراً إن كان أحدهم يخفي عنها شيئاً وتحدس المشاعر التي تسيطر عليه. ما إن يحدّثها أحدهم حتّى تفهم ما يرمي إليه. وفي النهاية هُمِّشت لأنّها كانت تثير الخوف في النفوس.

لا أحد كان باستطاعته أن يمسك عليها زلّة، ولكن كان هناك دلائل على اختلافها. تشاجرت مع فتاة في الخامسة عشرة من عمرها تدعى جوديت تفوقها قامةً وبُنيةً، فضربتها هذه. بعد يومين، في منتصف اللّيل، بدأت جوديت بالصراخ. هرولت الأخت أغات مرتاعة وفي يدها مصباح. ذهلت ممّا رأته. بالرغم من الصرخات التي تثقب الآذان كانت جوديت جامدة في سريرها وقد شلّها الخوف. عشرات العناكب الضخمة والسّوداء، من النوع غير النّاسج الذي يصطاد طرائده أثناء قفزه، كانت تجول على وجهها وذراعيها وساقيها وتعلق بشعرها. في الجهة الأخرى من صفّ الأسرّة فتاة واحدة ظلّت مستلقية بهدوء: ليلي.

أدركت ليلي أنّ «عمل الشمال» لم تكن جمعيّـة رهبانيّـة كالجمعيّات الأخرى يومَ دعتها جينيت، وهي فتاة آتية من كوسي، طويلة القامة ذكورية الصّوت فظّة الحركات، لرؤية صبيّ أسمر في التاسعة أو العاشرة من العمر يسكن في جناح منفصل داخل الجمعيّـة. كان يخرج بانتظام للتنزّه لأنّه لم يكن ملزماً بالعمل كالفتيات. «يدعى ألكسندر»، كما أوضحت لها جينيت. ثمّ بعد أن تأكّدت من أنّه لا أحد في الجوار، ألصقت فمها بأذن ليلي وبنبرة من يقول سرّاً عظيماً قالت: «إنّه ابن الأخت أديل...»

شعرت ليلي بأنّها ضائعة وسط هؤلاء الراهبات الغريبات والفتيات اللّواتي كن يقلن عنها بصوت خفيض إنّها لقيطة ربّتها امرأتان «متحابّتان» دون أن تفهم مغزى هذه الكلمة. ومثلما كانت في الماضي تخيّب أمل أورور وماري فتنظران إليها بحسرة، كذلك كانت جمعيّـة عمل الشمال تظهر لها كلّ ما ينقصها، تلك الثغرات الهائلة التي كانت تملأ حياتها. كانت تفكّر أنّه يترتّب عليها تخطّي الثغرات والنموّ حولها كما ينمو جذع الشّجرة حول الصخرة. كانت لا تجد القوّة لذلك ولا أحد هناك لمساعدتها.

أغلق تيو أودويرتس باب منزله، بناء يعود إلى القرن السابع عشر يرشح رطوبة وذو واجهة مبقّعة الجدران. حيّا بأدبٍ جارته، امرأة عجوز بقفّة مليئة ورأس فارغ فأدارت له ظهرها وبادرته بتأفّف يصحبه نخير مشوب بذاك الاحتقار الذي يميّز المزارعين البيكارديّين، رافعةً ذقنها كأنّما لتقول له إنّه ينتمي إلى حثالة المجتمع.

كان المنزل الذي استأجره في وسط مدينة لان العليا يتمتّع بحسنة أنّه يمتلك قبواً فسيحاً أنشأ فيه مختبره. ههنا كانت المعضلة بالنسبة إلى العجوز الشكسة: التجارب التي كان يجريها على حيوانات حيّـة لا تُشعر بالاطمئنان. عبثاً حاول طمأنتها قائلاً إنّه لم يكن يهتمّ إلّا بالفئران والجرذان والأرانب. كانت تؤكّد أنّها سمعت نباحاً آتياً من مختبره. على أيّ حال، لاحظ السكّان اختفاء الهررة والكلاب في الجوار منذ استقرّ في الحيّ. وبالضبط لم يعد كلب السيّدة منذ يومين. جاءت لتتأكّد من أنّ العالِم لم يختطفه. اعترض مستنكراً وترتّب عليه أن يريها أقفاص مختبره التي كانت لحسن الحظّ فارغة في تلك اللّحظة.

ثمّ إنّه تصرّف بشكل أخرق. قبل بضعة أشهر، في الأيّام التي أعقبت انتقاله، استدعى جيرانه ليقترح عليهم عرضاً توضيحيّاً لعمله. أمام هؤلاء الفلّاحين والبورجوازيّين الصغار المتصلّبين في آرائهم كمثْلِ ثَفَنِ أقدامهم، حضّر بعض العيّنات على شريحة زجاجية وجعلهم يتفحّصون النتيجة في المجهر. اقتربوا منه بحذرٍ جافلٍ وكأنّه آلة همجيّـة. رأى كلّ واحد منهم بدوره عبر العدسة بعض الجسيمات تتحرّك بسرعات متفاوتة. قال لهم موضحاً: «إنّها

جراثيم، كائنات مجهريّـة موجودة في كلّ مكان، تدخل أنوفنا ورئاتنا وأحشاءنا وتسبّب أحياناً لنا الأمراض».

هزّ الزوّار رؤوسهم دون أن يبدو عليهم أيّ تأثّر. راقبوا المختبر الذي تضيئه كوّة تطلّ على الرّصيف، نظروا إلى أنابيب الاختبار والمقطّرات والدوارق المعقوفة، وتلمّسوا طاولات التشريح التي ثُبّتت إليها أحزمة جلدية لتقييد حركة الحيوانات الصغيرة. أمّا الأقفاص المسيّجة الموضوعة في إحدى الزوايا، التي تتّسع لحبس الثعالب أو الكلاب الضخمة، فبدت لهم أكثر ألفة. ومع ذلك لا شيء ممّا اكتشفوه بين هذه المباضع والملاقط والحُقَن والمواقد راق لهم.

سرّوا بادىء الأمر لعلمهم أنّ طبيباً يقيم في حيّهم ولكنّه مع هذه الأدوات الغريبة كان يوحي لهم بثقة أقلّ ممّا لو كان مجبِّرَ عِظام. كان عالماً من النوع الذي ينفّرهم، لا سيّما استخدامه هذه الكلمة عند كلّ مناسبة: «ميكروب» للدّلالة على أشياء لا يمكن رؤيتها فيما هي موجودة في كلّ مكان. ثمّ إنّ كلّ هذه الجراثيم دويبات مجهريّـة نعيش معها منذ الأزل، فلماذا أصبحت فجأة مؤذية وملوّثة حسبَ ما كان يخبرهم؟

اقترب مربّي حيوانات متورّد الخدّين رماديّ الشّاربين جميلهما ونظراته تشي بالمكر. كان قد رأى أحصنة أصابها المرض وفي أغلب الأحيان تمكّن المُعالج من شفائها. وحين كانت البهائم تنفق فهذا لأنّها ضعيفة جدّاً أو مسنّة جدّاً، هذا كلّ ما في الأمر. لا لزوم لتفحّص الميكروبات تفسيراً لكلّ ما يحدث، فالمرض الكامن في الحيوان كفيل بأن يقتله لأنّه خُلق مع هذا المرض. ثمّ أشار إلى المجهر قائلاً:

- وميكروباتك هذه كم تزن؟

- يصعب الإجابة على هذا السؤال. عدّة ملايين منها لا تزن غراماً واحداً على الأكثر.

- غرام واحد! عدّة ملايين!

ضحك الرجل العجوز مظهراً أسنانه المصفرّة التي كساها الجير تحت شاربه: «وتخبرنا أنّ حصاناً وزنه قنطار أو ثوراً من سبعمائة كيلو يمكن أن تقتلهما حيوانات بهذا الصّغر! كفى تهريجاً!».

انصرف العجوز فخوراً بعبارته الذكيّـة التي أفحمت السيّد الصغير. بأقلّ بهجة منه غادر الجيران إثر مربّي الحيوانات وألقوا التحيّـة شزراً. مهما يكن لا شيء يدفعهم لأن يعهدوا بصحّتهم لهذا الطبيب.

ومنذ ذلك الحين كلّما اختفى قطّ أسندوا التهمة إلى أودويرتس. وهذا كان ظلماً. بالطبع، في البداية، قام بمثل هذه التجارب، ولكن فقط على الكلاب: أجرى حقناً مضادة لداء الكلَب وقام بزراعة بكتيريات. كان هناك الكثير من الكلاب الشاردة في المدينة وبالإمكان استخدامها فعلاً. ومع ذلك منذ تعرّض مرّتين او ثلاثاً للعضّ آثرَ أن يستعين بحيوانات يمكن التحكّم فيها تحكّماً أفضل. لكنّ هذا لم يَحُلْ دون اكتسابه سمعة بغيضة في الحيّ. بات أقلّ شعبيّـة من الضّريبة على الدخل. فواسى نفسه مفكّراً بأنّ سوء فهم الجماهير قَدَرُ العلماء الكبار. نظر إلى ساعته متنهّداً: حان الوقت للذهاب إلى جمعيّـة عمل الشمال.

عُيّن أودويرتس ليعطي دروساً في الرياضيّات والعلوم الطبيعيّـة لنزلاء «جمعيّـة عمل الشمال» وخصوصاً لتعليم ألكسندر الصغير الذي بدا متمتّعاً بمعاملة خاصة تُجهَل أسبابها. كان الطبيب أودويرتس فلمنكيّاً لجهة والدته وفرنسيّاً لجهة والده، وقد ولد وترعرع في أنفيرس. أتاح له حصوله على الجنسيّـة الفرنسيّـة أن يصبح طبيباً في فرنسا لكنّ المعارف الطبيّـة كانت نقطة في بحر علمه. منذ سنته الخامسة لا يتذكّر يوماً واحداً لم يدرس فيه. لم يتوقّف يوماً عن القراءة والحساب والمعاينة والتحليل منتقلاً من كتاب لآخر، ومن توصيف واقعٍ ما إلى تفسيره النظريّ. كان لديه شغف المعرفة والاستدلال والتمعّن في ما رآه وحلّله ليدوّنه في مفكّراته، وهذا الشغف ينطبق على كافّة الميادين. هالَ والديه هذا الفضول الذي أصبح على مرّ السنوات جارفاً كالسيل بعد ذوبان الثلج. واستوقف انتباه جميع أساتذته الفلمنكيّين أو الفرنسيّين الذين غالباً ما كانوا يمتعضون من ملاحظاته التي لا تكلّ ومن أسئلته التي تُبين لهم محدوديّـة معرفتهم. ما إن يقدّمون له واقعة أو يشرحون له نظريّـة حتى يبدأ بالاستنتاج والاستخلاص والمساءلة أكثر فأكثر حتّى الارتداد إلى النقطة التي تفوق قدرة العلم على توضيحها. كان يقول: «في النتيجة، ذاك الذي أحدث ثورة في الطبّ كان كيميائيّاً متخصّصاً في البلّورات: باستور. يجب حذو حذوه. يجب استعادة الصّلات بين مختلف حقول العلم».

في سنّ الخامسة والعشرين، ناقش أودويرتس أطروحة في باريس حول سجال فابر- باستور [30] بشأن زراعة دود القزّ، وحول التعاليم التي يمكن

استخلاصها من ذلك في ما يتعلّق بالممارسة الطبيّـة، وعلم الحشرات، وعلم الجراثيم. احتارت اللّجنة أمام تميّز هذا الطرح لكنّها لم تمتنع عن إعطائه شهادته. كان بإمكانه أن يركن إلى مهنة طبّ بورجوازيّـة لكنّ حلماً أسمى كان يطارده. جذبته أعمال روبرت كوخ [31]، مكتشف عصيّـة السلّ. تسجّل في معهد الصحّة في برلين متعلّماً اللّغة الألمانيّـة كما لو كانت فلمنكيّـة معقّدة قليلاً. لكنّ هذا لم يكن يمنعه من أن يتابع بشغفٍ أعمال شارل أوبرتور، وأن يكون عضواً فاعلاً في مؤسّسة علم الحشرات في فرنسا وأن يعمّق دراسته لأحدث الأعمال في الرياضيّات.

كان أعزب لأنّه لم يجد الوقت لمغازلة النساء. لم يكن هذا الأشقر الأربعينيّ، الطويل القامة، الذي يبدو أصغر من سنّه بعشر سنوات، ينخرط في أيّ محادثة. كان يبقى صامتاً أمام محاوريه ناظراً إليهم بعينيه الزرقاوين الباردتين إلّا إذا حدّثه أحدهم في الفيزياء، أو علم الأحياء، أو علم الحشرات، أو الرياضيّات. كانت كلماته حينذاك تصطبغ بحماس يضفي عليه هيئة شخص مُلهَم. كان يراقب العالم معرضاً عن الانفعالات والمشاعر وكلّ الفوضى النفسيّـة التي تحول دون فهم سير الأشياء. في نظره كانت المرأة من الثديّيات الذكيّـة التي تفيد الرجل، وذات خصائص جسمانيّـة معروفة بصورة أفضل على الرغم من بعض النقاط التي لا تزال غامضة مثل الدماغ وجراثيم الأحشاء. أمّا الحبّ؟ فهو تبادل السوائل والجراثيم بين شخصين. كانت الجراثيم هي التي تهمّه ومسار تكاثرها، عند الاقتضاء.

في لان، تابع دراسة الرياضيّات والفيزياء وعلم الجراثيم، ولم يكن يفوّت حضور القدّاس ثلاث مرّات في الأسبوع على الأقلّ، مع إيثاره الذهاب إلى الكاتدرائيّـة. كان علم الأحياء يشغله كثيراً: في مختبره يغلي

المستحضرات المشبعة بالعصيّات، ويحضّر الكواشف [32]، ثمّ يراقب الجراثيم في المحاليل. كانت الفئران والأرانب مرتكَزاً لتجاربه ولقاحاته وملاحظاته. كان يأخذ عيّنات ويذهب إلى منضدة المختبر وهناك يصفّي ويتفحّص ثمّ يعود إلى المنضدة. حين لا يُعلّم أو يذهب إلى الكنيسة، كانت نهاراته تمضي بين الحيوانات المحتضرة والمعاينات المجهريّـة المتعاقبة التي كان يدوّن نتائجها.

لطالما كان أودويرتس مقتنعاً بأنّ مشكلة زمانه الأساسيّـة هي تَجابُه العلم والدين، وأنّ التحدّي الأكبر المعاصر كان مصالحة هذين المجالين اللّذين كانا يستجيبان كلّ واحد على طريقته لحاجاتٍ أساسيّـة لدى الكائن البشريّ. كان يقول: «خذوا مثالاً قبر باستور المزيّن بثلاثة ملائكة يرمزون إلى الفضائل اللّاهوتيّـة: الإيمان والرجاء والإحسان. وقد أضيف إليها ملاك رابع: ملاك العلم... العالم اليوم منوط بهذا التحالف». كان يدعو إلى الاستكشاف المعقلن للمستويات البدائيّـة للطبيعة والإنسان، هذه الأعماق حيث العلم والدين يلتقيان. لذا رأى لزاماً عليه أن يتغاضى عن هذه الحقائق الجليلة آسفاً وأن يجد نفسه عالقاً في البيكاردي يعلّم أطفالاً موهوبين في الخياطة أكثر ممّا في الماورائيّات، وكان الحصول على شهادة الدراسة بالنسبة إليهم صعب المنال مثل الكأس المقدّسة [33].

وجد هذه الوظيفة بفضل تيودور لوفران، الذي لم يكن مُزمِعاً على تسميته ليزيار دو غريسي. كان التقاه خلال مؤتمر مخصّص للخيمياء في بروكسيل. سُرّ لوفران بالتعرّف إلى عالِم تجذبه الروحانيّات، فدعاه إلى لان واقترح عليه أن يعلّم في جمعيّـة عرّفها بأنّها مثال مستقبليّ لتلقين الأسرار الروحيّـة. وهكذا كان أودويرتس يذهب ثلاث مرّات في الأسبوع إلى «عمل

الشمال» ليعطي دروساً لألكسندر اليافع ويرسّخ بعض المفاهيم العلميّـة الأساسيّـة في أذهان النزيلات.

أمّا ليلي التي كانت تمقت الدروس التي تعطيها الراهبتان أغات وآنّ، فكانت تعتبر تعليم تيو أودويرتس بمثابة نعمة. لم تكن تحبّ التعليم الدينيّ ولا دروس التاريخ مع قائمتها التي لا تنتهي من القدّيسين وتوالي ملوكها وملكاتها المتوّجين بهالة المعجزات التي تثبت طيبة الله اللّامتناهية. كانت تأنف من التعاليم الأخلاقيّـة التي تُعِدُّهنَ ليصبحن زوجات مكرّسات للأعمال المنزليّـة والخياطة وعبادة أزواج المستقبل. كانت ترى أنّه يجب أن تتشاغل عن كلّ هذه التقوى المتزمتة بطرح الأسئلة على الأخت أغات وفي كلّ مرّة تجيبها الراهبة الورعة بعبارات كانت تعيدها هي نفسها كما تعيد كرّ حبّات المسبحة تحت أصابعها: «إذا كنت تريدين أن تعرفي أكثر صلّي. الله قادر على أن يجيبك».

كانت تستمتع برؤية أودويرتس، وهو المسيحيّ الغريب ذو الميول العلميّـة، يعارض بلذّة ماكرة تعاليم الراهبتين. ما إن تتحدّث الأخت أغات عن النحلة للأطفال قائلة إنّ «النحلة، بحضورها في النور المنبعث من الشمعة المقدّسة، ترمز إلى القيامة، إلى المسيح. النحلة عذبة بعسلها، قاسية وعادلة بإبرتها»، حتّى يشرح أودويرتس للصّغيرات نظام خليّـة النحل وتعاسة الملكة البدينة. ما إن تذكر الزنبور، رمز النيّـة السيّئة، حتّى يُظهر لهنّ حسنات الزنبور الشائع والزنبور الألماني (بصدغيه الأصفرين) لأنّهما يأكلان الكثير من الحشرات الضارّة. وحين كانت آنّ تقدّم للطفلات البقس [34] والورقة رمزاً مسيحيّاً للأمل، كان يشرح لهنّ ما هي الورقة ولأيّ حدّ كانت مصمَّمة بعبقرية لتقاوم الطفيليّات قائلاً: «راقبوا كم تطوّرت اليرقة ونمت أرجلها الماصّة لتهاجم الورقة فلا تستطيع لأنّها مغطّاة بطبقة شمعيّـة تجعلها زلقة. كما يصعب

أكلها لا سيّما وأنّها تتعرّض للضوء والريح وتهتزّ دون توقّف... فهل الشجرة والورقة ذكيّتان؟ بالطبع لا ولكن يصعب وجود نظام أكثر فعاليّـة لردع الحشرات المهاجمة...». في نظره، كان التعقّد العجيب للواقع يثبت مجد الخالق أفضل من أيّ رمز مستهلك.

تطرّقت الراهبتان، في عرضهما للملوك حماة الإيمان المسيحيّ، إلى لويس الخامس عشر. الأمر الذي دفع أودويرتس إلى تلقّف الموضوع ليعطي درساً طبيّاً عن الأمراض الزهريّـة، ثمّ ما لبث أن تراجع. لأنّ هنالك حدوداً بعد كلّ حساب. ومع ذلك، بما أنّ «الملك الحبيب» توفّي بالسفلس فإنّه اغتنم الفرصة ليقارب الموضوع من جانبه الأكثر حياداً أي الجراثيم. ودون تحضير مسبق، قرأ لتلامذته تقرير الأطبّاء عن مرض الملك.

كان لويس الخامس عشر في الرابعة والستين؛ بعد نوبات من الحمّى ألمّت به لاحظ الأطباء تفشّي بثور على كلّ جسمه: الجدريّ الصّغير، كما كان يقال آنذاك. سرعان ما تحوّلت هذه الحدبات إلى دمامل راشحة مليئة بالقيح، ثمّ تكاثرت حتّى تلاصقت مشكّلة طبقة رقيقة. وبعد خمسة أيّام انتشرت الدمامل في كلّ مكان بالغةً الفم. اسودّ جلده وبدأت تفوح منه رائحة مريعة. أخذ الملك يهذي، ثمّ بعد يومين من الغيبوبة، توفّي من جرّاء معاناته آلاماً فظيعة. وختم أودويرتس بقوله: «الجدريّ، variole ذاك المرض الشديد العدوى الذي كان يؤدّي غالباً إلى الموت. يمكن للإنسان أن ينجو منه لكنّه يترك ندوباً زهريّـة لا تمحى وتشوّهات جلديّـة مدى الحياة». أخذ يعاين ما إذا كانت هناك آثار لهذا المرض على وجوه التلميذات فأصابهنّ بالذعر وتقزّزت نفوسهنّ. ثمّ تابع قائلاً: «لم يجازف أطباء لويس الخامس عشر بمعالجته. كانوا يجهلون

تماماً سبب المرض. اليوم نعرف أنّ مصدره جرثوم، كائن صغير ينتقل في الهواء. باللّقاح المبكر وحده يمكن الوقاية منه...».

نظرت إليه الفتيات مندهشات. «تتساءلن عمّا تكون هذه الجراثيم، أليس كذلك؟... من زمن ليس ببعيد جرى الكلام عن نقاعيّات [35]، وجسيمات، وخمائر [36]، وألياف، وضمّات [37]، وبكتيريا الفحم، وغيرها للإشارة إلى الكائنات الحيّـة المتناهية الصغر التي لا تُرى إلّا في المجهر. كان يفترض إيجاد كلمة يتّفق عليها الجميع. تخيّلن أنّ اختصاصيّاً في اللّغة الفرنسيّـة، إميل ليتريه، هو الذي عثر على كلمة «ميكروب»، وهي مشتقّة من جذرين إغريقيّين: «ميكروس» التي تعني «صغير» و«بيوس» التي تعني «حياة». الميكروب اسم الأحياء المتناهية الصّغر، تلك الموجودات التي بلغت من الدقّة حدّاً يمكنها معه التغلغل في أعضائنا، والسباحة في دمنا والتسلّل إلى رئاتنا، واعتلاء أعصابنا وقتلنا أحياناً، تماماً كما قتلت الميكروبات... لويس الخامس عشر الملك الحبيب...». توقّف أودويرتس عن الكلام. شعر بالرضى وهو يتأمّل وجوه الفتيات المنتبهات. «لكن لدينا وسيلة لتجنّب الكثير من الميكروبات. هل تردن معرفتها؟... ابدأن بغسل أيديكنّ!»

بعد مرور أسبوع، كانت النزيلات يصرخن قرفاً لدى ذكرهنّ وفاة لويس الخامس عشر، والكوارث التي تحدثها تلك النمور غير المرئية التي تسمّى الميكروبات. أمّا أودويرتس فاستنتج بمتعة أن معظم الفتيات كنّ يغسلن أيديهنّ قبل الدخول إلى غرفة الصف. في أيّ جمعيّـة أخرى كان مثل هذا الأستاذ سَيُطرَدُ منذ الدروس الأولى؛ بالتأكيد كان لديه دعم لوفران راعي

«عمل الشمال» الكريم، لكنّ الجمعيّـة التي تديرها الأخت أديل كانت، بإيعازٍ من الأب دوفال، توجّه اهتمامها إلى أنشطة أخرى.

آنذاك بدأت فكرة الشيطان تعذّب الأخت ماري أوفرازي. هذه المرأة الخمسينيّـة شبه الدّرداء التي غزت التجاعيد وجهها أكثر من أثلام العواصف على صفحة نهر الأين، كانت مكروهة من جميع الفتيات. عند أقلّ إهمال، أو تأخّر في قاعة الطعام، أو شرود أثنـاء القدّاس، أو أدنى عصيان، كانت تعاقب النزيلات فارضـة عليهنّ أحياناً تلاوة الصلوات أو السجود، لكنّها لم تكن تتورّع عن استخدام أداة مخيفة: سوط تضرب به سيقان المذنبات دون شفقة وهي تجول بعينيها الجاحظتين المجرّدتين من الرموش متّخذة هيئة ورعة مزعجة إلى أقصى الحدود، لكأنّها تقول للمعاقبات: «أعذّبكنّ ولكنّي أفعل هذا لصالحكنّ»، كما كانت تفعل حين تدعك بقسوة وجوه النزيلات الصغيرات بالملاءة المبلّلة ببولهنّ لردعهنّ عن معاودة توسيخ فراشهنّ.

كانت ماري أوفرازي تُـجلّ الأب دوفـال. ما إن تـراه حتّى تُخفض رأسـها مبدية الاحترام، أو بالأحرى انشداهاً مقدّساً كما قد يفعل عِجل في حضرة بيانو صخم. كانت ستمضي نهارات هانئة في الجمعيّـة التي يخدم فيها الرجل القدّيس لو لم تروّعها الشياطين. ما إن علمت أنّه يشاع عن الدير أنّه مسكون، حتّى باتت لياليها أشدّ وطأة. لدى أقلّ ضجّة مشبوهة، كانت الظلمة تبدو لها مزدحمة بالكائنات الشريرة التي تترصّدها هازئة بها.

كان الأب دوفال لا يفعل شيئاً لطمأنتها، ويصف الشيطان وكأنّه مخلوق حُبِيَ أعظم المواهب رغم تمرّده على الربّ. كان يتحدّث باندفاع لا بل بحماسة تدهش الراهبة عن كائن جبّار وحكيم وماكر يدرك كنه القلب البشريّ. كان يهمس قائلاً والبريق في عينيه: «تلك هي أغوار الشيطان التي لا قرار لها». لم

تكن الأخـت ماري أوفـرازي تهتمّ بالطبع بهذه الأغوار. كانت تودّ أن تبقى عند حدود الخطايا والتجارب البشريّـة العاديّـة التي تنزلق إليها وتعترف بها للكاهن بخشوع. كان التأمّل في إغواءات إبليس يثير فيها الاضطراب، ويخرجها من الرتابة الدينيّـة التي لا مواربة فيها. لقد نأت بها مهزلة نكراء بعيداً عن هذه البساطة البلهاء.

خلال سهرةٍ لعيد جميع القدّيسين، في اللّيل الحالك، شوهد طيف يرتدي لباساً أبيض ينسلّ عبر قاعة النوم. بدأت صغار الفتيات بالصراخ، انتُزِعَتْ أغطية أسرّتهنّ بعنف، وأحسّت بعضهنّ بأيادٍ متجلّدة تلامس وجوههنّ. أضيئت الأنوار على وجه السرعة. كانت الأخت ماري أوفرازي تحرس المهجع ففتّشت القاعة طويلاً، وخلفها تجمّعت الفتيات المرتعدات خوفاً. فُتِحَ الباب واصطفقت درفته. لا أحد. عاين الجميع تحت الأسرّة التي قلبت أغطيتها، لا شيء إلّا الغبار والذباب الميت وبعض العناكب المتخدّرة. بعد ساعة من تداول الحديث عن المشاهدات والانطباعات سعياً لفهم ما جرى عادت جميع الفتيات، بمن فيهنّ الصغيرات الباكيات، للنوم متذكّراتٍ سمعة الدير. أقفلت الراهبة الباب الخارجي بإحكام.

في اللّيلة التالية، حوالى الثانية صباحاً، استيقظت الفتيات على وقع أقدام وصليل سلاسل آتيين من العلـيّـة فوق رؤوسهن. بدأ الصراخ ومن جديد وقفت جميع الفتيات على أسرّتهنّ يتفحّصن السقف بقلقٍ. كان يترتّب عليهنّ تسلّق الدرج المؤدّي إلى العلـيّـة والذهاب لرؤية ما يجري. لم تستطع ماري أوفرازي أن تحسم أمرها، ولا كانت لها الجرأة للذهاب وإيقاظ الرئيسة. عاودت تفحّص جميع الأبواب، وبصوت مجرّد من الشعور أمرت الصغيرات بالعودة للنوم، ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن.

في اليوم التالي فتّشت عدّة راهبات العلـيّـة ولم يعثرن على أيّ شيء غير اعتيادي. لكنّ الأخت ماري أوفرازي كانت متأكّدة من أنّ الأشباح التي بقيت لوقت طويل مستكينة قد عادت إلى الحراك. عمّ الاضطراب العديد من الراهبات. لمَ انتقلن إلى مبانٍ مسكونة بالأشباح؟ كمن يجرّب الشيطان والحقّ يقال. كانت اللّيلتان التاليتان هادئتين مع أنّ الكثيرات لم يأخذهنّ النوم إلّا في وقت متأخّر. بدت كلّ فرقعة وكلّ حفيف تمهيداً لظهور شبح ما.

ثمّ شوهد في المهجع طيف أبيض من جديد. انتزعت ليلي من نومها يدٌ متجلّدةٌ أخذت تشدّ على عنقها. حين فتحت عينيها رأت طيفاً منتصباً فوقها ثمّ سرعان ما لاذ بالفرار. كانت مشدوهة عاجزة عن الكلام ثمّ سمعت فتاة صغيرة على مسافة ثلاثة أسرّة منها تصرخ: «الأشباح! الأشباح» بصوت حادّ يخدش الآذان. جلست ليلي على السرير مقطوعة الأنفاس محاولة أن تتبيّن شيئاً في ظلمة المهجع. كان هذا صحيحاً إذَن! شعرت بحضور هذا المخلوق، بأصابعه الباردة كالرخام على جلدها! ومن جديد جرى التحقّق من جميع الأبواب والصعود إلى العلـيّـة واستكشافها بعناية ولكن لم يُعثر على شيء. هذه المرّة كان الجميع في حيرة. وأثناء الدّرس حين سخر أودويرتس من الأشباح، ذاك الوهم الذي يعود إلى سحيق الأزمنة، لم تبتسم أيّ تلميذة.

أمّا الراهبات اللّواتي كنّ يعرفن كيف يتوجّهن إلى الله وكيف يبعدن غوايات الشيطان، فإنّ عالم الأشباح كان من طبيعة أدنى وكان ينفّرهم ولا يملكن أيّ سلاح لمواجهته. والأصعب من ذلك أنّ ذاك الطيف بدا وكأنّه ينبثق من الجدران نفسها التي تؤويهنّ. كنّ ينظرن مرتعبات حولهنّ ويتفحّصن المبنى الكبير الرطب. لم يعد لديهنّ أيّ ملجأ يلذْن إليه.

مصحّ سانت آنّ، يونيو 1919

كانت ليلي تتحدّث منذ ساعة دون توقّف عندما دخلت ممرّضة واقتربت من الدكتور أمبرتو. همست ببعض الكلمات في أذنه. أجابها بصوت خافت دون أن يرفع عينيه عن المرأة الشابة، وبنبرة غاضبة: «لا أريد أن يزعجني أحد»، فغادرت الممرّضة مسرعة الخطى والانزعاج بادٍ عليها.

كان الحديث هامّاً بالنسبة للطبيب النفسيّ. إنّها المرّة الأولى التي ينجح فيها بِحَثِّ ليلي على الكلام. كان يترتّب عليه أن يقدّم، خلال بضعة أيّام، تقريره إلى السلطات البوليسيّة والعسكريّة لأنّ القضية، الحسّاسة في الظاهر، منوطة بهاتين السلطتين القضائيّتين. كانت المسألة تتعلّق بتحديد مصير هذه المريضة، وجعلها تمثل أمام محكمة أو الاكتفاء بإبقائها في المصحّ واعتبارها غير مسؤولة قطعاً عمّا جرى. حتّى ذلك الحين، لم تكشف له شيئاً يفسّر سبب اهتمام الشرطة والجيش بحالتها، ولماذا طُلب منه ألا يُشيع ملابسات إدخالها إلى المصحّ. كان يؤثر أن توضح له السبب فوراً، فهو ليس أكيداً أنّها ستكون متعاونة في حوار قريب معدّ تحت تأثير التنويم المغنطيسيّ.

قرّب أمبرتو كرسيّه الصغير ليسمعها بنحوٍ أفضل. كانت ليلي تتحدّث بشكل مشتّت ومتباين، وبانفعالٍ يمنعها من التعبير بوضوح. تارة تذكر «عمل الشمال»، وطوراً مشاهد تتعلّق بالمستشفى آتية من ماضٍ أحدث عهداً يصعب عليه جمعها. تحدّثت عن ممرّضة صُدِمت لدى تفحّصها ميزان حرارة المرضى مرّتين لفرط ارتفاعها، وعن رجال يختنقون، وعن رئاتهم التالفة المليئة بالدم

والزبد والبلغم، ووجوههم الرماديّـة، وشفاههم القرمزيّـة، وكلّ واحدة من زفراتهم أشبه بصياح البطّ.

ناولها كوباً من الماء فشربته برشفات صغيرة. فكّر في كلّ هذه الصور فعجز عن الربط فيما بينها. قرّر أن يعود بليلي إلى الطفولة بادىء الأمر، إلى «عمل الشمال».

قال لها بصوتٍ متهدّج: «أودّ أن تكملي لي قصّة الأشباح تلك، فهي لا تصدَّق. لا تنسي يا ليلي أنّني طلبت منك أن تخبريني الحقيقة».

أومأت ليلي برأسها قليلاً، مثل نائمة انتُزعت فجأة من حلمها. جلست من جديد وظهرها في غاية الاستقامة.

- قلت لك الحقيقة! لم تكن تلك أشباحاً بطبيعة الحال، ولكنّ الأب دوفال وحده كان يدرك ذلك...

- دوفال؟

- عرفنا ذلك لاحقاً. بصفته مُعرِّفاً [38]، عرف في الحال أنّها كانت مكيدة نصبتها النزيلات الأكبر سنّاً وبعض الراهبات لتخويف الفتيات الصغيرات والراهبات العجوزات المتطيّرات. كان ذلك إبّان عيد جميع القدّيسين، وتذكار الموتى، وهي فترة ملائمة لهذا النوع من الأحابيل... أنّب الأب المتورّطات فيها وأمرهنّ خفْيةً بالتوقّف عن افتعالها لكنّه منعهنّ من الكشف عن أيّ شيء. أعتقد أنّه أعلم فقط الرئيسة بما جرى.

- ولمَ كان يفعل ذلك؟

- كان عليك أن ترى الجمعيّـة في ذلك الحين. بسكوته كان يجعل الجوّ ثقيلاً لا يطاق... كان يهوى هذه الأجواء المحبطة التي تتسبّب بانحرافات غريبة في السلوك. وهذا لكي يدخل السرور إلى قلب السيّد الذي اختاره.

- وهل نجح؟

- نجاحاً فاق توقّعاته، ومهّد للمصائب اللّاحقة.

سألها عندما أنهت كلامها:

- أيّ مصائب؟

فردّت له الكوب قائلةً وهي تغمض عينيها: «لقد جرت الأمور تدريجيّاً».

جمعيّـة عمل الشمال، لان، 1908

كان تيو أودويرتس في نظر ليلي أستاذاً قادراً على التكيّف وجميعَ الظروف. ذات عصرٍ صيفيّ كان فيه الذباب مزعجاً، ترك درس علم المثلّثات ليخصّ الحصّة بالكلام عن هذه الحشرات. منذ أسبوع وصف لهم الصرصار وصفاً رائعاً، ذاك الحيوان الغريب الذي تضع أنثاه أكثر من مليوني بيضة في السنة، ويتنقّل بسرعة مذهلة بفضل أرجل تتمتع بثلاث رُكَبٍ ويمكنه حتّى بعد قطع رأسه أن يستمرّ على قيد الحياة لمدّة أسبوعين. وفي ذلك اليوم حان دور الحديث عن ذبابة المنزل. طرد الذبابة المزعجة التي جاءت لتحطّ على أنفه ثمّ قال:

- إنّها الحيوان الأكثر ألفة للإنسان... ترافقنا حيثما نذهب، ومهما نفعل... إنّها من ذوات الجناحين. حسناً انظرا ماذا تفعل بهما... من بين جميع الحيوانات هي الأكثر موهبة في الطيران. يُقلِع الإنسان ببطء بعد اجتيازه بضع مئات من الأمتار مستعيناً بأجهزة معقّدة، والنسر قادر على الطيران والانقضاض بسرعة مذهلة، لكنّ الذبابة هي الموهوبة الحقيقيّـة في الطيران. تخيّلا أنّها قادرة على «التّناسل» أثناء طيرانها!.

في القاعة الصغيرة بجدرانها المطليّـة بالأخضر الفاتح، كانت ليلي جالسة أمام طاولة كبيرة بالقرب من ألكسندر وأوشكت أن ترفع يدها لتسأل ما معنى «التّناسل» لكنّها خشيت أن تبدو جاهلة.

كانت ليلي أفضل تلميذة في «عمل الشمال» وكانت تُسئم الأختين أغات وآنّ بأسئلتها المتواصلة، لذا اتُخذ القرار بأن تعمل في المستشفى صباحاً وأن تتابع دروس أودويرتس مع ألكسندر. استاءت بادىء الأمر من التغيير. لكنّها لاحظت أنّ هذا الأستاذ الغريب كان أكثر إثارة للاهتمام خلال حصص الدروس المسائية منه في الصباحيّـة. حينئذٍ نقل إليها حبّ القراءة. وبفضل تشجيعه بدأت تلتهم كلّ الأبحاث العلميّـة التي كان يعيرها إيّاها وأيّاً يكن المجال. أمّا الفتى فاستقبلها بفرحٍ وكان سعيداً بأن يحظى بالرفقة وإنْ تكن فتاة، أي كائناً قلّما يمكن التكهّن بتصرّفاته وشديد التحفّظ بالنسبة إلى ذوقه. على الأقلّ حين كانا يضجران في الصف كانا يتشاركان في الضجر.

تابع الأستاذ الفلمنكيّ قائلاً:

«في القرون الوسطى، حرّمت محاكم دينيّـة دخول الذباب جزاءً له على الكوارث التي أحدثها في الغلال. لم ينفع الأمر!... اعتبر البعض هذه الحشرات ملائكة عذابٍ ورسل الشيطان، وهذا ممكن. لكنّ الذبابة تذكّرنا على نحوٍ خاصّ بفنائنا، كأنّها تقول لنا: «تذكّر موتك يا إنسان» [39]. هل تذكرون درس اللّغة اللّاتينيّـة؟ الذبابة تدور حولنا بالضبط كما لدى اقترابها من جثّة، رافضةً التفريق بين الأحياء والأموات».

«ألبيرتي [40] عالم إيطاليّ كتب مديحاً في السيّدة الذبابة. حسبَ رأيه، عرفت كلّ شيء: المأكولات التي كانت الساحرة كيركي تقدّمها لضيوفها لكي تحوّلهم إلى خنازير، ومخبأ أوزيريس حين كان جميع المصريّين يبحثون عنه، وحتّى العيوب الطفيفة في جسد الجميلة هيلينا التي تبقى مع ذلك مغرية

بالطبع. ولم تُفشِ الذبابة الأسرار فهذه السيّدة التي تذهب إلى كلّ مكان تتقن حفظها».

ما إن ينطلق أودويرتس في حديثه حتّى لا يسَعه التوقّف. كان ألكسندر وليلي يُصغيان إليه مندهشَين مستمتعَين. طفقَ يشرح: «أظهر الناس دوماً عدائيّـة حيال الذباب. كان الإمبراطور كاليغولا يجد لذّة في قتله حين يراه مزعجاً حصانه. ودوميتيان، أحد مَن خلَفوه، كان يمضي بعد الظهر وهو يسحق الذباب بخنجره. والأطفال يحبّون أن يمسكوا بالذباب ليقتلعوا أجنحته... وأنتما أيضاً، أليس كذلك؟ فهل هم على خطأ؟ نسل الذباب، أي النَّغَف، يرقات رهيبة قادرة على التهام جثّة حصان بأسرع من أسد. وبما أنّ الذبابة تستطيع الذهاب أينما كان قبل أن تعود فتحطّ على جلدنا فهي تجلب لنا الطاعون والكوليرا أو السلّ. كما رأيتما! إنّها رسولة خطيرة للموت... أمّا أنا، فإني أراها رمز الحريّـة بالأحرى إذ لا أحد يستطيع ترويضها. نقترب منها فتطير هازئة من بَلادتنا، نطردها فتعود متلافيةً حِيَلَنا الدّفاعيّـة... لكن لنتفحّص عن كثب هيئة هذه الحشرة الخارقة للعادة».

وبحركة سريعة، أمسك أودويرتس ذبابة كانت على مقربة منه. كانت عيّنة جميلة من رتبة ذوات الجناحين بعيون كبيرة حمراء، وجناحين حريريّين، وأرجل مبرثنة. ثبّتها بدبّوس على لوح وضعه أمام الطفلين اللّذين ابتسما مندهشَين. ثمّ شهر سبابته بعصبيّـة نحو الحشرة المجمّدة مستعيداً نبرة العالِم قائلاً: «الرأس... الصدر... البطن...»

لم تكن دروس الرياضيّات تروق لليلي. لا تكاد تنصرف إلى تدوين بعض المعادلات بجدٍّ حتّى يكون ألكسندر قد فهم كلّ شيء عنها. كان الصبيّ موهوباً في الحساب لدرجة أثارت إعجاب الفلمنكيّ [41] نفسه. وحين بدأ يجادل الأستاذ

بشأن «حلزون باسكال» أو «الدّحروج الدّاخليّ» [42] ذي النقاط الثلاثة القرِنة، شعرت بالضياع التامّ. وإذا اعترضت كان أودويرتس يسمّي لها بمكرٍ عالماً ألمانيّاً يدعى موبيوس [43] وكان مختصّاً بالأعصاب على ما يبدو: «يمكن القول إنّ امرأة عالِمة بالرياضيّات لهي مخالفة للطبيعة، إن لم تكن خُنثى بمعنىً ما. النساء المتبحّرات والفنّانات جنس سافل. وإذا اكتسبت المرأة بعض المواهب غير تلك المتعلّقة بإدارة المنزل أو الأمومة فما ذلك إلّا بفعل طفرات مرَضيّـة». كانت هذه النكتة السمجة تُطَمئن ليلي وتثبت لها أنّ هنالك أموراً لا يفقه الأستاذ المميّز فيها شيئاً.

كان أودويرتس يهوى أكثر من أيّ شيء آخر المزج بين مواضيع الدروس. ذات مرة بعد ظهيرة غائمة صمّم على أن يدفعهما لتذوّق المسرح الإليزابيثيّ فقال: «على أيّ حال، ليس شكسبير من كتب هذه المسرحيّات». ثمّ أضاف رافعاً كتفيه: «إنّه الفيلسوف فرنسيس بيكون. وقد اكتشف الخدعة للتوّ عالم الرياضيّات جورج كانتور... الذي أثبت أيضاً أنّ يوسف الرامي هو والد يسوع المسيح». حينئذٍ ضحك الطفلان لهذا التجديف الهائل. غداً يجول في أرجاء الجمعيّـة وتردّده جميع الراهبات ساخطات.

ولكن كان يكفي أن يتعلّق الحديث بالرياضيّات لكي يصيخ ألكسندر السّمع: «عالِم رياضيّات يهتمّ بشكسبير؟!»، وعلى الفور حلّق الدرس إلى فضاءات علم الجبر. قال أودويرتس: «كانتور أحد أكبر علماء الرياضيات في زماننا، ونظريّته عن المجاميع تجعل من اللّانهائيّ، ذاك الامتياز الإلهيّ، موضوعاً رياضيّاً حقيقيّاً».

بدا هذا الأمر لليلي من الغرابة بحيث أثار فيها شرارة اهتمام. طلب ألكسندر من الفلمنكيّ أن يزوّده بنصوص كانتور هذا. ومع ليلي التي سرعان

ما انسحبت انغمس ألكسندر في دراسة الأعمال الكاملة عن نظريّـة اللّانهائيّ وهي مزيج من اللّاهوت ونظريّـة الأعداد حيث كان كانتور يذكّر بشكسبير وبيكون ليعود من بَعدُ للكلام عن الله واللّانهائيّ. لم يكن صعباً على ليلي أن تفهم لماذا أُدخِل كانتور عدّة مرات إلى المصحّ كما أخبرهم أودويرتس. على أيّ حال بالنسبة إليها كان جميع علماء الرياضيّات مجانين لأنّهم كانوا يكرّسون حياتهم لحسابات مثيرة للاشمئزاز. كان أودويرتس يخلط الأمور من جديد: «حتّى ذلك الحين، كان اللّانهائيّ يُعتبر عصيّاً على المعرفة البشريّـة. ولكن بفضل كانتور، بات بالإمكان مقاربته ومن ثَمّ مصالحة الإيمان والعقل. الحساب يقترب من الله». من هنا كان يستشفّ بوتقة عظيمة تردم الهوّة التي كانت تفصل الدّين عن العلم.

أصرّ ألكسندر على قراءة نصوص أخرى لكانتور. خلف الجنون الظاهريّ شعر بجمال نظريّـة المجاميع. «قلت إنّها جميلة!»، زعقت ليلي رغماً عنها. اعترف الفتى بأناة أنّه لم يكن يفهم كلّ شيء، ولكنْ شرح لها أنّ هذا الألمانيّ قد برهن وجود عدّة أنماط من اللّانهائيّ. ذهب إلى اللّوح وكتب سلاسل من الرموز وهو يضغط على الطبشورة، لكنّ ليلي لم تفهم منها شيئاً. كان أودويرتس يهزّ رأسه موافقاً وهو يراقب الحسابات. استلزمه الأمر وقتاً لكي يستوعبها. في الرياضيات تفوّق التلميذ على أستاذه. أمّا ليلي فكانت متجهّمة، لأنّ لانهاية واحدة تكفيها، لا بل تجدها أكثر من كافية لأنّها لم تكن تنتهي. النتيجة الوحيدة المهمّة بالنسبة إليها هي أنّ رمزاً وحيداً يلخّص كلّ ملل الرياضيّات، رمز ℵ الذي كان يشير وفقاً لألكسندر إلى عدد عناصر المجاميع اللّانهائيّـة. وعند هذه النقطة عدلت عن الفهم.

بعد مثل هذه الدروس كان صعباً على ليلي أن تستأنف عملها في العناية بالمرضى، فيما ألكسندر المحظوظ يستطيع الذهاب ليرتاح في جناحه.

سُمح لألكسندر بأن يتجوّل حيثما شاء في أجنحة «عمل الشمال» شرط أن يكون حذراً. ولفرط ما استكشف هذه الأمكنة الكئيبة بات يعرف كل زاوية فيها. اعتاد وليلي أن يلتقيا مساء في العليّة التابعة لجناح النزيلات بعد ساعتين من صلاة النوم. هناك، كانا يجلسان على الأرضيّة أمام الزجاج المتّسخ لنافذة نصف مقوّسة يُرى عبرها الدير والحديقة الصغيرة للأعشاب الطبيّة المزروعة بناءً على نصائح أودويرتس، ويتحدّثان بصوتٍ خافت عن نهارهما والأحداث البسيطة لحياة الراهبات وخصومات الفتيات وتصرّفات الأب دوفال الغريبة.

كانت ليلي تحبّ كثيراً الفتى الذي يتحدّث برقّة ونظرته الرصينة التي تميّز الأطفال الذين كبروا وحيدين. كان يكبرها بثلاث سنوات، كامد السحنة متموّج الشعر. كان يظنّ نفسه يتيماً، وأنّ الرئيسة التي كان يدعوها العمّة أديل آوته بدافع الإحسان. لم تقل له ليلي شيئاً عن الشائعات التي كانت تسري بخصوصه. اختبرت بنفسها أنّه ليس أمراً حسناً أن يعلم المرء الكثير عن والدته. عاش ألكسندر دوماً في مبانٍ دينيّة قاتمة وكان يحلم بالأسفار البعيدة، بجولة بحريّة حول العالم وباستراحات في الجزر أسوة بذاك الرسّام غوغان الذي كانت أديل تصفه بالكافر والمعربد. كانت ليلي أكثر دعة منه، تحنّ إلى البيت الذي عاشت فيه عند تخوم الغابة، وإلى سحر النزهات في ظلّ الأشجار العالية التي تهدهدها الريح. كانت تجمعهما الرغبة نفسها لمغادرة «عمل الشمال».

كان محتّماً أن يقع ألكسندر في غرام ليلي. لا أحد يمكن أن يلومه على ذلك. غدت ليلي فتاة في غاية الجمال بشعرها الأشقر ذي الصهبة الخفيفة، المنسدل على كتفيها حلقات طويلة، ووجهها بعينيه الواسعتين الداكنتين الحالمتين اللّتين تبدوان وكأنّهما تنظران أبعد من المخاطب فيما تنتبهان لأدقّ

تفاصيل تعابيره. في سنّ الرابعة عشرة، كانت قامتها الرشيقة ومشيتها الحرّة تمنحانها إغواء تلقائيّاً، وحسناً ساذجاً كان يثير إعجاب المرضى الذي أُدخلوا مستشفى الجمعيّـة. ومن ثمّ كان لديها هذا الصوت الذي تعرف كيف تجعله عذباً وحنوناً ومرحاً أو قاطعاً كالسيف الحادّ، والذي كان يتجلّى سحره في الغناء. ومع بلوغها سنّ المراهقة أصبحت نبرته أكثر انخفاضاً واتّخذ نغمات شهوانيّـة بديعة في تباينها.

في اللّيل، في العلـيّـة، وأيضاً أثناء الدروس، لم يكن ألكسندر يملّ من تأمّل ليلي وسماعها ويبقى أحياناً مشدوهاً ناظراً بإعجاب إلى جانب وجهها أو رشاقة عنقها، وإلى جلدها الحليبيّ متشرّباً الضوء، وصدرها متموّجاً بنعومة تحت قميصها. لم يكن الفتى ثرثاراً أصلاً ولكنّ لحظات صمته باتت أطول لا بل مزعجة حتّى حين يجتمعان، فيتعجّب من وجوده هنا على مسافة متر أو أقلّ من فتاة بهذه الجاذبيّـة.

وها قد بدأت تدرك منذ فترة حقيقة الأمر. هي التي كانت تعتبر ألكسندر بمثابة أخ أخذت ترى فعلاً أنّه يريد تغيير منزلته. وجدت قصّة هذه الأخوّة بينهما مريحة للغاية، وإن كانت وهماً، ولم تكن راغبة في التخلّي عنها في الحال. ومن ثمّ إذا كان يريد أن يروق لها فثمّة جهود يترتّب عليه القيام بها. اللّحظات الوحيدة التي يتحدّث إليها بثقة كانت تلك التي يشرح لها فيها المبرهنات. وعندئذٍ كانت تقترب منه، هي الماكرة، لتلامس خدّه وتطبع عليه قبلة، أو تضع يده على يدها، أو تداعب ذراعه، وإذ ذاك تتحقّق من تأثيرها عليه. وكان عظيماً. كان الصبيّ الذي في طور البلوغ يحمرّ خجلاً ويضطرب لدرجة لا يعود يستطيع معها النطق إلّا متلعثماً بكلام متنافر غبيّ بعض الشيء! كانت ليلي تصطنع التهاون وتتركه لارتباكه. كان يشتهيها وربّما يحبّها ولم تكن تعارض. قرّرت ببساطة أن تتركه ينتظر.

ذات يوم صيفيّ شديد القيظ، أحضر أودويرتس مجهره، الأداة الأكثر إتقاناً آنذاك، وكان اشتراه في يينا، لدى كارل تسايس [44].

قال: «يصادف اليوم 10 يوليو... اليوم الذي تغيّر فيه العالم بفضل أنطوني فان لوفنهوك [45]...».

تبادل ألكسندر وليلي النظرات. لم يسمعا من قبل بمثل هذا الاسم الغريب.

- في العام 1676 في هولندا، نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، اكتشف لوفنهوك أكبر قارّة مأهولة، والأكثر إدهاشاً لناحية تنوّع سكّانها المتوحّشين غالباً والذين نحتكّ بهم في كلّ يوم مع ذلك.

- عن أيّ قارة تتحدّث يا سيّدي؟ سأل ألكسندر وقلّما كان يحبّ الجغرافيا.

- عن أكبر قارّة، تلك التي لا توجد على أيّ خارطة: قارة الحيوانات المجهريّـة كما كانت تسمّى آنذاك... قبل 10 يوليو 1676، كان العالم يسكنه مليار إنسان، ولنقل مليار حيوان. بعد هذا التاريخ تبيّن أنّه تسكنه مليارات من الكائنات الحيّـة، عدد لا يحصى! اسمعا! السيّد لوفنهوك روى ما رآه في ذلك اليوم». فتّش أودويرتس في جيبه، وأخرج ورقة مدعوكة ثمّ بسطها وأخذ يقرأ:

«حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر، رأيت ديداناً صغيرة تتشابك وتتلوّى بالضبط كما يفعل الأنقليس وسطَ الخلّ. كان المشهد الأكثر روعة بين عجائب الطبيعة وعليّ أن أضيف أنّه لم يسبق لي أن شعرت بمتعة أكبر من رؤية عدّة آلاف من المخلوقات تنتقل فيما بينها في قطرة ماء صغيرة وكلّ واحد منها يتحرّك من تلقاء ذاته. وإذا أضفت أنّ هناك مائة ألف حيوان مجهريّ في قطرة منتزعة من صفحة الماء فلست مخطئاً».

وأضاف أودويرتس واضعاً من جديد الورقة على الطاولة: «تصوّرا أنّ قطعة من جير الأسنان بحجم حبّة رمل تحوي من الديدان أكثر من عدد سكّان هولندا آنذاك! هذه الكائنات الصغيرة غزت كلّ شيء متكاثرة في أقلّ قطرة ماء، وفي أصغر ذرّة غبار، وكان عالِمنا الهولنديّ أوّل من لاحظ وجود هذه الحيوانات التي بقيت غير مرئيّة حتّى ذلك الوقت».

كانت ليلي مفتونة بما يقوله أودويرتس فبسطت مرفقيها على الطاولة لتُحْسن الإصغاء، الأمر الذي أزعج ألكسندر وأرغمه على الابتعاد.

«نعرف حاليّاً أنّ هذه الكائنات المتولّدة المجهريّة تفوق بعددها جميع الأنواع الحيّة بدءاً من النملة وانتهاء بالحوت. إنّهم السكّان الحقيقيّون للأرض. جميع الحيوانات الأخرى، ومن بينها الإنسان، ليسوا إلّا أطيافاً كبيرة بعض الشيء متأقلمة تأقلماً سيّئاً مع هذا الكوكب، أشبه بعمالقة مغرورين...».

في المجهر، جعل أودويرتس الطفلين يكتشفان جراثيم المياه، واللّعاب، والدموع، وجير الأسنان، وأيضاً عيّنات من دماء قوارض مختلفة وأرانب مصابة بأمراضٍ شتّى. كان يبسطها على شرائح ثمّ يضعها تحت عدسة المجهر، ثمّ يعدّل اللّولب المسنّن ويترك لهما أن يراقبا العالم اللّامرئيّ الذي كان يتوالى على مساحة تزيد قليلاً على رأس دبّوس. شعر ألكسندر باشمئزازٍ

مبهم. أمّا ليلي فكانت مندهشة من هذا التوسّع المدهش للحياة متغافلة عن الحشرات التي كانت تعدّ عملاقة بالقياس إلى هذه الكائنات.

يوم الأحد بعد الظهر سُمِحَ لها بالذهاب إلى منزل أودويرتس في المدينة العليا. كانت في كلّ مرّة تجتاز البوّابة الحجرية، بعد الطلعة القاسية التي تؤلم ركبتيها، تفكّر في ما ينتظرها من اكتشافات لدى الأستاذ الفلمنكيّ، وكانت الحقيقة نفسها تفرض نفسها عليها: إنّ الجراثيم، بعددها الذي يفوق الوصف وقدرتها على التكاثر في كلّ مكان، لَتَحْكُم العالم.

جلست على الحافة تلتقط أنفاسها. نظرت هنيهة إلى المنازل المجاورة ثمّ تلاشى كلّ شيء في ضباب الوجود المستتر. كانت الأغبرة والأبخرة الوخيمة في الهواء النقيّ ظاهريّاً تحتضن ملايين الكائنات المجهريّـة التي يحمل الذباب والبعوض الآلاف منها وينقلها إلى الحيوانات عند لدغها. كان الماء الأصفى حُسوةً [46] تسبح فيها العصيّات بكميّـة لا تصدّق. كانت الشوارع ملوثّة بقاذورات تعجّ فيها ديدان غير مرئيّـة. الاتّجار بالخرق القديمة ينشر البكتيريا تماماً كالأرضيّات والسجّاد والأرصفة المشبعة بالجراثيم التي تلتصق بِنعال الناس. وفي كلّ مكان من المنازل كان الغبار معشّشاً وأدوات المائدة ملوّثة. الحيوانات والبشر كانوا خلايا حقيقية للجراثيم المنتشرة حسبَ مواعيد النزهات واللّقاءات. الطبيب الذي يعتني بجريح أو يساعد في الولادة كانت يداه مليئتين بالجراثيم. أدوات الجراحة، المغسولة بمياه ملوّثة والضمادات والألبسة الطبيّـة لا تقلّ وسخاً عن سجّادة إذ لا أحد تقريباً كان يهتمّ بالكائنات المجهريّـة التي اجتاحتها. صديقان يتصافحان أو يشربان في الكوب نفسه يتبادلان من الجراثيم أكثر ممّا يوجد سكّان في منطقة البيكاردي بأكملها. رمل

الدروب وغبارها مسمّمان بملايين الحيوانات الدقيقة. في الحقول، الخضار ملوّثة بأكثر الأسمدة رفعة، السّماد البشريّ الموبوء بالجراثيم. ما من أحد يستطيع أن يفلت من هذا الاجتياح، لا الفلّاح الذي يحرث الأرض، ولا البورجوازيّ في داره، ولا المتسوّل الجالس على الرصيف، ولا حتّى رئيس الجمهوريّـة في قصره. كانوا جميعهم، حتّى في المواضع الأكثر حميميّـة من أجسامهم، مهاجمين دون هدنة ولا انقطاع بجحفلٍ من الكائنات اللّامرئيّـة التي تعيش على جلدهم، وفي أنوفهم، وأمعائهم، وتسبح في لعابهم ودمهم. كان أودويرتس محقّاً في قوله إنّ الإنسان مارد بقدمين من صلصال وكذلك جميع الأنواع الحيّـة، من الحوت إلى أصغر الحشرات. لأنّه في الجانب الآخر من جماهير الحيوانات المرئيّـة، ذاك النادي الصغير المحدود، تبدأ مملكة مليارات الكائنات المذهلة في صغرها، والتي تحتلّ بلا هوادة أدنى جزيء في العالم.

كان الضباب يتلاشى حين نهضت من جديد لتشاهد مرّة أخرى المنازل المحيطة بها، وتصغي إلى أصوات المارّة في الشارع، وكلّ ضوضاء أنشطة المدينة. ولكن خلف هذه الحياة الأليفة والبسيطة في الواقع يمتدّ عالم لا حدود له؛ ولا أحد كان يعرف إلى أيّ مدى بإمكانه المضيّ إن بدأ في استكشاف غابة المتناهيات في الصغر التي لا تُخترَق. إنّ غوصاً في اللّانهائي ينتظرها تحت المجهر.

كان أودويرتس يقول: «ليس الإنسان محور العالم، بالطبع لا. إنّها الكائنات الغامضة التي تتكاثر في كلّ مكان على هذه الأرض وكانت هنا منذ الأزل قبل ظهور البشريّـة، وستبقى حتّى انطفاء الشمس».

في إحدى أمسيات يوليو، وإذ كان ألكسندر وليلي يلتقيان في مكانهما المعهود، في العلـيّـة، وضعت ليلي على الأرضية صرّة من القماش أخرجت منها غطاء من الصوف البنيّ أخذته من خزانة المهجع وملاءة ورديّـة اللّون، وهي الملاءة الوحيدة بهذا اللّون في المستشفى كلّه. توجّب عليها إظهار الكثير من البراعة لتحوزها. وقف ألكسندر منحنياً لكيلا يصطدم بالسقف وأخذ ينظر إليها ترتّب كل ذلك مكتوف اليدين دون أن يفهم شيئاً ممّا يجري. تمدّدت ليلي على الملاءة وقالت له: «تعال!» استلقى قربها برعونة وقد بدا عليه القلق دون أن ينتبه إلى أنّه سحق كعكة الرمليّـة [47] التي انزلقت تحت الغطاء. منذ وقت طويل وهي تتبادل القبل مع ألكسندر، ولدى ممارسة هذه اللّعبة كانت رغبة الصبيّ تحتدم مطالباً بالمزيد. قرّرت أنّه حان الوقت لتمنحه ذلك. قبّلته طويلاً وهي تداعب شعره. كان قد أكل تحلية لتوّه وكان طعم فمه غير مستحبّ كثيراً، مزيجاً من الرمليّـة والسكّر لكنّها لم تكن تأبه آنذاك. لا شكّ أنّ الراهبات، جميعهنّ، كنّ لا يتوقفن عن تحذير النزيلات من خطايا الجسد ويفهمنهنّ أنْ لا إغواء يضاهي إغواءها ولا أعذب منه ضلالاً. لم تكن تريد إلّا تصديقها وعصيانهنّ.

بالنسبة إلى ليلي، لم يكن الامر ممتعاً كثيراً ولا طويلاً بشكلٍ كافٍ لأنّ ألكسندر كان انفعاليّاً. ثمّ إنّ أودويرتس كان يأتي ليفسد عليها حتّى اللّحظات الأكثر حميميّـة؛ تذكّرت ما أخبرها إيّاه عن العشّاق: «لو رأى روميو بشرة جولييت علـى حقيقتها مكسوّة بطفيليّات صغيرة تتغذّى من بقايا الجلد الميّت، فهل تعتقدين أنّه كان سيقع في الغرام؟ لا نرى إلّا أوهاماً وفيض الواقع

يتجاوزنا». لم تكن لديها مقوّمات جولييت، وحين باشرَها ألكسندر، شعرت بقليل من الألم يرافقه شعور حائر يشبه لذّة خفيفة...

مستلقياً قربها، وفتات الرمليّـة ملتصق بخاصرته، بدا ألكسندر شديد الامتنان، لكأنّه يقول في نفسه: «ها قد تمّ الأمر!» شاعراً بفخر الفحل الصغير الذي انضوى إلى عالم جديد. داعبت خدَّه مبتسمة متجمّلة بالصبر. بدا لوهلة مصمّماً على المعاودة ولكنّها كانت منشغلة بأشياء أخرى وانصرفت مبتسمة حاملةً معها صرّة الأقمشة.

ذات ليلة كانت ليلي تعود إلى المهجع على رؤوس أصابعها بعد أن أمضت بضع ساعات مع ألكسندر. التقت ماري أوفرازي التي كانت معتادة على التنزّه في الدير لأنّ الأرق كان يغالبها. رأت الأختُ وهي تنزل الدرج ظلّاً ينسلّ إلى يمينها مندفعاً نحو الحديقة. أرادت أن تلتفت فتجاوزت درجة وتدحرجت على الدرج وبدأت بالصراخ. كانت ليلي قد ابتعدت وفيما أوشكت على التواري خلف الباب، إذ بذراع تطوّق صدرها وتوقفها في مسعاها. عبثاً حاولت أن تتحرّر من قبضتها. جذبها الأب دوفال إليه وهو يمسكها بقوّة من ذراعها قائلاً لها: » ليلي! ما فعلتِه مزحة سيّئة!«. وافتهما الأخت ماري أوفرازي وهي تعرج، فمها ممتلىء دماً وعيناها المجرّدتان من الأهداب متورّمتان من البكاء. «هذه أنت أيّتها الأفعى الصغيرة القذرة!» همّت بصفعها إلّا أنّ الأب دوفال تدخّل لمنعها. مال صوب ليلي وهو يرفع سبّابته مهدّداً: «عودي للنوم. غداً نتكلّم عن كلّ هذا...».

في اليوم التالي، توجّب على ليلي أن تشرح موقفها أمام الأمّ الرئيسة والأب دوفال. أرادت أن تتنزّه في الحديقة لأنّ النوم جافاها. حين لمحت الأخت ماري أوفرازي أصيبت بالذعر وأسفت كثيراً لأنّها تسبّبت في سقوط هذه

الراهبة التي تحبّها حبّاً ورعاً. لم يصدّق الحَكَمان كلمة ممّا قالته لكنّهما لم يحاولا معرفة المزيد. عوقبت. وبقسوة.

ليبس نوتردام [48]، 1907

في تلك الساعة المتأخّرة من اللّيل، في الكنيسة المقفرة، كان ألكسي كافيل، راعي بازيليكة [49] ليبس نوتردام، وكاهن لان القانونيّ [50] جالساً أمام المذبح حيث تتربّع العذراء السوداء، تمثال صغير لمريم المتوّجة تضمّ ابنها إلى صدرها وكان يُقال إنّ الصليبيّين أحضروه من الشرق. وإكراماً لهذه الأيقونة التي أشيع عنها أنّها عجائبيّـة كان يترتّب على كافيل تنظيم الاستقبال السنويّ للمرضى الذين يتوافدون إلى القرية، على اختلافهم، راجين الشفاء. لم يرَ كافيل أيّ معجزة تحدث إبّان هذا الحجّ، ربّما حصل فقط تحسّن لم يتمّ التأكّد منه إلّا فيما ندر في أحوال المرضى، ولكنّه لم يكن موجوداً هناك للتحقّق من هذه النتائج. كانت مهمّة التنظيم شاقّة للغاية، وكان عليه خصوصاً أن يتعامل بلطفٍ مع تلك الجماهير من الحجّاج المتعبين. رفع نظره إلى العذراء متسائلاً: كيف بالإمكان تصديق أنّ صلاة موجّهة لهذا التمثال الصغير من الحجر الأسود يمكن أن يكون لها تأثيرٌ ما؟ على مرّ السنوات كانت دهشته تزداد حيال هذه السذاجة التي نعلي من شأنها وندعوها إيماناً. على أيّ حال نِعْمَ الأمر إنْ راجَ الإيمان، فهو لم يكن يملك الشجاعة للبدء بمهنة جديدة. أمّا بالنسبة إلى خلاصه هو بالذات فكان يصدف له مراراً أن يفكّر بالحياة الأبديّـة ولكن من دون حماس. إذا كان خالق العالم الآخر هو نفسه من صنع هذا العالم فهذا كان جديراً بإثارة شكوك جديّـة لديه.

كان كافيل يعرف كلّ تفصيل في التمثال: التاج المذهّب الذي يعلوه الصليب، الوشاح الأبيض المطرّز بالذهب، الطفل الفاتح ذراعيه داعياً المؤمنين إليه. بَيْدَ أنّه في ذلك المساء، تراءى له، وهو يتفحّص وجه العذراء مريم، أنّه لمح ابتسامة على محيّاها. فهل كانت انعكاساً للشرارة المتحرّكة للشموع؟ كانت العذراء وكأنّها تراقبه بنظرة مرحة تشوبها السّخرية. ذكّرته بالجوكوندا، بحركة شفتيها التي لا يمكن فهمها. قال في نفسه باحتقار: لها أن تبتسم قدر ما تشاء، فالعالم كان مهزلة، ولم يكن هو مهرّجاً بأقلّ من الآخرين.

بعد سنوات من العذاب استعاد الحظوة لدى أسقفيّـة سواسون. وها إنّه منذ أسبوع خلال اجتماع لكهنة الرعيّـة وفي مأدبة على الغداء وبحضور أكثر من مائتي مدعوّ طُلِبَ منه الكلام في موضوع من اختياره عنوانه: «خلّصْنا من الشرّ». صرّح كثير من المشاركين بأنّه كان أهلاً لهذه المناسبة. ترتّب عليه أن يبذل أقصى جهده ليخرج من المأزق الكبير الذي زُجَّ فيه وتلميع صورته مجدّداً.

منذ تسع سنوات كلّفته غالياً قضية الطفلة المفقودة تلك، ليليت، التي لم يُعثر عليها قطّ. ما برح يتذكّر تلك الصبيحة في مقرّ فرسان الهيكل في لان، حين أتى للقاء المفوّض رينو في الكنيسة التي فُتح بابها عنوة في اللّيل. حوالى منتصف اللّيل، سمع المارّة أناساً يرتّلون في المصلّى وشوهدت أنوار تنبعث من النوافذ الضيّقة في ساعة لا يفترض أن يوجد فيها هناك أحدٌ. لم يجرؤ الشهود على الاقتراب، وبقيت أقوالهم غامضة، ولكن في نظر الأسقفيّـة كما في نظر كافيل، كانت القضية من الوضوح والخطورة الى درجة تستوجب التستّر عليها.

على عتبة مقرّ فرسان الهيكل، وفيما كان كافيل يستعدّ للدخول أوقفته المرضعة سيدوني لومير قائلة إنّها مريضة وقد أتت لتعيد إليه الطفلة التي كان

أوصاها بها: ليليت... وأيّ اسم! لم يعد يفهم حقّاً ما الذي دهاه فأعطى المولودة مثل هذا الاسم الغريب. كان يمرّ بوقت عصيب آنذاك، وقد تجاوزته الأحداث. آواها لأنّ والدتها توفيت وهي تلدها ولم يكن لديها أيّ قريب، لكنّه سرعان ما فكّر فقط بالتخلّص منها.

كانت سيدوني تأتي في وقت غير مناسب فهو منشغل بهموم أخرى. اقترح عليها زيادة أجرها لكنّها لم تعد في ريعان الصبا. كانت على عتبة السادسة والعشرين من عمرها، وكانت منهكة ومستعجلة للعودة إلى منزلها، ومن دون الطفلة التي تنام بهدوء فـي سلّتها... نفد صبر الكاهن ولم يتمكّن من إقناعها بالعدول عن موقفها. ثمّ أمرها بلهجة قاسية بأن تنتظره ريثما يحسم أموره مع المفوّض رينو، ودخل إلى المصلّى. حين عاد بعد بضع دقائق أدرك أنّ سيدوني انصرفت واضعةً الرضيعة في سلّتها عند مدخل الكنيسة.

في محراب الكنيسة كان مفوّض الشرطة يرافقه رقيب من المدينة وحارس مقرّ فرسان الهيكل يتفحّصون آثار الفوضى الغريبة في هذه الأمكنة المخصّصة لإحدى أقدس الأخويّات في العالم المسيحيّ. كانت الشموع الذائبة كليّاً تخلّف بقعاً رماديّـة لامعة على البلاط، والأوراق المسودّة للنباتات المحترقة نصفها منثورة، وخلف المذبح بِركة من سائل لزج منبسطة على صورة حيوان رباعيّ القوائم. وكانت رائحة كريهة يمتزج فيها البخور مع عطور أخرى أكثر نفاذاً تطوف في الهواء.

في آخر المصلّى، نبّهتهم صرخات حادّة إلى أنّ الطفلة استيقظت للتوّ. كان جليّاً أنّ رينو الذي يدعوه جميع الناس في المدينة الأب «بلوفيوز» [51]، على سبيل التهكّم، منزعج من وجوده هناك. توجّب على عميد مجلس الكهنة في لان أن يلحّ عليه في الطلب لكي يتعطّف ويوافق على المجيء. في المدينة

العليا، لا أحد كان يجهل أنّ مفوّض الشرطة متذوّق فنٍّ مولع بالرسم ولم يكن يطيق أن يقطع عليه أحدٌ إلهامه والأوقات التي يخلد فيها للراحة سعياً إلى استعادته، وخصوصاً بداعي الاهتمامات السخيفة كمثل الحفاظ على النظام العام. كان يعهد بذلك إلى رجاله وبالحزم التامّ الذي يميّز الموظّف الذي لا يمكن عزله. وإذا كان ثمة ما يجب الحفاظ عليه في المدينة التي كانت تُسئمه منذ أعوام فهو بالطبع نظامه الخاص.

قال لكافيل بنبرة حادّة: «ليس هناك ما يمكن سرقته. لا بدّ أنّ أشراراً أرادوا الاختباء هنا ليلاً. أو أنّنا نواجه بعض المعاتيه، كما تعرف، الذين يمارسون طقوساً تدنيسيّـة...».

ثمّ رفع صوته ليغطّي صرخات الطفلة: «ما رأيك يا أبتِ؟»

امتنع الكاهن عن الإجابة وهو عارف تماماً ما يقصده المفوّض. منذ بضعة أيّام علمت الأسقفيّـة بوصول الأب فيكتور دوفال إلى لان. كان دوفال تلميذ أوجين فنترا والأب بولان [52] وهما أستاذان شيطانيّان في نهاية القرن الماضي. كان يشتبه بأنّ دوفال بات متخصّصاً في ذاك الطقس الآتي من الأزمنة السحيقة الذي لم يكن يستطيع الكاهن لفظ اسمه دون قشعريرة خوف يشوبها الفضول: «القدّاس الأسود».

لم يكن كافيل يؤمن فعلاً بهذا الدّجل القروسطيّ. قبل ذلك بسنوات، كان سيصرخ منادياً على الكافر بالحرمان الكنسيّ رغم اعتقاده أنّ هذه الممارسة مجرّد تصرّفات صبيانيّـة. لكنّه أضحى أقلّ سذاجة من ذي قبل. رأى لزاماً عليه أن يعتبر أنّ هذه الحقبة شبيهة بكلّ الحقبات الأخرى حيث كان الكثير من الناس يؤمنون بالخالق، وكثيرون كانوا جاحدين له، ولكن لا أحد كان

ليعارض أنّ الشيطان كان في الواقع هو من يقود العالم. إنّ تجربته من خلال كرسيّ الاعتراف وكذلك مراقبته للمجتمع أقنعتاه بذلك. كان كلّ شيء يخصّ الإنسان يلتمع ببريق شرّير، وكان غير قادر على اعتبار نفسه براءً منه. ولكن ما بدا له فعلاً مثيراً للغرابة هو أنّ الشيطان كان يبقى مصرّاً على التواري. وكان انتصاره ساحقاً بحيث لم يعد يحتاج معه للظهور. كان هناك الآلاف من الكنائس والمعابد وأنصاب الصلبان، ولكن عمليّاً لم يكن هناك شيء يساعد على مقاربة الجانب القاتم من العالَم. وفكّر كافيل: ربّما كان دوفال وأقرانه قد شقّوا طريقاً لهم، طريقاً جائراً، مشوّشاً، و«لكنّه يبقى طريقاً ما»...

أوشكت صرخات ليليت أن توقظ الموتى المدفونين تحت بلاط كنيسة الفرسان، وقد أخرجته من شروده. حدج الشرطيّ الذي كان ينتظر جوابه وهو يحكّ الثؤلول النابت في ذقنه. أمر واحد كان أكيداً: لن يذكر قضية دوفال أمام رينو (الذي كان ربّما مثله على دراية تامّة بالموضوع) ولن يجازف بإثارة فضيحة يمكنها أن تطال الكنيسة.

كان مرجّحاً أن يكون الأب دوفال قد تحضّر في اللّيل للرِّجس راغباً في أن يتحوّل كاهن الله إلى كاهن الشيطان، واحتفل بالقدّاس التدنيسيّ حيث الكاهن ينتزع أبواب الجحيم بدلاً من أن يفتح أبواب السماء. ربّما ساعده في ذلك تيودور لو فران، وهو من أسياد الضِّياع كان يدّعي معرفة الغيب، ويدفعه هوسه إلى حدّ المطالبة بأن يُطلق عليه اسمه التلقينيّ «ليزيار دو كريسي». وبالرغم من أنّ كافيل يعرف ما جرى فهو لن يفصح عن أيّ شيء للشّرطة. كان يكفي البقاء عند هذا الحدّ وترك الأمر لمفوّض الشرطة الذي كان شغفه إيقاف البحث في القضايا لصون طمأنينته. عمّا قريب ينتهي التحقيق ويمكن للكنيسة أن تهتمّ خفيةً بقضيّـة الأب دوفال. على أيّ حال كان كافيل مستعدّاً للقيام بدور الوسيط رغم خطورة الموقف.

كان كافيل وقد أتمّ الستّين يعرف أهوال العمر والإحباط. قدّم للكنيسة خدمات جمّة وقد سمحت لابن المؤاكِر الذي كانه بالارتقاء الاجتماعيّ الباهر، لكنّ تتويج مساره المهنيّ بترسيمه أسقُفاً لا يني يفرّ من يده. غالباً ما كان يتساءل ما الذي ينقصه للوصول إليه. بذهنه البراغماتيّ والفضوليّ، بدأ يهتمّ بالمتمرّد الأكبر الذي كان يُخضع البشريّـة بهدوء تامّ، الأمير المتكتّم الذي لا حدود لمكره والذي يتودّد إليه الضالّون مثل الأب دوفال، ذاك الكاهن الذي يحيّره انحرافه عن رسالته المقدّسة ليستقرّ وسط قوى الشرّ. فهل كان يخرج بفائدة ما من هذا الانحراف؟ هل في مقدورنا فعلاً أن نكسب ودّ الشيطان؟ كان يدرك أنّ هذه كانت بدعة محفوفة بالمخاطر بالنسبة إلى كاهن قانونيّ.

وأخيراً قال: «إنّ قانون لان الكنسيّ يثق بكَ ثقة كاملة يا سيّدي المفوّض وبقدرتك على إجلاء ظروف هذه القضيّـة المؤسفة. مهما يكن الأمر، يبدو لي بديهيّاً أنّه لم يرتكب أيّ فعل شائن وأنّ تنظيفاً سريعاً للمكان وإزالة بعض الأضرار -وهنا التفت كافيل إلى الحارس الذي كان يستمع إليهما مذهولاً، حاملاً قبّعته في يده- كافٍ ليعيد إلى هذا المكان المقدّس الهدوء الذي لا يفترض به أن يفقده أبداً».

ثمّ صمتَ راضياً عن كلامه. بدا له أنّ لختام حديثه وقعاً مهيباً غير مألوف. وفجأة تحرّى المكان بسرعة، شعر أنّ شيئاً ما تغيّر في ظلمة الكنيسة، أشبه بتحوّل كان يشعر به دون أن يفهمه. رفع نظره نحو حمل الفصح الذي كان يزيّن حجر العقد ثمّ التفت إلى البوّابة الكبيرة. كان هذا ما تغيّر: لقد توقّف صراخ الطفلة واستعاد مقرّ فرسان الهيكل هدوءه. كلّ كلمة من كلماتهم باتت تُسمع بوضوح تحت السقف الحجريّ. تقدّم إلى الزاوية التي وضعت فيها المربّيةُ الطفلةَ وقلبه يخفق. اختفت ليليت.

لم يُعثَر عليها مجدّداً. حاول تسوية القضيّـة على وجه السرعة. كان هناك فتاة فقيرة تأتي للاعتراف عنده في رعيّته في ليبس، وهذا طلباً للدفء أكثر من أيّ شيء آخر -وكان لا يطيق رائحتها- وقد وَلدت للتوّ. فجعل كافيل الطفل غير المرغوب فيه يبدو وكأنّه ليليت. كان الرضيع أسمر وليس أشقر مائلاً للصهبة كالصغيرة، ولكنّ أحداً لم ينظر إليه عن كثب عندما سلّمه لراهبات المحبّة. لسوء الحظّ ظهر مقالان في مجلّتَي «الإيمان البيكارديّ» و«أسبوع سواسون الدينيّ» أوحى بهما عدوّه اللّدود الأب روكان، وجرى التطرّق للحادثة مع تلميحات واضحة إليه. فعرف أنّ وقتاً يلزمه لجعل هذا الخطأ طيّ النسيان.

وهكذا، وبعد سنتين حين جاء الأب دوفال لرؤيته، كان كافيل محترساً منه. تفاجأ من أنّ زيارته لم تكن متعلّقة بالقدّاس الشيطانيّ. بدا الأب دوفال نادماً وكان يعتزم أن يؤسّس، بمعونة الأخت أديل آلام المسيح [53]، جمعيّـة تقويّـة للتعليم والاستشفاء تدعى «عمل الشمال»، وأن يكون هو مرشدها الروحيّ. جاء يطلب مساعدة الكاهن كافيل الذي كان لُدِغَ منه فتردّد في دعم المشروع، ثمّ رأى فيه وسيلة جيّدة لإحياء حلمه بالأسقفيّـة.

وبفضل دعمه في المديريّـة الرسوليّـة حصلت جمعيّـة عمل الشمال على إذن مؤقّت. تنازل لوفران الملقّب بليزيار دو كريسي عن صومعة كان يملكها في مدينة لان السفلى لإيواء الجمعيّـة وقدّم لها هبة لتجهيزها. لحسن الحظّ تأسّست جمعيّـة عمل الشمال في بداية عام 1901 بالضبط قُبيل قانون يوليو الآثم [54]. كان ذلك أوّل انتصار للكاهن كافيل. ثمّ في عام 1904 نجح في حماية الجمعيّـة من قانون كومب [55]، آلة الحرب تلك المعادية للكاثوليكيّـة. وعلى وجه السرعة عدّل مجموع الأنظمة ليحوّلها إلى جمعيّـة تعليميّـة حصراً.

وبطبيعة الحال لم يُطرَد المرضى والفقراء بقوّة السّلاح، ولكنّ أعضاء الرهبنة باتوا أكثر تحفّظاً. كما أنّ العمدة تيلمون، ورغم أنّه رجل منفتح ومن أنصار دريفوس [56]، قَبِلَ بأن يغضّ النظر.

أظهرت أسقفيّـة سواسون رضىً عميماً حيال مهارات كافيل القانونيّـة والدبلوماسيّـة التي أنقذت «عمل الشمال». في تلك الحقبة من اجتثاث المسيحية من الحياة العامة كانت الكنيسة بحاجة لكهنة متفانين مثله حسبما أشار النائب الأسقفيّ العامّ خلال زيارة له إلى لييس. بالطبع كان لدى جمعيّـة «عمل الشمال» ترخيص لمدّة عشر سنوات. فكّر كافيل متبجّحاً: «ولكن في غضون عشر سنوات، ربّما أنال ترقيتي إلى أسقف، لا بل إلى مطران أو ربّما كردينال، لمَ لا؟ لكن لا يجدر بنا المبالغة مع أنّ الأمر غير مستبعد أبداً». وبدأ يحلم من جديد برموز الرتبة الأسقفيّـة الثلاثة: التاج الأسقفيّ والعصا وخاتم الجمشيت، متقصيّاً من جديد الأخبار عن صحّة الأساقفة في باريس. وكان هذا ينسيه مسامير قدميه ومشاكل كبده. كان كلّ شيء يسير نحو الأفضل لو لم يقع الأب دوفال في مغبّة رذائله من جديد.

قبالته بدت العذراء السوداء مبتسمة حقّاً. حدّثته نفسه بالاقتراب منها للتحقّق من ذلك لكنّه تراجع لتعبه. تغضّن جبينه المحفوف بالشعرات القليلة التي كان يسرّحها إلى الخلف. عاود التفكير بما أخبره إيّاه للتوّ أحد زملائه القدامى في المدرسة الإكليريكيّـة: الفتى ألكسندر، اليتيم المزعوم الذي استقبلته الأخت أديل، ذاك الذي كان يعيش في أجنحة «عمل الشمال» كان في الواقع ثمرة الحبّ بين الرئيسة والأب دوفال. تسمّر الكاهن مشدوهاً حيال الخبر. عبثاً أقنعه صديقه بأنّ هذا كان سرّاً طيّ الكتمان الشديد، فقد شعر كافيل أنّ الأمر كان بمثابة عذاب جديد له. مسّد ذقنه. ولم ينخدع إطلاقاً بعلاقة

أديل والأب دوفال إلّا أنّ الاحتفاظ بهذا الطفل كان برهاناً فاضحاً على البغي الذي انغمسا فيه، وتهوّراً خطيراً، ولكن للأسف لم يكن الأخير في قائمة تطول.

كان كافيل مندهشاً ممّا يسمعه حين كان يأتي ليعرّف [57] راهبات الجمعيّـة. كان دوفال، بمعونة أديل، يبقي الأخوات في حالة توتّر لا تطاق، متسبّباً بالإرهاق لهؤلاء النسوة ذوات الأعصاب الهشّة. كان يدّعي معرفة الطب «التقليديّ» المتوارث من الكتابات المقدّسة، ما دفعه ليعالج الأخت غودول، وهي بيكارديّـة متينة البنية، بوضعه ضمادات من البول والبراز على التقرّحات التي كانت تشوّه ساقها. رافقت العلاج، الذي قدّم على أنّه شافٍ مأمون النتائج، الصلواتُ الملائمة، مع وضع القربان المكرّس على جبين المريضة وصدرها. وحين أضحت ساق غودول سوداء وبدأت وهي طريحة الفراش تطلق صرخات الألم مؤلّبةً كلّ سكّان الدّير، توجّب أخذها إلى المستشفى. وواجه كافيل هناك متاعب جمّة لتهدئة الأطبّاء الذين أرادوا تقديم شكوى للإبلاغ عن الممارسة غير القانونية للطبّ.

في الجمعيّـة لم يتأثّر نفوذ دوفال إطلاقاً. حين عادت غودول إلى الرهبنة، وهي تعرج عرجاً شديداً شاحبة الوجه مثل قربانة [58]، أمرتها الرئيسة بالصّمت فأذعنت.

داعب كافيل الثؤلول الضّخم في ذقنه. لم يكن صيت رهبنة عمل الشمال جيّداً، لا بل كان يزداد سوءاً. كانت الجمعيّـة تمثّل سبيل العفو عنه لكنّها باتت تهدّد بسقوطه مجدّداً.

حين أمعن النظر في العذراء بدت وكأنّها تبتسم لا بل كأنّها تسخر منه! عبسَ كافيل، لن تهزأ منه طويلاً. عمّا قريب يتصرّف ويهدّىء من جموح دوفال الشيطانيّ. نهض بصعوبة إذ كانت ركبتاه تؤلمانه ومسامير قدمه كالإبر المغروزة في لحمه. تعهّد بأن يجرّب دواء «شارترو» الذي يكفل شفاء القدمين في غضون ستة أيّام. ثمّ انطلق وهو يعرج باتجاه الدير. كان يترتّب عليه أن يكتب مقالاً عن جمال التقوى لمجلة «أسبوع سواسون الدينيّ». وهذا المقال سيكتبه بسرورٍ فالأسقف طلب منه ذلك شخصيّاً.

جمعيّـة عمل الشمال، لان، 1910

كانت الأخت ماري أوفرازي مقتنعة بأنّ الشيطان قد تلبّسها. منذ سقوطها على الدّرج وكلّ شيء يزداد سوءاً. كانت فخذها المصابة بورم دمويّ مزرقّ تؤلمها. في مكان الأضراس التي فقدتها تورّم فمها بسبب خرّاج متقيّح وشقّ عليها تناول الطعام. ما ذكّرها بالمثل الصيني الذي تعلّمته من أخت عائدة من مهامّ في الشرق الأقصى: الشرّ يدخل الإنسان من فمه. أليست هذه علامة الشيطان؟ لم يكن الأب دوفال يناقض أقوالها بل بدأ ذاك الإنسان الطاهر يتحدّث عن جلسات تطهّر من الشرّ، وليس عن تعزيم للشيطان، ليس بعد. ولكن نظراً لهيئته الصارمة كان واضحاً أنّ الأمر لن يطول.

ها قد بدأ منذ بعض الوقت يوليها اهتماماً. أخذت أحاديثهما تطول، ما زاد في كبريائها لأنّ الأب لم يعد يهتمّ بالأخت مونيك، تلك الصبيّـة الطائشة التي ادّعت أنّه كان يزورها لتحيط نفسها بالأهميّـة. أمّا الأخت ماري أوفرازي فلديها اضطرابات أكثر خطورة وكانت تستمتع بالتحدّث إليه عنها وإن لم تكن إجابات الأب دوفال لتُهدِئ من روعها البتّة. وجعل يذكر الحَضونات [59] التي يجذبها البكاء والدم، واليرقات الشريرة التي تسعى للتسلّل إلينا كالديدان في الأمعاء. لم يكن ذلك مطمئناً، وخصوصاً في تلك المباني الكئيبة التي ترودها الأشباح. ومن ثمّ تسبّب سقوطها عن الدرج أثناء اللّقاء اللّيليّ مع تلك الصغيرة الوقحة التي تدعى ليلي في زعزعة استقرارها. بدا لها أنّ جنيّاً شريراً انتهز الفرصة ليتشبّث بخطواتها وأنّه كان يتعقّبها بأظلافه حتّى سريرها. كان دوفال يحمل مخاوفها على محمل الجدّ لأنّ أيّ واقعة غير مألوفة يمكنها أن تشكّل

علامة على أنّ الشيطان يترصّدها وأنّ إبليس المحتال ربّما كان يسعى إلى أن يسكنها، قال ذلك وهو يصوّب عينيه اللّامعتين إلى عيني ماري أوفرازي، الأمر الذي كان يثير حتماً لدى الأخت قشعريرة طفيفة تجري على طول ظهرها.

لم تكن الأخت ماري أوفرازي تفهم كيف أمكن لحالها أن تسوء إلى هذه الدرجة. كانت تعيش منذ زمن طويل وفق القواعد الرهبانيّة. وتتمّم كلّ واجباتها من النهوض باكراً، وحضور القدّاس، والوعظ، والاعتراف، والمناولة بانتظام موقّتة موسيقيّة. ما إن يقرع الجرس حتّى تهرع للانضمام إلى جمع الراهبات المنصاعات، والارتكان إلى هذه التقوى الجماعيّة الممارسة بانتظام. هل كانت تحبّ ما تفعله؟ لا أحد كان يطرح عليها هذا السؤال ولم تفكّر به قطّ. كانت كرّست حياتها لله الذي تراه على هيئة بطريرك ملتحٍ سامي المقام، منشغل بأشياء أخرى غير الاهتمام بها وبعلّاتها. كانت تسعى لأن تتصف بسلوكٍ أنموذجيّ مستشهدة بعبارات حكيمة مأخوذة في معظمها من التعليم الدينيّ. أمّا القول إنّ حياتها كانت ملتهبة بحبّ يسوع... فتلك عبارة وعظية، تثير إعجاب الجماهير، ولكنّ الأمور داخل أسوار الدّير عاديّة ومجرّدة من غلوّها الدينيّ.

بدأ جسدها يرسل رائحة كريهة دون أن تنتبه لذلك فعلاً. لم يعد بوسع العديد من الراهبات البقاء معها في الغرفة نفسها، وكان مجرّد السير إلى جانبها في الرواق يثير فيهنّ الغثيان. وبما أنّ الربيع كان دافئاً أكثر من المعتاد آنذاك، فإنّ سرباً من الحشرات كان يرافقها باستمرار. وأثناء تجوّلها في الدير كانت تشاهَد وهي لا تتوقّف عن التلويح بذراعيها لإبعاد الطفيليّات، ما يجعل منظرها أقرب إلى امرأة ممسوسة تطاردها كائنات شرّيرة. كانت الأخوات

اللّواتي يلتقينها يتجاوزنها بسرعة دون أن يرددن عليها التحيّـة. كان الجميع يتجنّبونها، ولم تعد تتحدّث إلّا إلى دوفال.

بعد أن أعفتها الرئيسة من ممارسة الواجبات والفروض الدينيّـة، أخذت تمضي أيّامها ممدّدة في غرفتها غير قادرة على النوم. لم تكن الصلاة تعينها، بل كانت مجرّد كلمات فارغة لا تحاكي الواقع العصيّ على الفهم، ولا الظلم الهائل الذي كان مسلّطاً عليها. كيف أمكن للشيطان أن يسكنها؟ كانت تتقلّب في فراشها مستفظعةً ما يحصل لها والدم يخفق في صدغيها. كانت تنظر إلى المصلوب فوق سريرها وهي تروز رعب الموقف عاجزة عن طلب المساعدة من المخلّص.

وهكذا ذات صباح ربيعيّ بدأت طقوس طرد الأرواح الشريرة -كانت العبارة تدور على كلّ لسان مع أن الأب دوفال حظَر التلفّظ بها. بعد ساعتين من لقائها بالأب دوفال أصيبت ماري أوفرازي بنوبة تشنّج أعيتها وتوجّب إسنادها لتتمكّن من العودة إلى غرفتها. بدا دوفال متاثّراً بشكلٍ جليّ، رغم شعوره بالرضى. كان ينوي الاستمرار في جلسات التطهير هذه وقرّر أن تُستأنف كلّ ثلاثة أيّام عند أوّل اللّيل ساعة انتهاء الفروض الدينية. وكان مآلها مروّعاً.

ومذ بدأ طقس التطهير غرقت الجمعيّـة في ما يشبه الجنون. في تلك المساءات، كانت جشآت ماري أوفرازي تخترق اللّيل مقطوعة بأوامر الأب دوفال وأحياناً صراخه وهو يجاهد للسيطرة عليها. أعرب العديد من المرضى عن اعتقادهم أنّهم تعافوا وعاجلوا بالرّحيل. أمّا الراهبات المستلقيات على فرشهنّ الرديئة في غرفهنّ أو المستغرقات في صلواتهنّ فلم يكن لديهنّ من

خيار آخر سوى سماع الجوقة المرعبة لعواء الراهبة وصراخ الكاهن الذي يستنفد قواه لطرد إبليس المحتال.

كانت الكثيرات منهنّ يرسمن إشارة الصليب طوال الوقت ويترصّدن جلبات اللّيل من غرفهنّ. كنّ إمّا يفقدن الشهيّـة أو على العكس يلتهمن الطعام مثل جنود الخيّالة بقدر ما تسمح لهنّ عطايا الدير. خلال إحدى الحصص الدراسيّـة استولت على الأخت أغات نوبة ضحك لم تعد تنقطع. ووجب عليها الخروج من الدّرس سعياً لتهدئة روعها في الدّير على مرأىً من الطلاب المذعورين. شوهدت الأختان آن ومادلين تتخاصمان عند الخروج من قاعة الطعام وتقولان كلاماً فظّاً غليظاً. عبثاً تحدّث أودويرتس عن الهستيريا متطرّقاً إلى أعمال الطبيب النفسيّ شاركو [60]، فقد كان الوحيد الذي قام فعلاً بتشخيص جدّيّ لحالة الراهبة. اجتاح الخارق للطبيعة المكان وطفقت الراهبات يتبادلن النظرات مرتعبات، ويتحرّين علامات قوى الشرّ وأرواحاً منكرة لا تنشد إلّا أن تسكنهنّ. لم يكن دوفال يتوقف عن سؤالهنّ عن إغواءات الشيطان والأفكار الشرّيرة التي تقود إلى مجاورة إبليس. كان يقول لهنّ بصوتٍ مخادع آتٍ من ظلمة كرسيّ الاعتراف: «إبليس ماكر خبيث، وقادر على ارتكاب أرجس المكائد»، فيجمد الدم في عروقهنّ. ومع نهاية الشهر الأوّل أمر بإحضار تقنيّ يصوّر ماري أوفرازي في لحظات جنونها. وكان معتزّاً بعمله مدّعياً أنّه كان يقارب الشيطان من زاوية أكثر تماشياً مع العصر!

كانت ماري أوفرازي تسلّمه زمام أمرها دون وعي. كانت تدخل إلى غرفة الدير الصغيرة التي حُوّلت إلى مصلّى فيبدأ الأب بالصلاة وهو يرشّها بالماء المقدّس ثمّ يمرّر يده على جبينها متلفّظاً عبارات لاتينيّـة لا تفهمها. هذا

ما كانت تتذكّره من الطقس الذي يدوم طويلاً. لم تكن تنام خلاله لكنّها تغيب كما لو أنّ روحها انفصلت تدريجيّاً عن جسدها. حين تنتهي الجلسة وتعود إلى وعيها كانت تلفي نفسها ممدّدة على الأرض، وكلّ عضلاتها تؤلمها ورأسها كأنّه ثُلِمَ بقطعة معدنيّـة ساخنة. كان الكاهن ينحني فوقها متعباً، محملقاً عينيه، ويعلمها أنّ ساعات مرّت وأنّ الشيطان كان معانداً، لكنّه لن يتخلّى عن مساعدتها في صراعها معه، فتحاول أن تتذكّر على الأقلّ بعضاً من لحظات المعركة التي خاضتها للتوّ، وكان الأمر مستحيلاً، فترى في هذا النسيان بالذات عملاً آخر من أعمال الشيطان.

كانت ليلي تصاب بالذعر أسوة بالجميع حين تسمع صراخ ماري أوفرازي والأوامر الموجّهة من الكاهن مثل طعنات خناجر: «إنّني أعزّمك، أنت أيّها الروح النّجس، فلتُقلَعْ كلُّ هجمات العدوّ، وكلّ الفيالق والأشباح، باسم ربّنا يسوع المسيح، ولتُطرَدْ من خليقة الله...». كان دوفال يرشّ الراهبة بالماء المقدّس قائلاً: «ابتعدي أيتها الحيّـة القديمة باسم ديّان الأحياء والأموات...». وتُسمع الحشرجات، وهذا التنحنح الأبحّ الذي يبدو وكأنّه آتٍ من مكان أبعد من جسم الإنسان. كانت الفتاة الصبيّـة المحتبسة في غرفة معزولة صغيرة تشعر أنّ الراهبة جُنّت. كانت ترغب في التحدّث الى ألكسندر أو تطمئنّ لسماع أودويرتس يشجّعها على الشكّ ولكنّها كانت مجبرة على تنفيذ عقوبتها بمثابة توبة.

تتقن الرّاهبات فنّ العقوبات. يجدر القول إنّ قراءة الكتاب المقدّس تؤهّلهنّ لذلك إذ هنالك لائحة كاملة من ضروب التعذيب التي يمكن إنزالها بالإنسان. في ما يخصّني ليست العقوبات الجسديّـة هي الأشدّ إيلاماً.

بالطبع كانت ساقاي تنزفان لفرط ما جلدتني الأخت ماري أوفرازي، وكانت تردّد لمن يريد السماع أنّها تسعى صابرة إلى ردّ الخاطئة كما أظهر لنا الربّ ذلك. أمضيت يومين أو ثلاثة شعرت خلالهما بجوع جعلني أفكّر بأن

ألحس الجفصين عن الجدار لأسدّ جوعي. بما أنّه لم يبدُ علـيّ أيّ شعور بالتوبة فقد احتبست في غرفة ضيّقة حيث الشيء الوحيد الذي تسنّت لي رؤيته كان صليباً معدنيّاً وكنت سأدوسه تحت قدميّ لو أنّي لم أخشَ انتقاماً أشدّ إيلاماً.

«كان الأب دوفال يتلقّى اعترافاتي بانتظام، ويريد أن يعرف ما الذي دفعني للذهاب إلى الحديقة في تلك اللّيلة، وأيّ قوّة شرّيرة كانت تحرّكني. كما لو أنّني كنت بحاجة إلى الشيطان لأروّح عن نفسي! كان يسعى أيضاً لمعرفة أسماء شركائي. وعلى الرغم من كلّ إصراره، لم أذكر قطّ ألكسندر. ربّما كان هذا بسبب ما تدعوه الراهبات كبريائي البغيضة التي تمنعني من أن أعترف بذنبي، ذنبي الذي لا يغتفر. كانت جميع العقوبات الجسديّـة ترمي إلى إذلالي ولكنّها لم تفلح. أمّا الإهانة...

وسرعان ما فهمت ما كانوا يريدونه منّي جميعاً. كانوا يريدون تحطيمي، وجعلي عدَماً، وهذا كان بالطبع أمراً مثاليّاً بالنسبة إلى نساء اخترن محو ذواتهنّ والاختفاء من العالم ليتّحدن بالربّ ويعشن حياة تعيسة منزوية. الإهانة هي أنجع أصناف التعذيب. ذات مرّة أُرغمت على أن آكل وأنا جاثية أرضاً في قاعة الطعام لأنّني أسقطت صحني سهواً، وتوجّب علـيّ البقاء ساجدة أمام باب الكنيسة أثناء الصلوات. قبل تناول الوجبة وأمام الجميع وبينهنّ النزيلات الكثيرات اللّواتي كنّ يكرهنني ويشهدن متهلّلات على انكساري، كان علـيّ أن اعترف بذنبي، ذنبي الذي لا يغتفر. بعينين دامعتين، كنت أستمع إلى الرئيسة تقول إنّني حُبيتُ بِنِعَمٍ كثيرة ولكن يجب تشغيلها وإثمارها لأنّهـا كمثل حقـل فسيح وجميل لم يُحرَثْ وفيه الكثير من الحجارة التي تقطع خصوبة التربة.

«خرجت من هذه التجربة ممزّقة الأوصال. لم تُنضجني ولم تجعلني أقوى لكنّها أمدّتني بعبرة عادت علـيّ بفائدة كبيرة: ساعد نفسك لأنّ السماء لن تساعدك أبداً».

في كنيسَة «عمل الشّمال»، وبعدَ مقابلة الأخت ماري أوفرازي، انتحى الكاهن القانونيّ كافيل بالأب دوفال جانباً. صدمته رؤية راهبَة لم تعد تشبه نفسها، هزيلة لدرجة أنّها تبدو كطفلةٍ صغيرة غارقةٍ في ملابس الكبار الفضفاضة. كانت بنظرتها المحمومة التي ترسلها عيناها المجرّدتان منَ الرّموش وبخدّيها الأجوفين، ورائحتها المقيتة، وكلّ شيء فيها، توحي بأنّها ممسوسة وأنّ الأب دوفال كانَ يُشجّعها على الانزلاقِ في هذا المنحدرِ الخطر. إذا لم يكبح دوفال جموحه فإنّ الفضيحة واقعة لا محالة.

قال كافيل:

- سيّدي الأب هذا يتجاوزُ الحدود ولا يمكن أن يستمرّ.

تفرّس الأب دوفال في كافيل بوجهه الأجوف المتعب المُزيّن بِلحيَةٍ مُشذّبة بإتقان. كان أطول قامة من كافيل وأشدّ نحولاً، باستثناءِ كرشه البارزةِ المستديرة كالكرَة. ثمّ حدجه بنظرتِه المحمومة، نظرة من يبحث عن المطلق.

تابع كافيل:

- هذا اللّقاء شاقّ بالنَسبة لي. يصعب علـيّ أن أنقل لك شكوى بصفتي المبعوث غير الرّسميّ للأسقفيّـة.

- لم أكن أعرف أنّ المطران يهتمّ بأبٍ تافهٍ مثلي.

- دعكَ منَ السّخرية. ما تمارسُه خلالَ احتفالاتكَ عندَ السّيد لوفران وهنا أيضاً مع هذه الأخت البائسة أمر غير مقبول. ممارساتك تكاد تعيدُنا إلى غياهِبِ القرونِ الوسطى عندما كان مدّعو المعجزات والسّحرة في كلّ الميادين يتفوّقون على القدّيسين الحقيقيّين، آنذاك حين ترتّب على القدّيس مارتان مواجهة دسائس كوتينوس [61] .

- لنذهب إلى صلب الموضوع يا سيّد كافيل، لماذا أنتَ هنا إن لم يكن لخدمةِ مصالِحكَ بالذّات؟

- ماذا تقصدُ بقولك هذا؟

رفعَ كافيل نبرَة صوتِه وكأنّه يُلقي موعظة عن الحياةِ المنحلّة. كان دوفال يدعوه بالـ «سيّد»، أي يعتبره مثل أيّ شخصٍ عاديّ، وتلك إهانة كبرى.

ابتسمَ دوفال بهدوءٍ زامّاً شفتيهِ باحتقار: «أقصدُ أنّكَ تسعى خصوصاً إلى إرضاء الأسقف ووزير العدل والأديان. قانون إيمانك، إذا جازَ لي القول، هو عدم إثارةِ الفضائح، وبذلك تشبه العديد من الموظفين العموميّين التافهين...»

- دعكَ من هذه الافتراضات الدنيئة! «عمل الشّمال» جمعيّـة ناضلتُ من أجلها ولولايَ لكانت أودت بها أحابيل الحكومة. لن أدعكَ تشوّه سمعتها... هل علـيّ أن أذكّركَ بأنّ الأسقفيّـة لم تأذن لكَ إطلاقاً بأن تتولّى طرد الأرواح؟ هذا يتطلّب منكَ أن تُثبتَ أنّ الأختَ ماري أوفرازي «مسكونة». أرأيت، كم أنّ هذه الكلمة مشحونة وتحمل معها موكب الخرافات الطالعة منَ الأزمنةِ القاتمة!

وفيما هوَ يتكلّم عادت إلى الكاهنِ كافيل شذرات من حديثه مع الأخت ماري أوفرازي. ولكَم كانت دهشتُه كبيرة عندما بدأت تُخاطبه باللّاتينيّـة، لاتينيّـة بطيئة ركيكة ولا شكّ، ولكنّ الأمرَ بدا مقلِقاً لأنّها لم تكن تتلو العبارات التي سمعتها طيلة حياتها الرهبانيّـة. بدا دوفال إلى جانبه سعيداً بهذا الإثبات الشّيطانيّ.

كان الأب دوفال ينظرُ إلى كافيل ممسّداً لحيَتَه ووَميضٌ من الكراهيَة يلتمِعُ للتوّ في عينيه. كان يكره الكنيسَة المرتكنة إلى حقّها المشروع والمهتمّة فقط بصورة التّقوى الحازمة تلك المطمئنّة الواثقة الّتي كان دوفال يتّشح بها، والتي عارضها دوفال طيلة حياته.

قال بصوت خافت:

- الإثباتات هنا. أنتَ تعرض عنها لأنّها تُقلقُ راحتَكَ الذهنيّـة.

- ليسَ هناك إثباتات إلّا على ضلالك وغَيّك. ألا تشعرُ أنّ الرّاهبات لم يَعد بمقدورهنّ الاحتمال؟ ألا تسمع الشائعات عن الفضائح وشعائرِ التّدنيسِ التي تُحيط بجمعيّـة عمل الشمال وهي أمرّ على الكنيسة من الحنظل والعلقم؟

أضاء وجه دوفال الضّيّق والطّويل بابتسامةٍ شاحبَة ثمّ علاه الاحمرار والتجهّم: «فصاحتُكَ يا سيّدي الكّاهن تُعطيكَ، لا شكّ، الانطباعَ بأنّكَ تبذّ نفسك، لكنّها واهنة أمام الحقيقة».

هزّ كافيل رأسه. كان يدرك بوضوحٍ تامّ الحقيقة التي يبحث عنها الأب دوفال. لِوَهلةٍ، خلال حديثه مع ماري أوفرازي، أراد أن يُمسكَ بيدِ الأختِ ويحتضنها بيدَيه. التفتَت ناظرةً إليهِ بعينيها الصفراوين المحاطتين بهالاتٍ

سوداء. في هذه اللّحظة التمعَت في عينيها الخاليَتين من الرّموش نظرة مفعمة حقداً كما لو أنّها بصقَت في وجهه. لم يضعف. أحاط يد الأخت بيديه لتهدئتِها. وعندئذٍ دفعَتْهُ تلكَ المرأة العجوزُ القصيرة الهشّة، التي أنهكَها الصّومُ والمرضُ، بعيداً عنها بقوّةٍ مُذهلة. ودونَ أن يفهَمَ ما حدَثَ ألفى نفسَه جالِساً على الأرض. تدخّل دوفال مسلّحاً بصليبه فتراجَعت ماري أوفرازي وهي تبصق وتنفخُ مثلَ قطّة غاضبة. نهضَ كافيل عن الأرضِ أرعن مذعوراً.

عندئذٍ استنتجَ مذهولاً أنّ دوفال لم يكن يسعى إلى إعتاق نفس الأخت الرّاهبَة من استحواذ الشّيطان. لا، الأمر لا علاقة له بذلك. حسبَ ظنّه، كان يتحدّثُ إلى ماري أوفرازي أو إلى الروح اللّعين الذي يسكنَها. كان الكاهن القانونيّ يشهد ما لم يكن يصدّق يوماً أنّه سَيَراه: محاولة للحوارِ مع الشّيطان.

قال: «وماذا بعد! هل تعتقدُ أنّه يمكنُكَ تحقيق أيّ شيءٍ جوهريّ من خلال هذا الطقسِ المشبوه؟»

- المشبوه؟ جلجل صوتُ الأب الرّئيس مثل سوط. والتفتَ إلى خصمِهِ بنظرَتِهِ الحارقَة التي كان لها سطوة على الرّاهبات ثمّ قال: «تتحدّث عن أشياء تتخطّى قدرتَك».

كان كافيل يمقتُ الانخراط في مثل هذا النّقاش مع كاهنٍ اعتبِره شخصاً مغامراً. أن يكونَ الشّيطانُ قد انتصَرَ في كلّ مكانٍ في العالم، فهذا ما كان كافيل يزداد اقتناعاً به. بدأ يشكّ في قدرات الخالق. لكنّ محاولات عابدِ الشّيطان هذا الضّيّق الأفق كانت تبدو له كضربات سيفٍ في الماء، ولا تبلغ الجوهر السّريّ للوجودِ البشريّ. كانَ يُشاعُ أنّ دوفال وشم صورة المسيح

على باطنِ قدمَيهِ ليدوسَ عليهِ مع كلّ خطوة. وكانَ كافيل يرى في هذا التصرّف بادرة جديرة بالعقولِ المتخلّفةِ للأزمنةِ القديمَة.

بطرَف عينه رأى كافيل رأساً أشقر يرتسمُ في فرجة الباب ثمّ انسحبَ خلسة. شعر كافيل بالتوتّر وقال بلهجَةٍ جافّة: «أطلب منك للمرّة الأخيرة أن توقفَ هذا «التطهير» الذي لا يرتكزُ إلى أيّ حقيقة مثبتَةٍ لاهوتِيّاً، أضف أنّه يثير الاضطراب في مجتمع لا ينشد إلّا العيش بسلام».

- سأتابعُ عملي، يا سيّدي الكاهن، ويُشجّعني في ذلك وليّ نعمتنا ليزيار دو كريسي الذي يهتمّ، من ناحيتِهِ، باختراق مجاهل المقدّس. ولا أنصحك بأن تمنعني عن ذلك وإلّا...

- وإلّا؟!

أردف دوفال بالنبرة ذاتها وكأنّه لم يلاحظَ مقاطعة الأب كافيل: «أعتقد أنّ الأسقفيّـة ستكونُ مهتمّة إذا ذكّرها أحد باختفاء تلك الطفلةِ في كنيسة فرسان الهيكل منذ بضع سنوات. لم يُعثَر عليها مجدّداً، أليس كذلك؟ أيّاً كان ما أخبرتْ به راهباتِ المحبّة...» وهسهس ضاحكاً ثمّ أردف: «لا تقل لي إنّكَ نسيت!».

كان كافيل يعرف كيف يُقاطعُ جدالاً تحوّل إلى مسعىً عقيم. فكّرَ أنّ دوفال كانَ يمسك عليه أمراً غابَ عن الكثيرين منَ الكهَنة. خرج غاضباً وإذ ذاك التقى رجلاً أشقر الشّعر بدا عليه أنّه ينتظر الأب دوفال. مرّ به دون أن يلقيَ التحيّـة. كان بلا شكّ ذاك الأستاذَ الفلمنكيّ الذي لم يكن، حسبَ ما أخبروه، يكتفي بتدريس الجبر والعلوم، كما كان مطلوباً منه، بل كان يسخر علانيةً منَ

الكنيسَة القروسطيَة، ناسياً كلّ احترامٍ للمؤسّسة، معمّماً نظريّات داروين، لا بل إنّه تطرّق إلى تكاثر الذّباب أمام تلامذته...

من المؤكّد أنّ كلّ شيءٍ كان يحيد عن مساره الصحيح في «عمل الشّمال»!

عندَ خروج الأمّ الرّئيسَة أديل من تمارين الجوقة، أبلغت ليلي عن مشاركتها القريبة في احتفالٍ يُقام في منزلِ السّيّد تيودور لوفران راعي الرهبنة. كان يترتّب عليها أن تغنّي ترنيمة بإشراف الأخت آنّ، وأن ترافق الأب دوفال. امتثلَت ليلي فالأمّ الرّئيسَة لا يُرفَضُ لها طلبٌ. وإذ لاحظت الأمّ أديل دهشتها تلطّفت بأن تشرَح لها أنّها اختيرَت لجمالِ صوتِها وأنّها بديل عن سيلفي، إحدى النّزيلات، التي كانت شاركَت في بعضِ هذه الطقوسِ لكنّها هربَت من الدير للتوّ. قالت أديل متنهّدة: «تلك فتاة تعيسة أخرى عجزت عن احتمال متطلّبات الحياة التقيّـة وتتخيّل أنّها ستجدُ سعادتها في مكانٍ آخر!». ارتابت ليلي في صحّة هذا القول؛ كانت تعرِف سيلفي؛ كانت مثلها إحدى أكبر الفتيات سِنّاً وليست منَ النّوع الذي يهرب لمجرّد نزوَة. لا شكّ أنّها بدت في الآونةِ الأخيرة منزويَة، وحزينة، وامتنعت عن التحدّث لأيّ شخص.

في اليومِ التالي تدرّبت ليلي على الترنيمة مع الأخت آنّ. وجدتها بعيدة عن التّرانيم المألوفة بكلماتها الملتبسة التي تذكر بسرٍّ غامض وبلحنها الذي يصدَحُ غريباً. سعت لمعرفة المزيد عن تلك الاحتفالات لدى النّزيلات الأخريات، لكنّهن لم يكنّ على علمٍ بالأمر. كانت الفتياتُ يعرِفنَ فقط أنّ الأبّ دوفال يقيمُ بانتظامٍ احتفالات خارج الدير، في منزل لوفران. كانت ليلي تعرف حديقة المنزل لأنّها ذهبت عدّة مرّات لمقاسمة اللُّمَج الجماعيّـة التي كان راعي الرهبنة يقدّمها. كانت الحديقة شاسعة جدّاً على الطّريقة الإنجليزيّـة، وشبه مهجورة، وعلى طول ممرّاتها المحصبة هنالك تماثيل متآكلة وبعض قفائر نحل متداعية بالقرب من الدّرج الكبير الذي يُفضي إلى باب المنزل. إذا كان داخل المنزل مهملاً مثل الحديقة فهذا يعني أنّ لوفران كان يعيش في كوخٍ حقير.

كلّما أنعمت ليلي التفكير في الأمر وهي تكرّر هذه الترنيمة الغريبة، تضاءلَت رغبتها في المشاركة في الحفل. خلال التمرين الأخير، ألمحت إلى الرّئيسَة بما تفكّر فيه فرفَضت سماعها. كانت الرهبنة بحاجةٍ إليها للقيام بهذه المهمّة الصغيرَة وحريّ بها أن تضحّي لأجلها. بدَت الأم أديل خلف تبرّجها مصمّمة للغاية فما كان من الفتاة إلّا أنّ حيّتها وانسحَبَت منصاعة.

بعدما خرجت ليلي، ذهبت أديل إلى باحة الدير. في ظلّ أحد الأعمدة كانت قامة الأب دوفال الطويلة في انتظارها. سألها بنظرة، وقالت له بصوتها الجهوريّ الذي أزعجـه: «لـم تبتّ أمرها. لا تريد الذهاب إلى الحفل». التزم دوفال صمتاً طويلاً. كان شاحباً، وعيناه نصف مغمضتين وخدّاه غائران بسبب الإرهاق. ثمّ قال بنبرَةٍ منخفضةٍ وحاسمَة: «ستذهب». ووافقت الرّئيسَة بإيماءةٍ من رأسِها.

كان الأب الرئيس في مزاجٍ سيّئ. تلقّى لتوّه توبيخاً آخر من ألكسي كافيل. بات الأمر مزعجاً بعد كلّ حساب. لم يسبق له أن كان بهذا القرب من الشّيطان، وكان قلبه يخفق لمجرّدِ التّفكير بالأمر! كان يتحدّث إلى السيّد الأعظم خلفَ المظهرِ البائس لذاك الوعاء الحقيرِ الذي كانته ماري أوفرازي وكان عليه فوق ذلك أن يتحمّل غضبَ كاهنٍ تافه! لم يعد لديه أيّ صبرٍ حيالَ هذه الترّهات. بدا له أنّ الجمعيّـة أيضاً أخذت تتداعى، وأنّ أهواء كانت ملجومة حتّى ذلك الحين لدى هؤلاء الرّاهبات الخرعات بدأت تفلت من عقالها. لقد أتت لحظة الإلهام ويجدر به أن يستغلّها. ثمّ إنّه كانَ هناكَ تيودور لوفران المدعوّ ليزيار دو كريسي، ذاكَ المحسن شبه الخرف الذي لم يكن يقوى على تجاهله.

منذ لقائهما الأوّل أدرك رئيس الدّير كلّ الفائدة التي يمكن أن يجنيها من ذاك العجوز الذي خبّله المورفين والأثير وسافر بحثاً عن معرفةٍ إخفائيّـة

أوسع. وفي إطار السريّـة المطلقة، أفصح له دوفال عن أنّه كان تلميذاً فتيّاً في جمعيَة «عمل الرّحمة» التي كان يرأسها أوجين فانترا، السّاحر الشّهير الذي ادّعى قُبَيل وفاته أنّه خليفة النبيّ إيليا، وأنّ فانترا أطلقَ عليه الاسم التلقينيّ: عزرائيل. وحين خلفَه الأب بولان، تعهّد دوفال-عزرائيل بالولاء لهذا الكاهن الذي كانَ يعِظُ بأنّ السّقوطَ من الجنّة حصلَ بسبب فعل حبّ آثم، ويزعم أنّ افتداءَ البشريّـة يجب أن يتمّ عبر ممارسات حبّ ممتثلة لشعائر دينيّـة. كان حريّاً إذَن مساعدة الكائنات الدنيا في التكفير عن خطاياها بمثْل هذه الممارسات. وقد لخّصَ أحد الشعراء هذه العقيدة مازحاً: كان بولان يكرّس الفحشاء ممارسةً ليتورجيّـة. [62]

سأله لوفران على الفور منزعجاً:

- ولكن ما كان رأي بولان في هذا القول الوقح؟

أجابَ الأب دوفال:

- لا شيء. توفّيَ منذ ثلاث سنوات بفعل هجمات السّحر الأسودِ لأعدائه.

- آه! هذا فظيع، فظيع!

بمجرّد سماع النّبرة المتفجّعة التي اتّخذها الرّجل البيكاردي في تلك اللّحظة، أدركَ دوفال أنّه في حضرة رجل ساذج يمكن التغرير به. وبالفعل، دعم لوفران منذ البداية مساعي رئيس الدّير. لم يكن مفتوناً كثيراً بعبادة الشّيطان لكنّه ساعد الأب دوفال في إقامة قدّاس أسود في قلب مدينة لان، ثمّ دعمه في تأسيس جمعيّته «عمل الشّمال» من خلال منحه كلّ المساعدة الماليّـة التي يحتاجها.

كان تيودور لوفران واحداً من أغنى أغنياء منطقة لانوا وكان مالكاً لعقاراتٍ هائلة. عند وفاة زوجته التي لم تستطع أن تنجبَ له وريثاً، بدأ يضجر تاركاً إدارة أملاكهِ لأكّارين كانوا يسرقونه عنوة. كان من الثّراء بحيث أمكنه أن يمنح نفسه ترف عدم الاهتمام بما يرتكبونه. وبناءً على نصيحة جارٍ مولعٍ بالإخفائيَة [63]، بدأ يهتمُّ بالسّحر ومذهب الباطنيّـة، وهما من الممارسات التي لها أريجها الباريسيّ والصّالوناتيّ الفاتن. وبشغف المبتدىء انغمسَ في قراءات معمّقةٍ ذات أبعادٍ غرائبيّـة. وأكملت رحلته إلى مصر ارتداده.

لدى عودته إلى لان، واحتفاء منه بولادته الجديدة اتّخذ اسم ليزيار دو كريسي، وهو كنية لأسقفٍ بيكارديّ من القرون الوسطى، قيل عنه إنّه كان ضليعاً في الخيمياء. حين قيل له إنّ الأسقف المعنيّ كان يدعى ليزيار دو كريبي، أجاب أنّ «كريسي» ربّما هُمِسَ له به من فم غير مرئيّ، ورأى لزاماً عليه الاحتفاظ بهذا الاسم. كان يقرأ جميعَ المجلّات الباطنيّـة الرائجة آنذاك بحماسة عصاميّ يفهم من كلّ ثلاث جمل جملة واحدةً لم تكن الجيّدة بالضّرورة. ولم يكن يفوّت أيّ عدد من مجلّة «لوتوس» ويعرف عن ظهر قلب عشرات الصّفحات من «المبحث الأوّليّ للسِّحر العمليّ» لمؤلّفه بابوس [64]، وكتابات بيلادان [65]. ومع ذلك، لم ينجح على الإطلاق في التّأثير على مجال الأرواح غير المرئيّـة الذي يكمل عالَمنا على ما يبدو.

ومؤخّراً، أصبحت مختلف العقاقير والمهلوِسات ترافق استكشافه لأسرار الكون متسبّبة له بحالة من الخدر بدلاً من أن تمنحه وحياً مبهراً. وهذا ما كان يتوسّله دوفال لترسيخ سطوته عليه. كان يقيم بانتظامٍ الاحتفالات «التلقينيّـة» للعجوز السّاذج. ولن يحول تردّد طفلة مثل ليلي روسو دون

استمراره في ذلك. كان بحاجةٍ إليها، وإلى مشاركتها في الحفلِ وما يتبعه. سواء أعجبها ذلك أم لا.

في «عمل الشّمال»، لم يكن ألكسندر يقلّ توجّساً عن ليلي. كان يجهلُ ما يحدث في منزل لوفران لكنّه نصح الصّبيّة بعدمِ الذّهاب، ولذلك كان عليها فقط أن تتظاهرَ بأنّها مريضة.

في اللّيلة التي سبقت الاحتفال، وفيما كانا يلتقيان في العلـيّـة، بدا قلقاً:

قال وهو يقضم رمليّـة اختلسَها من مخزنِ الطبّاخة الأخت فورتونيه، كعكة هشّة للغاية بطعم الزّبدة الزّنخة:

- ولكن ماذا يريدون منكِ أن تفعلي هناك؟

- يريدون منّي أن أغنّي. الأمّ أديل بدأت تعلّمني اللّحن، أغنية طويلة لا نهاية لها حقّاً. سأرتدي ثياباً خاصّة... لا يبدو كلّ ذلك متوافقاً مع الدين الكاثوليكيّ، إن أردت رأيي...

- هل تريدين أن آتي معك؟

- لا تكن بليدَ الذهن... أستطيعُ الدّفاع عن نفسي إذا لزِم الأمر.

لم يُجب لكنّه بدا مرتاباً.

هزّتْ رأسَها بلطفٍ وابتسمَتْ مقتربَة منه وشرعتْ بتقبيله برقّة. تراجع ونظر إليها مضطرباً. لـم يكن يعرف هذا النّوع من القبلات. ثمّ جلستْ من جديدٍ وقالتْ: «ما بين آنٍ وآخر أشعرُ وكأنّك أكثر شّخص أحبّه في العالم».

قال بابتسامة أليمة:

- ألستُ كذلك؟

بدا أنّها تفكّر: «لو كان الأمر كذلك لكان مبالغاً فيه...».

ارتدَت ملابسَها من جديد ونهضت لتعود إلى المهجع تاركةً إيّاه في اضطرابٍ كلّيّ. كانت تبقيه تحت رحمتها وهذا الشّعور كان أيضاً ممتعاً.

في اللّيل، كانت ليلي مستلقية على البطانيّـة الخشنة تستمع إلى ضروب من الصّخب في منزل ليزيار دو كريسي الضخم: فرقعة الألواح الخشبيّـة، انزلاق الفئران، تكتكة ساعة الحائط الهائلة في الطابق الأرضيّ. سنوات مرّت ولم تنم وحيدة في غرفة. كانت تفضّل ألف مرّة العودة إلى «عمل الشّمال»، والنوم في جوار زميلاتها في المهجع، وسماع شخير الحالمات وصرخاتهنّ التي تكتنفها كحجابٍ دافئ. لكنّ دوفال قرّر أن يُمضيا اللّيلة في هذا المنزل الغريب. تقلّبت في السّرير الكبير المصنوع من خشب الأكاجو، الذي ترشحُ منه الرّطوبة، وبها غيظ من السّهرة الغريبة التي شاركت فيها والتي كان محورها الرجل العجوز المتهالك. رأت فعلاً أنّ الاحتفال كان مغايراً للشعائر الكاثوليكيّـة، لكنّها كانت تخشى دوفال لدرجة تتهيّب معها من طرح الأسئلة عليه.

وفيما كانت ليلي تحاول عبثاً أن تجد النّوم، وقف رجل في العتمة أسفلَ الدّرج الكبيـر المغبّر. كـان الأب دوفال متّكِئاً على الدرابزين المصنوع من خشب الجوزِ يراقب سفرة الدّرج المطلّة على أبواب الغرف.

كانا هي والأب الرئيس وصلا منذ أربعِ ساعات منقطعَي الأنفاس. تأخّرَ دوفال بسبب ماري أوفرازي التي أصيبت بنوبة هلع وقد وجد صعوبة كبرى في تهدئتِها. قرع البوّابةَ الكبيرةَ الخضراءَ بمطرقةٍ تمثّل وجهاً محجّباً واضعاً إصبعاً على فمه. فتحَ لهما الخادم وتبعاه مجتازين الحديقة حيث انتصبت التّماثيل المتآكلة التي التفّ اللّبلاب حول معظمها. وعلى الرّغمِ من أوامر الأب دوفال، استغرقت ليلي وقتاً لتعاينَ قفائر النّحل. قال لها نافد الصّبر: «تأخّرْنا،

أسرعي!» فأجابَته: «حسناً! حسناً!» بنبرَةٍ وقحة فاجأته. على سفرة الدّرج المغطّاة بالطّحالب، استقبلهم رجل عجوزٌ ذو وجه شاحب خالٍ من التعبير وأنف أقنى. حين رأت ليلي ليزيار دو كريسي، ارتعشت وكأنّ أفعواناً انزلق على طول ظهرِها.

في الصّالون الواسع وكأنّه قاعة رقصٍ والذي تتسرّب منه أنفاس الرطوبة برغم المدفأة الهائلة حيث تشرئبّ ألسنة اللّهب البرتقاليّـة الجميلَة، كان دوفال يدير رقصة غريبة بين نواويس مصريّـة منتصبة لصق الجدار، رُسمَت عليها وجوه مهيبة بعيونٍ طويلة لوزيّـة. في الجهة المقابلة، بالقرب من فأسٍ هائلة صدئة وسيوف مصفوفةٍ على شكلِ مروحة، خزانة مفتوحة تظهر منها مجموعة من الفساتين الحمراء البديعة التي نخر العثّ معظمها. في وسط القاعة حيث فاحت رائحة البخور ممزوجة بالعفن، كان ليزيار دو كريسي جالساً وحدَه أمام طاولةٍ من خشب السّنديان تتّسعُ لثلاثين مدعوّاً. وكما في كلّ مرّة عندَ اكتمال القمـر، أقام الأب طقساً بطيئاً متكلّفاً حيث كـان الفتيانُ والفتياتُ يرتدون ملابسَ غريبَة ثمّ يروحون ويجيئونَ متفوّهين بتعاويذ غير مفهومة. لم يكن للحفل بداية ولا نهاية، ولكنّ ليزيار دو كريسي كان مصّراً على إحيائه، وبالنسبة لدوفال كانت رغباته أوامر.

كان يسعى لإدخال العجوز إلى منظّمة الصّليب الورديّ [66]. نجح في الحصول على النّوتة الموسيقيّـة لنداء المنظّمة وكذلك على نشيدٍ مقدّسٍ ألّفه أحد أعضائها، وهو موسيقيّ اسمه إيريك ساتي [67]. عُزفت الموسيقى على البيانو ثمّ غنّت ليلي. أثناء الاحتفال، لم يفارق نظرُه دوفال العجوزَ. كان جالساً أمام الطّاولة الكبيرة، ويداه المجعّدتان بأظفارهما الصّفراء الطّويلة كالمخالب مبسوطتان على الخشب. بقي مستغرقاً في مشهدٍ خياليّ داخليّ. لم يعد عقله

صالحاً إلّا لأخذ ما يعطى له من طعام وشراب، والقيام بالحركات التي تُحدّد له، والانصياع لأوامر مَن كانوا يحيطون به. بالإضافة إلى هذا، كان له فزّات نادرة تتحكّم بها عوائدُ عجوزٍ فاسق. كان الأب دوفال يجعله تحت سيطرته بشكلٍ شبه تامّ.

للمرّة الأولى منذ أسبوع أعرب له عن رغبته بجعله وريثه، ما يوجب على الأب الرئيس ربّما أن يخلع ثوب الكهنوت. وإذ فكّر دوفال بالثّروةِ الوشيكة، كان يعرف أنّه لن يتردّد لحظة واحدة عندما يحين الوقت. وبذلكَ يستطيع أن يبتدئ حياة مريحة أكثر مع أديل، أو من دونها.

أديل... كان الأب دوفال سئماً من عشيقةٍ تزدادُ شيخوخة وتصابياً. التقاها منذ سنوات خلَت في لورد، بمناسبة شفائها العجائبيّ من الصّمم. لم يكن هو يسلّم إلّا بمعجزتين مسيحيّتين: اختراع الشمبانيا على يد الراهب البينيديكتي دوم بيرينيون، واختراع إكسير الأب غوشيه [68] على يد كهنة بريمونتريه، لذا لم يتأثّر. حتّى بعد «معجزتها» بقيَت شديدة الصّمم. لكنّه لم يستطع أن يغفل عن جاذبيّـة مَن حصلَت معها الأعجوبة. قرّر بحماسٍ أن يتولّى الإرشاد الرّوحيّ لهذه المرأة وجعله يرتقي باتّجاه ارتباط جسديّ. وجدَت أديل كلا الأمرين ساحرين. أثمرَت علاقتهما عن طفلٍ لم يجرؤ دوفال على التّخلّص منه. واستمرّت العلاقة مع تعاوض السّنين على الرّغم منَ السّمنة التي أصابت جسد الراهبة ولحمها المتهدّل.

في ظلّ الدّرج، كان دوفال يُفضّل التّفكير بليلي التي غنّت منذ ساعتين. كانت الموسيقى غريبة. لا بدّ أنّ المؤلّف أسرَف في تناول موادّ مهلوسة. لكنّ صفاء الصّوت فرض نفسه رغم هزال اللّحن. وبالرّغم من ثوبها الأحمر الذي

أكله العثّ، بدت تلك الفتاة جميلة فعلاً، أجمل من أديل بكثير. قطع على نفسه وعداً بأن يشرح لها قليلاً عن عقيدة بولان. حتّى ليزيار دو كريسي الذي خبّله الأثير [69] بدا تحت سطوة سِحرها. ذاك العجوز ذو الجسد الهزيلِ، الذي يبدو وكأنّه وافى الأموات الذين تضرّع إليهم مراراً، احتفظ بحبّه للنّساء، وتصرّفه هذا لا يتّصف بالحذر. كان دوفال يأمل أن يصمد ويبقى سليماً معافى حتّى التّوقيع على الوصيّـة.

في الغرفة، لم تستطع ليلي النوم. كان النّشيد الذي غنّته يعود بإصرار وكأنّ صوتاً آخر، بعيداً، أسرّ به في أذنها. ثمّ جمدَت في مكانها فقد سمعت للتّوّ قرقعة خفيفة، منتظمة. نظرَت إلى باب غرفَتها الذي لم تستطع إقفاله لأنّه لم يكن هناكَ مفتاح. كان أحدهم يصعدُ الدّرج ببطء.

تدثّرت ليلي بالغطاء وكأنّها تشعر بالبرد. أرهفت السّمع. حكّمت عقلها: ما الذي عليها أن تخشاه؟ ثمّ جلست على السّرير. اهتزّ خيط النّور أسفل الباب. كان الشّخص يمسك شمعة. كان آتياً من هذه النّاحيَة.

أخذ قلبها بالخفقان حين سمعت ليلي صرير مقبض الباب. مرتاعة، رأت الباب ينفتح، وارتسمَت في الفرجة قامة ليزيار دو كريسي العالية المحدودبة. دخل الرّجل صامتاً. أغلق الباب خلفه. على ضوء الشّمعة، بدت عيناه بقعتين من حبرٍ وكان ظلّ أنفه يحجب فمه وذقنه.

مرتعدة، وقفت بقدميها الحافيتين على الأرضيّـة. كانت ليلي لا تزال تأمل بقوّةٍ أن يكون الرجل مخطِئاً. لامَت نفسها على أنّها لم تسدّ الباب بقطعة أثاث، لكنّ الخزانة بدَت لها ثقيلة جدّاً فتراجعت عن نقلها. وضع الرجل الشّمعدان على الأرضيّـة ونهضَ من جديد. في تلك اللّحظة، تجمّدت من الخوف وأيقنت أنّه لم يكن هناك أيّ سوء فهم، وأنّه ينوي أن يستمتعَ بمكانتهِ بصفته سيّداً للمكان ويستغلّ خادمةً صغيرة، فتاة خاضعة منذ الأزل. أخذت نفساً عميقاً لتستعيدَ بعض الهدوء. لم تكن لا خادمة ولا خاضعة.

انفرج فم العجوز عن ابتسامةٍ عريضةٍ تكشف عن أسنانه الصفراء. تقدّم خطوة وهو يحكّ رأسه بظفرٍ نصف مكسور. «تمدّدي يا صغيرة». كان للصّوت الخفيض نبرة الأمر النافذ. فكّرَت ليلي من جديد في ما أخبرَتها إيّاه أورور عن الطّريقة التي اتّبعتها والدتها لتتخلّص من الرّجال حين كانوا يحاولون الاعتداء عليها. للحظة، ظنّت أنّها قادرة على إطلاق صرخةٍ من القوّة بحيث تجمّد أيّ وحشٍ في مكانه. تنهّدت متحسّرة: لن تمتلك أبداً مواهب فرنشيسكا.

كانت وحيدة تحت رحمة هذا التّيس العجوز. ولكن ليس من غير قدرة على الذّود عن نفسها.

- ارحل يا سيّد! ليس لديكَ ما تفعله هنا.

- تعرفين سبب وجودكِ هنا، أليسَ كذلك؟ لذا توقّفي عن التّظاهر بالعفّة. استلقي!

كان لا يزالُ يتردّد في دفعها على السّرير حائراً أمام الابتسامة الصّغيرة التي ظهرَت على وجهها للتّو، ابتسامة ثقةٍ مذهلة بالنفس. لم يعتَد على مواجهة مثل هذا التحدّي. الفلّاحات اللّواتي كنّ يعملنَ عنده لم يكنّ يغالينَ في أهميّتهنّ، حتّى الأخيرة، تلك الفتاة من «عمل الشّمال»، انتهى بها الأمر إلى الاستسلام. كان تبادل خدمات شريف إلى حدّ ما، وحاصل الكلام كانت الصفقة نزيهة. مرتبكاً رآها تُخرج غرضاً من جيب ردائها، أنبوباً زجاجيّاً. وفي العتمة لمح شيئاً يتحرّك في داخل الأنبوب.

قالت ليلي وهي تُشهر أنبوب الاختبار المغلق:

- هذه نحلاتك.. نحلات غاضبة لأنّها مسجونة...

- أتريدينَ إخافَتي بهذه الحشرات؟ دَعي هذا الأنبوب جانباً وتوقّفي عن الكلام!

تولّاه الغضب. جاء ليتمتّع بعذراء. كان دوفال أكّد له الفوائد الرّوحيّـة الناتجة عن فضّ بكارة فتاة. رفض سماع المزيد.

أصبحَت ابتسامة ليلي أكثر أسىً. وضعت الأنبوبَ على الأرض واستلقَت على السّرير محافظةً تماماً على هدوئها. حين اقترب ليرفعَ ثوبَها رأى أنّها كانت ترتعش قليلاً. فكّ حزامَه وتهاوى فوقها مثل شجرة. كان ثقيلاً بشكلٍ مريع. وتحت ثقله فرَغَت رئتا ليلي من الهواء فجأة. سعلَت عاجزة عن الحراك. باعدت أصابع خشنة كأنّها من خشبٍ بين فخذيها وخدشتها لدى مرورها. التمعَت دموع قليلة في زوايا عينيها. حاولت التّخلّص من الرجل فضغطَ على رقبتها بعنفٍ هائل بحيث شعرَت أنّ دمها سينفجر من صدغيها. حجبت غشاوةٌ عينيها. قامت بجهدٍ هائلٍ لتبقى صافية الذّهن فليسَ الوقت وقتَ تخاذلٍ.

اجتاحت أنفاس العجوز المتسارعة وجهها تفوح منها رائحة النبيذ والأثير. شعرت بالغثيان يتصاعد داخلها مثل مياه قذرة وأوشكت أن تتقيّأ. باعدَ أكثر بين فخذيها متحرّكاً فوقها فتشنّج جسدها كلّه، وفي هذه اللّحظة بدّدت الكراهيَةُ كلّ شعورٍ آخر داخل ليلي. كان الغضبُ يُحدث في أذنَيها طنيناً. أبقَت عينيها مفتوحَتينِ لكنّها لم تعد ترى شيئاً، كانت متصلّبة من رأسها حتّى أخمصِ قدميها. مدّت ذراعها اليمنى وأمسكَت بشيءٍ تحتَ البطّانية.

رأى بعد فوات الأوان ذراع ليلي ترسم سريعاً قوس دائرة في الهواء. بطرف عينه لمح قطعة خشبٍ في يدها، وجعلته ضربة في صدغه يترنّحُ وقد أقتمت غشاوة من الدّم عينيه، كما يحدث له في أسوأ لحظات انحداره إلى الهاوية حين تسلخه الكحول والمخدّرات عن نفسه. شعرَ بشكلٍ غامضٍ أنّ الفتاة تغتنمُ الفرصة لتتخلّص منه. ها قد نهضَت للتو. نخرَ مثل دبّ مسعور لكنّه لم يستطع الحراك لشدّة الألم. متلمّساً طريقه، نجح في أن يمسكَ بذراعها ويشدّها بعنفٍ إليه. حين وجدَ وجهها، غرز أظفاره في جلدِ جبهتِها وخدّيها مفتّشاً عن عينينها ليؤذيَها بدوره.

شعر أنّها دسّت شيئاً بارداً في فمهِ فعضّه بشراسة وتحطّم تاركاً طعماً مالحاً على لسانه. تعرّف بعد فوات الأوان على أنبوب الاختبارِ الذي كانت أظهرته له. جرحَ الزّجاج شفتَيه. فقد صوابَه وأرادَ أن يمزّق وجهها لكنّها نجحَت في التّحرّر منه. وحينَ عادَ له بصَرُهُ جزئيّاً أدركَ أنّ هناك شيئاً أخطر بكثير من الزّجاج المحطّم دخل حلقه. أراد أن يبصقَ. لكنّ الألمَ الذي بدأ من سقف حنكه بلغ أصابع قدمَيه. تدحرج على جانبِ السّرير ممسكاً عنقه ثمّ سقط بثقله على أرض الغرفة.

خرجَت من بين شفتيه ثلاث نحلات محوّمة بطيرانها النزق. تدحرجَ مثلَ كرة على الأرضيّـة المغبّرة مشطّباً خدّه بكِسَر الزّجاجِ المتناثرة. أدخل يده في فمهِ ليخرج القطعة التي كانت تسدّه. كان لسانه متورّماً بشكلٍ لا يُصدّق. استحال لون وجهه قرمزيّاً، وبدت أوردة صدغيه أشبه بديدانٍ زرقاء كبيرة على وشكِ الانفجار. انتفض جسده وهو يلمحُ الفتاة التي فتحَت الباب لتهرب. أطلق حشرجة أخيرةً وكأنّها جلبة وعاء يُفرغ، ثمّ مكث جامداً في وضعيّـة جنينٍ ضخمٍ يمتصّ يدَه.

انحنى الأب دوفال على جسد ليزيار دو كريسي المتجمّع بجوار السّرير الخشبيّ الأحمر غير مصدّقٍ ما تراه عيناه. كان عنق العجوز لا يزال دافئاً لكنّه خالٍ من أيّ نبض. تضخّم لسانُه البنفسجيّ متدلّياً من فمهِ الملتوي. انعكست في عينيه الكامدتين ظلال الدّهشة والألم. لا حاجة للذّهابِ والإتيانِ بنجدة: كان ميتاً. لم يكن دوفال قادراً على أن يصدّق ما جرى ولا راغباً. ليس الآن!!!

ما إن سمعَ الأب دوفال جلبة شجار ورأى ليلي تخرج راكضة من الغرفة، حتّى اندفع غير معير اهتمامه للفتاة التي كانت تنزل الدّرج بسرعة. قرّب وجهه من الفم المريع للرّجل العجوز آملاً بجنونٍ أن يشعرَ بنفسٍ من أنفاسهِ مهما يكن واهياً. توجّب عليه الانصياع للأمر الواقع. ليلي تلكَ التي كان يرتابُ بمظهرها المتجهّم الماكر قتلت لتوّها الدّجاجة التي تبيضُ ذهباً، وبالضبط في اللّحظة التي أوشك أن يصبح فيها وريثَ رجلٍ كان أحد أغنى الرّجالِ في لانوا! لم يكن بمقدوره بعد أن يروز كلّ العواقب المترتّبة على هذه الوفاة. ربّما وجد طريقة لتسويةِ الأمر مع كاتب العدلِ ولكن لا رغبة له ولا طاقة على التّفكير في ذلك الآن. لن تفلتَ هذه الفتاةُ من العقاب هكذا ببساطة. سمعَها وهي تُحاول فتح البوّابة في الأسفل آخرَ الدّرج. نهضَ مرتجفاً غاضباً وهرول في الرواق. آه لا! لن يدعَها تهرب!

على سفرة الدّرج رأى خيالاً آتياً باتجاهه. ربّما كان أحد معاوني ليزيار دو كريسي، ولاحقاً سيرى ما به. اعترضَ الشخص طريقه. فوجىء برؤيته ألكسندر، ذاكَ الذي يتوجّب عليه أن يسمّيه ابنه غير الشرعيّ. لم يكن ينقص إلّا هو. قام رئيس الدّيرِ بإيماءةٍ تعبّر عن انزعاجهِ: «ابتعد من هنا!» وبدل أن

يمتثل الصبيّ، اعترض من جديد طريقه لمنعهِ من المرور. دفعَه دوفال جانباً واضعاً قدَمَه على أوّل درجة. في الأسفل كانت ليلي تحاول جاهدة أن تديرَ المفتاح في القفل الثّقيل المتعسّر. تهيّأ الأب دوفال لينزل الدرجات أربعاً أربعاً. لم ينتبه عندما مدّ ألكسندر رجله لعرقلته.

تسبّبت العثرة في فقدان توازنه. ارتطم وجهه بالدّرجات الخشبيّة بسرعةٍ مذهلة. وتكسّرَت أضلاعه على إحدى زواياها. لاهثاً، تدحرج على جانبه منحدراً عدّة درجات مدفوعاً بزخم سقوطه. أوقف وهو نصف صريعٍ سقوطَه بذراعه ثمّ تهاوى على الأرض المبلّطة في الأسفل. حاول مذهولاً النّهوضَ حين اجتاحت نسمة باردة وجهه. كانت ليلي قد فتحت البوابة للتوّ.

ما إن وضع قدمَه على الأرض حتّى اعتراه ألمٌ شديدٌ صعد من ركبته إلى وركِهِ ثمّ سرى مستشرساً في كلّ الجانب الأيمن من جسمه. غطّى عرق الوهن جبهته، وارتمى جالساً على الدّرج عاجزاً عن الحركة. على العتبة صرخَت ليلي بألكسندر قائلة: «أسرعْ!».

ردّ عليها الصبيّ الواقف بين دوفال والبوّابَة قائلاً: «اذهبي، هيّا!».

كانت ليلي متردّدة: «لا، يجب أن ترحل معي ألكسندر. لم يعد بإمكانك البقاء الآن!»

نهضّ دوفال مترنّحاً، وتهيّأ لملاحقتها. تقدّم ألكسندر باتّجاهه وكانت ضربة من كتفه كافية حتّى يسقط الأب على مؤخّرته وهو يزعق ألماً. انتصب الصبيّ أمامه متعاظماً في وقفتهِ لحماية الفتاة الهاربة.

في الحديقة، كانت ليلي تركض بكلّ قوّتها والدم ينزف من وجهها، بعيداً عن الأب دوفال، بعيداً عن منزل تيودور لوفران المكنّى ليزيار دو كريسي

الذي اجتاز لتوّه، كما تمنّى على الدّوام ولو بطريقةٍ مختلفة، باب النّورِ المشرّعِ على آخرِ الأسرار.

«لا أريدُ أن أتخيّل العقاب الذي أُنزل بألكسندر في «عمل الشّمال». أتجنّبُ التفكير بالأمر لأنّ ذلك يؤلمني أكثر ممّا لو كنت أكابده في جسدي. الآن أعرف أنّه لم يخرج من تلك الورطة سالماً إطلاقاً. ومع ذلك فإنّه في تلكَ اللّيلة ولِما تبقّى من حياتي، أصبح أخي، ذاك الرجل الذي هبّ لنجدتي في أوان الخطر... والذي تجشّم العواقب كلّها».

أمضت ليلي اللّيلة في الغابة وهيَ ترتجف غير مصدّقة أنّها قتلت للتّو رجلاً دون أيّ شعورٍ بالندم. كانت مجرمة في نظر الرّاهبات والشّرطة، وفتاة منحرفة، لكنّها كانت تعرف أنّها محقّة في ما فعلته. ساعد نفسكَ لأنّ السّماء لن تساعدَكَ. أدركت من جديد صحّة ما فكّرت فيه. أغلقَت عينيها من شدّة الإرهاق ثمّ غفَت جالسة لصق جذع شجرةٍ زان باسقة. حلمَت أنّها كانت حشرة حملتها نسمة أخّاذة إلى سلام اللّيل العميم المليءِ بالنجوم.

في وضوح الفجر الجليّ أيقنت أنّها لم يعد لديها أيّ خيار. قرّرت أن تذهبَ إلى مزرعة دوفليير، عند هنري، رجل النّموس.

وصلَت إلى باحةِ المزرعة وهي تتمايل متجمّدة من البرد، وقد غطّى الدّم المتيبّس وجهها المجرّح، وعينها اليسرى نصف مغلقة. كان هنري وقتئذٍ يخرج من الأهراء فأفلت منه الدّلو الذي كان يحمله وهُرِعَ ليساعدَها.

تقوّس ظهر هنري وابيضّ شعره، لكنّه استقبلها كما لو أنّها غادرت أمس. غسل جراحَها وعالج عينها بمساعدة مارييت، زوجة المؤاكر. بعد مرور أسبوع أصبحت بصحّةٍ جيّدة والتأمت جراحها إلّا ندبة طفيفة على خدّها أضفت على جمالها السّحر اللّاذع لنشازٍ خفيف.

تعذّرت على رجل النّموس معرفة الفتاة الصّغيرة التي غادرَت القرية منذ سنوات. أصبحَت صبيّـة رائعة. استمع إليها وهي تروي حياتها في «عمل الشّمال»، موقّعاً سردها بضرباتٍ صغيرةٍ من يده على الطاولة، صابّاً غضبه على دوفال، ولوفران، وجميع بلهاء الكنيسة. قال إنّ هذه القصّة تُزعجُه مثل

قملة على رأس أصلع. واتّفقا على أنّها لا تستطيع العودة إلى منزلها القديم الذي كان لا يزال غير مسكون لكنّه أوّل مكان يفكّر رجال الشرطة في قصده. أعدّوا لها غرفة في مبنى ملحق بالمزرعة. كان المكان رطباً غير مريح لكنّها تستطيع السكن فيه إلى أن يُنسى أمرها في لان.

في الأشهر التي تلَت، عرفت كيف تقوم بأعمالٍ مفيدة. كانت تُعنى بصيانة هذا المنزل الفسيح للرّجل الأعزب وتساعد في رعاية المواشي والدّواجن. راقتْها هذه الحياة البدائيّـة. غالباً ما كانت تستيقظ في اللّيل وتستمع إلى دوارة الرّيح وهي تصدر أزيزاً خفيفاً على السّطح. في الحظيرة كان خوار البقرة العذب يُسمَع وسط التنفّس العميق والدافئِ للحيواناتِ الهاجعة. كانت ريح الشّمال تهدهد أوراق الشّجر المتاخم للمزرعة، وبدأت بومة تنعب في وجه القمرِ ثمّ طنّ في البعيد جرس خافت. هذه الحياة الهادئة والخفيفة كانت تغمرها مثل حجابٍ مبارك. لم تتحدّث مع هنري عن ماري التي بقيَت وفاتُها بمثابة سرٍّ بينهما. كان لديها الكثير من المهامّ لتقوم بها بحيث توقّفت عن التّفكير بالأمر كما أنّها نسيَت ألكسندر راجية فقط ألّا يقاسي ألوان العذاب في «عمل الشّمال».

استيقظت ليلي فجأةً. جلسَت لتستريحَ دقيقةً ثمّ غفَت، هكذا في عزّ النّهار! هي التي لم تكن تغفو دقيقة واحدة. لاحظت منذ بعض الوقتِ أنّ جسمَها كان يتغيّر وأنّ ثدييها متورّمان وباتا يؤلمانها. حين تفحصّت نفسها في المرآة الصّغيرة الموضوعةِ في غرفتِها لم تصدّق أنّ حلمتيها اتّسعتا إلى هذا الحجم. نهضت بقفزةٍ واحدةٍ. أجرت حساباً سريعاً وكان هذا كافياً لإجلاء الأمر. لم يأتِ طمثها منذ وصولها إلى المزرعة. أطلقَتْ ضحكة مندهشة لا بهجة فيها. قالت لمرآتِها: «لم يكن ينقصني إلّا هذا!»: انتظار طفل.

تذكّرَت بياتريس، إحدى نزيلات «عمل الشّمال»، التي حبلت بطفلٍ. لم يُعرف قطّ اسم الأب لأنّها طُردَت على الفور. بما أنّها لا عائلة لديها فلا بدّ أنّها وجدَت نفسها في الشّارع. وما عاد أحدٌ يسمع عن أخبارها شيئاً. ذاك هو مصير الأمّهات العزباوات في بريمونتريه... ما من رجلٍ كان يهتمّ بهنّ إلّا من حثالة الذّكور، والمتشرّدين، والسّكارى الذين يعيشون في البؤس المُدقع. أمّا هؤلاء اللّواتي كان لديهنّ أُسَرٌ فكنّ يعشْنَ في المنزلِ الأبويّ مع أطفالهنّ ويبقَينَ منعزلاتٍ يجترِرْنَ عارَهُنّ طوال اليوم. حيوات كثيرة كانت تنتهي بمجيء طفلٍ غير شرعيّ... لا بل كان وضعها أسوأ لأنّه لم يكن لديها من سندٍ إلّا هنري، ولم يكن يستطيع أن يؤويها إلى الأبد.

ساورها القلق. طلبَت من هنري الذّهابَ للقاء تيو أودويرتس في لان. فوجىء بطلبها. لم تكلّف نفسَها عناء أن تشرَحَ له الأمر. منذ بعض الوقت بدأ يزعجها بوجهه المليءِ بالبثور وبحشراتهِ التي تحوم حوله في الصّيف، ثمّ بدأت تتحمّلُ بصعوبةٍ روائحَ المنزل وبوجهٍ أخصّ رائحة النّموس. انصرم ذاك الزّمن

الذي كانت تمضي فيه ساعات تلاعب ليون، فهذه الحيوانات رائحتها لا تُطاق فعلاً. ولأنّه بقيَ واقفاً هناك لا يلوي على شيء، اعترفَت له أخيراً بصوتٍ هامسٍ أنّ أودويرتس كان أستاذاً غريباً لكنّه طبيب مع ذلك وكانَت في حاجةٍ إليه.

أكّد لها أودويرتس حبَلها وهوَ يغسلُ يديه في الطست الموضوعِ على صوان الغرفة. سرّ للغاية برؤيتِها مجدّداً وأبلَغَها أنّ رجال الدّرك ما زالوا يبحثون عنها. حين سألَته عن أخبارِ ألكسندر، تجهّمَ وجهه. لم يكن يعرف شيئاً عمّا حلّ به ولكن كان لديهِ شعورٌ بأنّ أمراً سيّئاً حصلَ له. قرّرت الأمّ أديل الاستغناء عن خدماته التعليميّـة. بعد وفاة وليّ نعمة «عمل الشّمال» توجّب عليها أن تقتصد في النفقات. قال: «على أيّ حال إنّه لأمرٌ محزن! كان فتىً خارق الذكاء في الرياضيّات!» ثمّ مسحَ يديه بمنشفةٍ مثقوبةٍ وسألها: «هل ستحتفظينَ بالجنين؟».

نظرَت إليه دونَ أن تفهمَ قصده ثمّ احمرّ وجهها فجأةً. سألته: «ماذا تقترح؟».

- بإمكاننا أن ننهي المسألة... أنا مسيحيّ، وهذه خطيئة مميتة كما تقول لنا العقيدة. لكنّي أيضاً عالِم وأعرف أشياء لم يتسنّ الوقت لذاكَ التقدّميّ العظيم الذي يدعى ليون الثالث عشر تبنّيها... ما الطفل في نظر العلم؟ إنّه كائنٌ صغيرٌ يدخلُ جسدَكِ ويطلبُ العيش ممتصّاً طاقتَكِ. يشوّهُ قوامَكِ ويستنزِفُ مخزونَكِ ثمّ يمزّقُ أسفلَ بطنكِ ليستطيعَ الخروج.

- ما تقوله شيطانيّ!

- انتبهي إلى ما تقولينه! قال مسترجِعاً نبرَته الأستاذيّـة. في البدايةِ ليسَ هناكَ فرقٌ بين الجنين والبكتيريا: إنّهما كائنانِ يمتصّان طاقة خارجيّـة ليستمرّا. لدينا الخيارُ إذَن: إمّا السّماح لهذا الكائن الغريب بالنّموّ على حسابنا وإمّا الحفاظ على توازنِ جسمنا بتخلّصنا منه. كم من البكتيريا نقتل هكذا فقط لنبقى على قيد الحياة؟

- لكنّها الحياة بالذّات!

- وما الحياة! هذه الظّاهرة المبالغ في تقديرها وهي ليست استثنائيّـة ولا ثمينَة! الأمر بسيطٌ جدّاً، إنّها في كلّ مكان!... في الحقيقة الموت غير موجود، هناك فقط أحياء أصغر فأصغر، وأكثر فأكثر عدداً كلّما تفحّصنا العالم عن كثَب... والجنينُ هو أحدُ هذه الكائناتِ المتشبّثةِ بكائنٍ أكبرَ منها ليبقى على قيدِ الحياة».

سخرَت ليلي قائلة: «أنتَ موهوبٌ في رفعِ معنويّاتي!».

رفعَ كتفيهِ هازئاً، ثمّ رمى المنشفة على الأرض.

- كنت أعتقدُ أنّني علّمتُكِ أن تنظري إلى الأشياء بطريقةٍ علميّـة. لا داعي لتمجيدِ الأمومة - باستثناء أمومةِ العذراء مريم، بالطّبع!- إنّها حياة تتطفّلُ على أخرى أكثرَ تطوّراً، كما يوجد منها المليارات الأخرى من كلّ الأحجامِ والأنواع».

استوَت ليلي في سريرها وخدّاها متورّدان غضباً: «سأحتفظ به!»

- إنّه خيارٌ وأحترمه... تماماً كما سأحترمُ الخيار المعاكس... مَن هوَ الأب؟

قالت وقد احمرّت خجلاً:

- ألكسندر على ما أعتقد.

- على ما تعتقدين...؟

- اغرُبْ عن وجهي، لم أعد أريد رؤيتَك!».

بيدَ أنّ أودويرتس عادَ بعدَ أسبوعين. ومعَ أنّ هنري أحضر قابلة من القريَة إلّا أنّ ليلي شعرَت بالارتياح لأنّ بإمكان طبيبٍ أن يُتابعَ حالتها مهما يكن غريب الأطوار. وكدَليلٍ على حسنِ نيّته -كانَ مدركاً أنّه يغالي قليلاً- جلبَ مجهرَه. لم يعد الموضوع متعلّقاً بإجهاض الطّفل. كان لديه اقتراحٌ يقدّمه لها ولهنري.

في لان، لم يعد بإمكانِ الفلمنكيّ أن يعملَ على أبحاثهِ الميكروبيولوجيّـة في الآونةِ الأخيرة. أصيبَ هرّ في الحيّ بمرَضٍ وسرعان ما وُجّه الاتّهام إليه وهاجمته صاحبة القطّ بضرباتٍ من مظلّتِها، وهي امرأة خمسينيّـة غضوب قويّـة العضلات، ويستطيعُ أن يشهدَ على ذلك. حاصل الكلام أنّ جيرانه ما عادوا يحتملون تجاربَه، لذا اقترَح على هنـري أن يضـعَ قسماً من مختبرِه في المزرعة ويعمل فيه بمساعدةِ ليلي. انتشرَ وباء الحمّى القلاعيّـة لتوّهِ في كوسي، وكان يريد أن يركّب مصلاً من شأنِهِ تحصينُ مناعةِ الحيوانات. «المصلُ الحاليّ يأتينا من لوفلر [70] وهو ألماني لكنّه يؤمّن المناعة لأسبوعين. وهي مدّة قصيرةٌ جدّاً! اقترحْتُ عدّة تحسيناتٍ للمصل في مقالٍ نُشرَ في مجلّة هولنديّـة قليلة الانتشار للأسَف...». التفت إلى ليلي: «... أرأيتِ؟ أحتاجُ إلى مكانٍ وإلى معاوِنةٍ لأرَبّي حيوانات المختبر وأصنعَ الرّشاحات والحقَن وأراقبَ عن كثبٍ التطوّرات... تعرفينَ كيفَ تتصرّفين...» .

صمتَ ونظرَ إلى هنري بعينيه الزرقاوين الصافيتين صفاء يحثّك على الردّ في الحال. حين يكون الفلمنكيّ مشغول الذهن ينقبض حاجبه الأيمن على

ندبةٍ احتفظ بها منذ الطفولة إثر ضربة مجذافٍ تلقّاها من شريكه في التجذيف في بروج. وعندئذ كان حاجبه يرفّ بطريقة غير إرادية. كان فعلاً بحاجةٍ لمكانٍ هادئٍ يُجري فيه أبحاثه.

لم يكن نفاد صبره يخفى على هنري إطلاقاً. حين عرَضَ عليهِ الفلمنكيّ، الذي لم يكن ثريّاً، أن يدفعَ له أربعين فرنكاً (عشرين للسّكن وعشرين لقاءَ عملِ لِيلي)، أرهف رجل النّموس سمعه. بعدَ مساومةٍ قصيرةٍ وافقَ على مبلغ خمسين فرنكاً وهذا مبلغ جيّد من المال لقاء إيجارِ غرفة، وتجهيز بعضِ أقفاص الأرانب، وساعتين أو ثلاث من العمل اليوميّ للفتاة الشابّة. تصافحَ الرّجلان. التفتَ أودويرتس صوبَ ليلي: «بالطّبعِ إنّها وظيفةٌ غريبة في مثلِ حالتكِ!». كانت تعرف أنّ خياراتها قليلة وتعهّدت بأن تكونَ حذرة مع الحيوانات المصابة: «لكنّك تعرف! البكتيريا، كما قلت لي، هي هنا في أحشائي».

كانت ليلي معاونَة أنموذجيّـة للفلمنكيّ. عمِلا بدايةً على تحسينِ المصلِ الذي يقي من الحمّى القلاعيّـة. وما لبث أن اختفى الوباءُ في كوسي دون أن يُعرف تماماً ما إذا كان الفضل يعود لأدوية أودويرتس. تُرك له حقّ الاستفادة من الشكّ. ثمّ انتقل إلى أمر آخر: كان يشغله كائن جديد مجهول وغير مرئيّ.

آنذاكَ كان علماء الأحياء الدّقيقة يتساءلون عن ميكروبات من الصّغر بحيث تنبو على كلّ المصافي، ويتعذّر فحصها حتّى في المجهر الأكثر تطوّراً. في العام 1905 تسلّم عالِم نبات يدعى بايرينك [71] ميداليّـة لوفنهوك التي تمنحها الأكاديميّـة الهولنديّـة، ما لفت انتباهَ أودويرتس. كانت مقالات ذاكَ العالِم الهولنديّ مثيرة للاهتمام. استطاع بفضل مَصافٍ دقيقة مذهلة أن يبرهن على أنّ العاملَ المسبّب لمرض شتول التبغ، أي تبرقش التّبغ، كان أصغر من

أيّ بكتيريا أخرى ومن ثَمّ تتعذّر رؤيته في المجهر. وكان يؤكّد بالأخصّ أنّ هذه الجرثومة لم تكن بكتيريا لكنّها كانت شكلاً آخر من الحياة أسماه «فيروساً».

وعلى حدّ قول بايرينك لا أحدَ كان يعلم ماذا يشبه الفيروس وكيف يعمل لكنّه كان موجوداً في أسفل سلسلةِ الأحياء. كان «الخفيّ بين اللّامرئيّات» وفقاً لاستنتاج أودويرتس. ربّما كانت جرثومة الكلَب التي لم يرَها أحد، ولا حتّى باستور، فيروساً. رأى الفلمنكيّ أنّ هناك شيئاً غير مسبوق وباعثاً على الشّغف: كانت حدود العالم المتناهي الصّغر قد انحسرَت للتّو.

كان لدى أودويرتس سببٌ آخر للاهتمام بالفيروسات وخصوصاً بفيروس داء الكلَب كما أخبرَ ليلي. قبلَ سنوات، في غرافنفيزيل، وهي قرية قريبة من أنفيرس، قام بتلقيح طفلةٍ عضّها كلبٌ في وجهها وذراعيها، واشتُبِهَ بأنّه مصاب بالكلَب. استقبل الولدان المربكان الطبيب الباريسيّ مستبشرين به خيراً. لمدّة أسبوع وبانتظامٍ حقنَ أودويرتس المريضة بمصلٍ مضادّ لداء الكلب. بما أنّ أيّ عارض لم يظهر على الفتاة، عادَ الاطمئنان للوالدين. ولكن في اليوم الثامن، اشتكَت الطفلة من آلامٍ في أطرافِها. تابع أودويرتس حقناته. لكنّ الفتاة الصغيرة كانت تتخبّط وتُكافحُ ليلَ نهار، وتتلوّى يائسةً لاهثة. وسرعان ما عجزت عن احتمال الضوء أو أدنى ضوضاء وكان مرأى كوب ماء كافياً لتعتريها نوبات عصبيّـة، وبعدَ أيّامٍ من مقاساة العذاب، توفّيت.

كان الأب والأم ليظهرا امتنانهما لأودويرتس وجهوده لولا علمهما أنّ الكلبَ الذي هاجم ابنتهما قد عضّ طفلاً آخرَ وشخصينِ بالغينِ من قريةٍ مجاورةٍ في اليوم نفسه. لم يتلقَّ أيّ منهم أيّ علاج. فقط غسلوا جراحهم قدر الإمكان، ولم يصبْ أيّ منهم بالمرض. وهكذا خلص أودويرتس إلى النتيجة الوحيدة المرعبة بالنسبة إليه هي أنّ الكلب لم يكن مسعوراً.

دفنَ الوالدانِ التعيسانِ ابنتهما وهما يصبّان جام لعناتهما على الطبيب المغالي في تفانيه. كان حزنهما يفوق غضبهما، وتخلّيا عن اتّخاذ الاجراءات اللّازمة لملاحقة المجرم الذي قتلَ طفلتهما لظنّهما أنّ العدالة لن تنصفهما في مواجهةِ طبيب تدعمه هيبة شهاداته، وبالطّبعِ تضامُن زملائه الأطبّاء معه. ومع

ذلكَ، أشفى أودويرتس على الكارثة، ولو كان المدّعي العامّ فتحَ تحقيقاً لَأُدينَ إدانةً حقيقيّة.

فيما بعد، مُراجِعاً ما حصلَ، فهمَ الخطأ الذي ارتكبه. أراد، بدافع من الوفاء المفرط، أن يمتثلَ للبروتوكول الذي كرّسَه لويس باستور. قام بتلقيح الفلمنكيّة الصغيرة بمستخرجات من نخاع الأرنب المصاب بالكلَب، ووحده الأوكسجينُ الموجودُ في الهواء خفّف من حدّة الجرثومة الحيّة. كان في الواقع لقاحاً خطيراً عُدّلَ لاحقاً لكنّ أودويرتس لم يأخذ ذلك في الحسبان. العلاج لم يشفِ الطفلة من داء الكلَب بل نقله إليها. وأخيراً قامَ بالتشخيص بعد فوات الأوان: ربّما ماتت الفتاة عقب الحقنات من داء الكلب الشّلليّ للأرنب، وليس من داء الكلَب الهياجيّ للكلْب أو الثّعلب.

وتفشّت الشائعات في أوساطِ الأطبّاء المهتمّين بعلم الأحياء الدّقيقة. لذا ترتّب عليه مغادرة أنفيرس وتعذّرت عليه العودة إلى باريس أو برلين. ومن سخريَة القدَر أنّه أصبح منبوذاً. لكنّ من كان يخاله نادماً على خطئهِ لا يعرفه كما يجب. كان الخطأ مفيداً في نظره لأنّه تعلّم منه. واعتبر أنّ «لكلّ تطوّر ثمنه»، وأنّ «تقدّم العلم زاخر بالوَفَيات».

حين كان أودويرتس يتحدّث بهذه الطريقة، كانت ليلي تتساءل إنْ كان بكاملِ صوابه. ولكنّها حينما فكّرَت بالأمرِ، أدركت أيضاً سبب اعتباره اكتشافَ الفيروس بهذه الأهميّة. ففي الزّاوية الأكثر خفاء من العالَم، عند تخوم كلّ مادّة حيّة كان يوجدُ كائن مجهول تتعذّر رؤيته بالعين المجرّدة، ربّما كان آخر ركنٍ في أعماق الحياة السّحيقة. وهذا يستحقُّ أن نوليه الاهتمام.

جمعية عمل الشّمال، لان، 1912

هذه المرّة، اجتازَ الكاهن كافيل مدخل «عمل الشّمال» بخطوات واثقة. نسيَ مساميرَ قدمَيه وحموضة معدته. صمّمَ على ألّا يهادن مطلقاً الأب دوفال. كان يتعيّن عليه أن يتوقفَ عن ممارسة طرد الأرواح الشرّيرةِ المزعومة ويترك نهائيّاً الراهبة التعيسة ماري أوفرازي بسلام. كانت الشائعات الأكثر كيداً تنتشر في كلّ أماكن المنطقة. أعرب له الأسقفُ مرّة أخرى عن قلقه وغضبه ممّا يجري لا سيّما وأنّه كان مسؤولاً عن جمعيّـة عمل الشمال وميول الأب دوفال الشيطانيّـة.

استقبلته الأخت أديل في الدير. بدت متعبَة وكان وجهها مخدّداً بالتّجاعيد الصّغيرة التي لم تفلح المساحيق في إخفائها. ازدادت الحياة شظفاً في الرهبنة مذ توفّيَ ليزيار دو كريسي. ترتّبَ على كافيل توضيح ظروف هذه الوفاة المشبوهة أمام الأسقفيّـة لكنّه لم يتمكّن من الخروج من القضيّـة بريء الذمّة. ليلي روسو، المسؤولة عن الجريمة، اختفَت ولا أحدَ فهمَ ماذا كانت تفعل فتاة تقيم في «عمل الشّمال» تلك اللّيلة في منزلِ دو كريسي، ولا كيف استطاعَت أن تتسبّبَ للشّيخ بمثلِ هذه الجروح الفظيعة. كانت أعذار دوفال فعلاً مقتضبة للغاية. اشتبهت الشّرطة بممارسات فاضحة، وحاولَ كافيل أن يعثر على الفتاة لمعرفة ما الذي لديها لتقوله، أو إسكاتها إذا اقتضى الأمر، لكنّها اختفَت ولا تزال مفقودة.

عرف من كاهن يخدم في الضّواحي أنّها لجأت إلى مزرعة الدوفليير، وكذلك أخبره عن ولادتها الوشيكة، فتعهّد بمراقبة هذه التعيسة عن كثب.

أمّا ألكسندر الشابّ الذي شاركَ على ما يبدو في القضيّـة المشؤومة فإنّ الأمّ الرّئيسة قد عاقبَته بأن أبقَته في عزلة تامّة. وحين شرحت لكافيل أنّه لن يستطيع مقابلَته لم يُلحّ. في جميع الأحوال كان لديه من تلك المشاكل ما يكفيه.

ساعتئذٍ، كان يستمعُ إلى الأمّ أديل تشتكي بصوتٍ جهوريّ من اللّحوم القليلة الموجودة على مائدَة الدير، ومن التدفئة التي باتت تقتصر على حدّها الأدنى. أومأَ برأسِه وهو يحكّ الثؤلول الذي يشوّه ذقنه، موقناً تماماً أنّها لن تتطرّق للمشكلة التي تعذّبها حقّاً والمتعلّقة بشجارها المستمرّ مع الأب دوفال، وبالفتور العاطفيّ لهذا الذكر الذي ملّ عشيقته المتقدّمة في السنّ. لم تكن علاقتهما الغريبة تسير على ما يُرام. كانت جميع الراهبات يتحدّثنَ عن الموضوع. كان كافيل يعرف أخبارهما عبر كرسيّ الاعتراف. وكان هذا الموضوع أقلّ همومه شأناً. لم يأتِ لِيُواسي هذه المرأة الممتلئة مرارة وغيظاً، والمعدومة الجاذبيّـة، يجب الاعتراف بذلك. كان يريد أن يضعَ حدّاً لفضيحة طرد الأرواح. اتّفق أنّ أديل أخبرَته أنّ دوفال كان في خضمّ معركته معَ الشّيطان. تنهّدَ الكاهن، عليه والحالة هذه التحلّي بالصّبر.

الدوفليير، عام 1912

لم يعدْ باستطاعةِ ليلي تحمّل الأمر أكثر. كانت تنظرُ إلى أودويرتس يمعن في الحراك، ذاهباً من المجهر إلى الحيوانات المصابة، طارحاً الفرضيّات الأكثر غرابة في حين كان البقاء واقفةً يضنيها. لم ينتفخ بطنها كثيراً لكنّ أسفل ظهرها كان يؤلمها باستمرار، وكانت تجاهد طيلة الوقت لتبقي عينيها مفتوحتين. أمرتها آنّ، القابلة، بأن تأخذَ قسطاً من الرّاحة، ولكن بين العملِ لأودويرتس، والاهتمام بالمنزل، والاعتناء بالحيوانات، لم يكن لديها وقت. في المساء، كانت تستلقي منهكة، وتجيل النظر في غرفتها البائسة وهي تهزّ رأسها بحزن، ففي هذا المكان الكئيب، في قلب الغابة، سيولدُ طفلها. باتت تفهم لماذا لم ترغب أورور وماري في إنجاب طفل، باستثناء الطفلة التي قادتها الصّدفة إليهما. من أراد أن يأتي بطفلٍ إلى العالم وجب عليه أن يتمتّع بالكثير منَ اليقين وبثقة كبيرة في النفس. كيف سيكون بإمكانها أن تهتمّ بكائنٍ صغيرٍ يعتمدُ عليها كليّاً؟ كان هنري لطيفاً ويجهد لطمأنتها ولكنّه كان عجوزاً ومتعباً. ومن ثمّ لا يمكنها أن تبقى طويلاً في الدوفليير. لم يكن لديها أيّ مستقبلٍ هناك. ذات مساء غلبَها الحزن ورجّحت أنّها ستنجب فتاة وتدعوها أرماند، فقط لأنّها تحبّ هذا الاسم. وماذا لو كان الطّفل صبيّاً؟ لم يكن اسم أرمان سيّئاً هوَ أيضاً.

كانت الصّحف تتحدّث بازدياد عن حرب وشيكة مع ألمانيا. وهذا أوحى بأفكار جديدة لأودويرتس. أسرّ بها للفتاة قائلاً:

- الكيمياء علمٌ واعد. تخيّلي غازاً مثل الكلور، حالما نتنشّقه نموت على الفور. يمكن تسييله بسهولة وبالإمكان إطلاقه في قذائف أو إطلاقه ببساطة مع هبوب الريح لتحمله باتّجاه العدوّ. عندئذٍ يبثّ دخاناً أصفر هائلاً من شأنه أن يُسمّم جيشاً بأكمله. الأمر شبيه قليلاً بتسميم الجرذان... شرط ألّا يتبعثر في الهواء... وإلّا لَخفّت فعّاليّته. الأمر يستحقّ الاختبار، أليسَ كذلك؟

- ما تقوله فظيع!

- الحرب الكيميائيّـة محظورة ولكنّها في الواقع أشبه بتخريب ألمعيّ، أو حلّ علميّ... على كلٍّ، آملُ ألّا ندخل قريباً في حرب مع ألمانيا لأنّ الألمان في هذا المجال أفضلُ منّا بأشواط... ولكن بالمقابلِ لدينا حظوظ في النجاح في علم الجراثيم.

- قلت الجراثيم؟

- وهل هناك وسيلة أفضل منها لإضعافِ العدوّ؟ تنشرين وباء الجمرة الخبيثة أو الرّعام لدى خيول العدوّ وبعد ذلك... طاخ! تتضاءل خيوله ووسائل نقله بشكلٍ كبير... أمّا البشرُ فيمكنُ إطاحتهم بوباء الكوليرا أوالتيفوس أو حتّى الطّاعون.

- هذا مرعب! وماذا لو أصِبتَ بالعدوى؟

- في الأمر مخاطرة! على أيّ حال ثمّة استراتيجيّـة جديدة يجب تطويرها... اسمعي! هذا يوحي لي بكتابة مقال عن «الحرب المعاصرة»، عنوانٌ جيّد أليس كذلك؟

- منَ الأفضلِ لكَ أن تدرسَ الفيروسات!

قالت له ذلك وهي تجلس لشعورها بالتعب كما في كلّ يوم عند نهاية بعد الظّهر. كان الطّفل يتحرّك في بطنها، لا بدّ أنّه أخذ يشعر بالضّيق.

أتتها آلامُ المخاضِ الأولى ذات صباح من تشرين، في يومٍ خريفيّ كانت الطّيور الكبيرة ترسم فيه خطوطاً في السّماء المشرقة. كانت طيورُ البطّ والأوز الرماديّ الآتية من الشّمال تهربُ باتّجاه مناخات إسبانيا وأفريقيا الأكثر اعتدالاً. أُحضرَت القابلة آنّ على وجه السّرعة.

عندّ الظّهيرة، وُلد أرمان.

ما إن رأت القزم المجعّد ذا الوجه الأحمر وهو يصرخ ملء رئتيه حتّى ضحكت أوّلاً من غباء أودويرتس. ثمّ شعرت ببساطة وهي تحمل الطفل بين ذراعيها بفرحٍ كبير يغمر كيانَها وبتعبٍ في الوقت نفسه، وبالدهشة والرضى أيضاً. كان الأمر في غاية البساطة. صار لديها ابن! مرّت الأيّام الأولى في إطعام الرضيع الذي كان نهماً بعض الشيء، وفي العيش داخل زمنٍ لا يوجد فيه أيّ فرق بين اللّيل والنهار، كان أرمان سيّد إيقاعه الحميم.

كانت فترة عصيبة بالنسبة لليلي. تساقط شعرها بغزارة. وأمام المرآة المبقّعة، حين يتسنّى لها الوقت لتفكّر في نفسها، كانت تُفاجأ بتعاظم ردفيها وترهّل بطنِها فتعلّق قائلة: «فيلة» وتكرّر: «فيـ......لة».

كان أرمان طريّ العود هشّاً وكانت سعيدة باعتنائها به. ومع ذلك كانت تبكي دوماً دون سبب. إلّا أنّ الجميع كانوا يُشجّعونها: آنّ وهنري وأودويرتس، قائلين لها إنّها كانت محظوظة لأنّ طفلها ينبض عافية ولأنّه ينامُ إجمالاً على قدر عافيته. لم تكن تعير ما يقولونه بالاً لشعورها بالذنب لأنّها تُسكن ابنها في هذا المكان المنعزل ولأنّ الرجاء الذي تقدر على منحه إيّاه قليل.

ذاتَ صباح، بعد أن أرضعَت أرمان واستسلم للنّوم أخذت تتنزّه عند تخوم الغابةِ المجاورة للمزرعة. مرّت سريعاً بالقرب من شجرة جوزٍ كانت التّربة في أسفلها مقلوبةً حديثاً، هناكَ حيث دفن هنري حبلَ مشيمتها. قال لها إذا لم تدفن المشيمة فلن يعود بإمكان أيّ رجلٍ أن «يعاشرَها». كان يلفظ الكلمة بلهجة عالم فلك يتحدّث عن اصطدام عالمين. هزّت كتفيها باستخفاف لكنّها تركته يقوم بالمهمّة.

بالقربِ من إحدى البِرَك لمَحَت طائراً ميتاً، كان طيراً بديعاً مهاجراً، رأسه الأصهبُ المزيّن بذؤابة صفراء ينتهي بمنقارٍ رفيع. إنّه أحد طيورِ البطّ الآتيَة من الشّمال التي تفضّل أن تهرب ليلاً مصدرة صفيراً يشبه حنين خذاريف [72] أُطلقت بأقصى سرعتها. كان مستلقياً على جنبه مظهراً زغب بطنه الأبيض، ولا يحملُ أيّ آثار جروحٍ. لم تجرؤ ليلي على حمله وعادَت إلى هنري لتعلمه بما رأت. لدى دخولها البيت سمعت أحدهم يسعل في الغرفة.

كان هنري طريح الفراش متدثّراً بلحاف سميك. فتحَ عيناً واحدة حين تقدّمَت ليلي صوبَه. كان يلهج ثمّ قال لها وهو يرتجف: «أشعر بدوار... أسوأ ممّا حين يتعتعني السُّكْر. إنّها الإنفلونزا على ما أعتقد. اطلبي من بول أن يعتني بالحيوانات بدلاً منّي». خرجت بسرعة ونسيت أن تحدّثه عن الطائر النافق.

بعد ثلاثة أيّام، كانت حمّى هنري لا تزال مرتفعة على حالها. اغتنمَت آنّ فرصة اهتمام ليلي بالحيوانات وذهبت لإبلاغ أودويرتس في لان. كانَ يتوجّب على هنري أن يتعافى في أسرعِ وقتٍ ممكن. لم يكن بإمكان بول المؤاكر الاعتناء بالحيوانات لا سيّما وأنّ الخنازيرَ كانت مريضة. ثمة خنزيرة ضخمة تزن أكثر من مائة كيلوغرام كانت مستلقيَة بلا حراك بالقرب من معلَف الحظيرة، وصغارها تدور حولها وكأنها تتساءل عمّا جرى للأمّ. لدى اقترابها، رأت ليلي

أنّها دهست أحد الصغار الذي لم يستطع أن يبتعد في الوقت المناسب. كانت الخنزيرة نافقة والذباب يحوم حولها، وكانت فاتحة خطمها كاشفة لسانها الضّخم وبدا وكأنّها تحدّق إلى ليلي بعينيها الصغيرتين الماكرتين.

عادَت القابلة بعد ثلاث ساعات وحيدة. لا بدّ أنّ أودوريرتس اضطُرّ إلى السّفرِ لأنّ منزله كان موصَداً ومصاريعه مغلقة. قيل لها إنّه ذهبَ إلى باريس، الأمر الذي فاجأ ليلي لأنّه لم يُخبرها شيئاً بهذا الخصوص.

في انتظار عودته، لم تكن ليلي ولا آنّ تعرفانِ كيفيّـة الاعتناء بهنري. أخذ ينزف من فمه ويسعل حتّى تمزّقت شعبه الهوائيّـة. لم تكن الكمّادات الرطبة التي تضعانها على جبهته بقادرةٍ على تحسين وضعه. أخذت ليلي تفكّر بكلّ ذلك وهي تُطعمُ النّموس إلى أن لاحظت أنّ ثلاثة منها طفقت تعطس. راقبتها، بدا لها أنّها تواجه صعوبةً في التنفّس. لكأنّ مرض هنري أو مرض الخنازير استطاع أن ينقلَ العدوى إليها. كان أودويرتس يقول إنّ الأمراض لا تنتقل من الحيوانات إلى البشر فالجراثيم ببساطة ليست هي نفسها. يمكن بالطّبعِ للإنسان أن يُصاب بعدوى من الحيوان كداءِ الكلَب ولكن لا بدّ من تضافر ظروف نادرة جدّاً لحدوثها. ومع ذلكَ كانت حرارة النّموس مرتفعة. يكفي النّظر إلى عيونها الدّامعَة للتحقّق من ذلك.

خطَرَت لها فكرة القيام بتجربة. جمعَت في منديلٍ مخاط هنري وبصاقه وحقنت بهما المجرى الأنفيّ لنمسَين في صحّة جيّدة وعزلتهما في قفص بعيداً عن النّموس الأخرى. هكذا بإمكانها معرفة ما إذا كانت الجراثيم تستطيع الانتقال من البشرِ إلى الحيوانات.

في صباحِ يوم الأحد، أخرج بول العربة للذّهاب إلى سان كانتان. كان مرتدياً بذلة مخمليّـة وقميصاً دون ياقة. هذا الرّجل القصير الأسمر البدين الذي

يتكلّم قليلاً ودائماً في لهجةٍ محلّيّـة تجد ليلي صعوبة في فهمها، كان يتردّد على الحانات حيث ينفق مدّخرات أسرته القليلة، على الرّغم من استياء زوجته ماربيت التي تلقّت ضرباً مبرّحاً لم تعد تجرؤ معه على الاعتراض. كان المؤاكر يسعُلُ بشدّة وهو يربط حصانَه إلى العربة لدرجة أنّه توقّف عدّة مرّات أثناء فعله ذلك. اقترَبَت ليلي من بول. وحين سقطت قبّعته أرضاً، التقطتها وناولته إيّاها مصوّبة نظرها إلى عينَي البيكارديّ المحمومتين ثمّ قالت له بصوتِها الأرقّ: «عليكَ أن ترتاحَ يا بول. لا تبدو بصحّةٍ جيّدة». أخذ القبّعة منها دون أن يشكرَها. وصرخ بصوتٍ أجشّ وهو يجهد للصّعود إلى مقعد العربة: «توقّفي عن وعظي!». كان ذلك يوم متعتِه الوحيد. لن يمنعه أحد من أن يُهدي نفسَه هذه المتعة وتمضية القليل من الوقت المبهج.

بعدَ زيارة حانتين في فترة بعد الظهر، صعدَ بول مع الآنسة أدلين، وهي شابّة مقيمة في «المنزل التركي» وقد وصلَت حديثاً من تييراش [73]. أوّل المساء، لدى عودته إلى المزرعة، أعرض بول عن تأنيب ماربيت وذهب توّاً إلى الفراش وقد خبّلته الكحول والحمّى. لن يتسنّى له أبداً أن يعرف ما حصل، لكنّه نقل العدوى إلى العديد من رفاقه الندامى وكذلك إلى الآنسة أدلين التي نقلتها بدورها إلى جميع زبائنها، فالشّابّة اللّاهبة كانت تحقّق نجاحاً منقطع النّظير.

بحلول اليوم السّابع، بدأ هنري بالهذيان مطلِقاً صرخات جشاء شبيهة بِرُقىً. ظهرت بقع زرقاء حول أذنيه وشفتيه، ثمّ اتّخذ وجهه الذي كان شاحباً حتّى ذلك الحين صبغة داكنة. بدا أنّه يختنق. ركضت ليلي مذعورة للبحث عن آنّ.

حين عادَت المرأتان إلى الغرفة، كان رجل النّموس قد أسلمَ الرّوح. اتّخذ وجهه بعينيه المفتوحتين على مداهما هيئة رجل كابد عذابات هائلة. لم يسبق لليلي أن رأت هذا المنظر: كان لونه أزرق بالكامل.

عهدت بأرمان إلى القابلة وغادرت متّجهة إلى لان. كان يتوجّب عليها بأيّ ثمنٍ التحدّث إلى أودويرتس فهو يعرف ما يتوجّب فعله. وجدت كلّ مصاريع منزله مغلقة. ولم يكن لدى الجارات أيّ معلومات عنه علماً أنّهنّ كنّ جميعاً سعيداتٍ بأنّ الممسوس، كما كنّ يصفنَه، غادرَ الحيّ. قيل لها إنّه كان في باريس. وجدت ليلي الأمر في غاية الإبهام وعادت قلقة إلى المزرعة، متسائلة هل ستُصابُ بالعدوى هي أيضاً. وفي ذلك الوقت بالذات، في حين كانت تُرضعُ طفلَها! إذا مرِضَ أرمان فلن تغفر لنفسها أبداً.

بعدَ يومين، لدى العودة من جنازةِ هنري، ذهبَت ليلي لتُطعِمَ النّموس في القبو. كانت الرّائحة النّتنة خانقة. نفقَ النّمسان اللّذان عزلتْهما. مكثت هناك أمام القفص مصدومة، متسائلة عن معنى هذا كلّه حين سمعَت مارييت تخرج من غرفتها وهي تصرخ. هرعَت لترى ما بها. كان بول قد توفّي للتّو.

كان وجهه أزرق.

وبعد ثلاثة أيّام، جاء دورُ مارييت.

اتّخذت ليلي قرارها. قبلَ رحيلها سجّلَت ملاحظاتها في إحدى المفكّرات على غرار ما كان يفعل أودويرتس.

«لا أريد البقاء هنا. المزرعة موبوءة بأكملها. لم أرَ هذا من قبل: ثلاثة أشخاص أقوياء البنية وأصحّاء لقوا حتفهم. العلامات السريريّـة هي: الحرارة المرتفعة جدّاً، آلام الرّأس، السعال المستمرّ، الصعوبة المتزايدة في التنفّس.

لكنّ الخنازير هي أيضاً مريضة، وقد نفق بعض البطّ، ويبدو أنّ النّموس تعاني هي أيضاً من هذا المرض. لكأنّ المرض نفسه يصيب البشر والحيوانات.

«يقول أودوريرتس إنّ الجراثيم لا تنتقل من البشر إلى الحيوانات. ومع ذلك يبدو الأمر هنا كما لو أنّ الجرثومَة نفسها تتفشّى بين جميع الكائناتِ الحيّـة. ليته هنا ليشرَح لي الأمر، لكنّه لا يزال مفقوداً. على أيّ حال، أشكّ في أنّه عاين هذا النوع من الأوبئة.

«قرّرتُ أن أعود مع أرمان إلى المنزل في بريمونتريه. أعرف أنّ الشّرطة يمكنها أن تأتي للبحث عنّي هناك لكنّ الخطر يبقى أقلّ من هواء هذه المزرعَة الذي سمّمته جرثومة مجهولة.

«نسيت أن أشير إلى علامة. في النّهاية، يصبح وجه المرضى المحتضرين أزرق بالكامل، أزرق داكناً مرعباً. أعتقدُ أنّ هذا ما يُسمّيه الأطبّاء «سيانوز». الكلمة لا تعبّر عن الرّعب الذي يتملّكك حين تنظر إلى هذه الوجوه التي يبدو أنّها لم تعد تمتّ إلى البشر بِصلة».

وضعت الريشة جانباً منتظرةً أن يجفّ الحبر، ثمّ أغلقَت المفكّرة الصغيرة. في السّرير، أخذ أرمان بالبكاء. أعطَته ثديها، ونظّفَته ثمّ وضّبت أمتعتها على عجَل. ربطت العربة إلى الحصان وانطلقت إلى بريمونتريه متعهّدةً بإخطار الكاهن ليأتي ويعنى بدفن مارييت.

جمعيّـة عمل الشّمال، لان، 1912

لم تعد الأخت ماري أوفرازي تتنقّل إلّا بحُكم عادة عصبيّـة كانت تجعلها تتحرّك إلى الأمام بخطواتٍ آليّـة، مجرجرة حياتها خلفَها مثل ثوبٍ فضفاض وبالٍ. منذ زمنٍ بعيدٍ وجسدها استنفدَ قواه بعضله ولحمه. مرّت أشهر وهي معفاة من جميعِ الطقوس والخدمات، تتنقّل فحسبُ بين غرفتها والقاعة حيث كانت تعقِدُ لقاءاتها مع الأب دوفال، أي «جلسات التطهير» تلك التي حظَر عليها أن تسمّيها طرد الشياطين.

كانت تجلسُ في الغرفة المغبرّة أمام المصلوب المعدنيّ الصّغير المعلّق إلى جدار الجبسِ وتلقي نظرة عبر النوافذ التي كان زجاجها الوسخ المحجّر يشوّه منظر أشجار الدّير في الخارج. كانت تهزّ رأسَها مثبّطة العزيمَة، عارفة مسبقاً ما سيحدث. في عنقها تتدلّى أيقونة جميلة للقدّيس بنوا مزيّنة من الخلف بالأحرف الأولى من العبارة اللّاتينيّـة حسبما قالت لها الأخت أديل: «ابتعد يا شيطان، لا تُحاول أبداً أن تغويني. الشّراب الذي تسكبه هو الشرّ فاشرب سُمّك بنفسك» [74]: إلّا أنّها عبثاً ردّدت الكلمات حتّى العياء لدرء الأرواح الشريّرة، فالشيطان تغلغل فيها. لم يكن راغباً في الخروج منها. في النّهار، كانت تستلقي على سريرها، وتغرق في ذهول لا تفارقه إلّا لتركعَ أمام تمثال العذراء وتتلو صلوات لم يسمعها أحد من قبل، أشبه بعباراتٍ صاخبةٍ مرتجلة تدوّي في زوايا المبنى الأربع.

فهل كانت لا تزال تعرف من هي حقّاً؟ يكرّرون على مسامعها طيلة الوقت أنّها ممسوسة وأنّ الشّخص الذي كانته ماري أوفرازي فيما مضى قد اختفـى ويعيش بدلاً منه الجسدُ المعذّب، والمَهانة، والنجاسة التي لا تُمحى، لكنّه لم يكن هي بالتأكيد. هل سمحت حقّاً للشّيطان بأن يسكنها؟ إن أرادت الصدق فهي غير مقتنعة بذلك تماماً. لا شكّ أنّها استسلمَت للخطيئة ولكنّها عرفت دوماً كيف تحافظ على ما تمليه عليها روحها التقيّـة. كانت تغضب حين يؤكّد لها أحدهم أنّ الشّيطان تسلّل إلى روحها لأنّ هذا لم يكن صحيحاً، فهي لم تكن شيطانيّـة. كانت تُصارع وتصرُخ غالباً إلى حدّ تمزيق حنجرتها دفاعاً عن براءتها. لا أحد كان يرغبُ في سماعِها ليدرك أنّها كانت ضحيّـة فعلاً ولكنّها لم تكن ضحيّـة الشّيطان.

لو أنّها تستطيع أن تسلّم نفسها لله! ولكنّها منذ زمنٍ طويل لم يعد الله بالنّسبةِ لها أكثر من مبرّر مُتَسامٍ هو بمثابَة ضامنٍ لها ولكنّه ليس مخلّصها. منذ بداية حياتها الرّهبانيّـة سلكَت الدّرب المريح لحياةٍ يوميّـةٍ تتواصل بسلاسة وهدوء. لم يعد لديها القوّة للذّهاب إلى الأعالي حيث الربّ ينتظرها كما قيل لها على الدوام. لم تعد جماعة الدّير تكترث لها، وحين تُقاد إلى هذه الغرفة كانت تعامَل مثل بهيمة يُراد انتزاعُ أحشائها، وكانت تشعر أنّها تنزلق إلى عجيج مقرف لا يمكنها التحكّم فيه، إلى أن تغرق فيه آخر الأمر.

رفعت ماري أوفرازي رأسها مبعدةً خصلة الشّعر التي انسدلت على عينها، ممسكةً بيدِها اليمنى قلادة القدّيس بنوا. لمحت على نحو غامضٍ طيفَ رجلٍ في لباس كهنوتيّ: دوفال ذاك هل كان كاهناً أم جلّاداً؟ كانت تعرف، إلى حدّ الغثيان، الطّقوس وأدواتها: الملح، والماء المقدّس، والعلبة الفضيّـة التي تحوي القرابين المكرّسة، والمصلوب المعدنيّ الصّغير. كان دوفال يمسك يديها ويشدّ عليهما وهوَ يتلو عباراتٍ باللّاتينيّـة تحوّم حول رأسِها مثل أفاعٍ

أسطوريّـة، يتبعها برشّات ماء تسيل باردة على طول خدّيها، وأسئلة، بالفرنسيّـة هذه المرّة لكنّها فارغة من أيّ مضمون. كانت تتهرّبُ منها كمَن يُجنِّبُ المحكوم ضربةً قاضيَة صارخاً بالشتائم ولكن فارغ الرأس. لم تكن هي من تقوم بردّة الفعل، بل كانت أعصابها وعضلاتها وأحشاؤها هي التي تتقلّص بطريقةٍ آليّـةٍ للتّغلّب على الاشمئزاز والخوف. كانت الكلمات الجوفاء يتردّد صداها مراراً وتكراراً منذ كم من الأيّام، كم من الأشهر؟ وقف ذاك الرجل زمناً طويلاً أمامها عديم الرّحمة لا يعرف الكلل، ولا يني يعذّبها بأسئلته الملتبسة. لم يكن لديه اسم أو أنّها في تلك السّاعة لم تعد تكترث لاسمه. كان المسؤول عن هذا القسط الكبير من المعاناة، وعن هذا العار الهائل الذي ترزح تحت ثقله، لا غير. أخذ الدم ينبض في أذني ماري أوفرازي، وأخذت تصرّ بأسنانها لدى التّفكير بمثل هذا الشرّ. ها قد اصطحبَ رجلاً آخر يحمل آلة تصوير هائلة إمعاناً في إذلالها.

اقترب منها، مدّ يده لينتزع القلادة: «ابتعد أيّها الشّيطان...» وفي لحظة من وضوح البصيرة أدركتْ أين يكمن الخلاص: في تبديد الشّيطان وطقوسِه وكلّ ما يفصلها عن حياتها الهادئة السّابقة. تراجعَت إلى الخلف لتمنعه من الإمساكِ بالقلادة. «الشّراب الذي تسكبه هو الشرّ»... كان يصرخ ويهدّدها. فعل ذلك مراراً! يجب أن يتوقّف هذا. قرّرت هذه المرّة أنّ من الضّروريّ أن تضع حدّاً لعذابها. كان يكفيها جهد أخير وكلّ شيءٍ ينقلبُ إذ ذاك رأساً على عقب. كلّ شيءٍ يمكن أن يبدأ من جديد كالسابق، أو بشكلٍ مختلفٍ، ولكن من دونه، من دون هذا الذّعر. «اشرب سُمّك بنفسك». شدّت على قبضتيها، لم تعد تشعرُ بأيّ من آلامها، كانت مشدودة بكلّيّتها إلى هذا الشخص الذي ينكّل بها. لحظةَ أمسك الأب يدها، انقضّت عليه ورفعته، من دون جهد، كما لو أنّ وزنَه

أخفّ من وزن طفل. حشدَت كلّ طاقة الحياة فيها، حياة لم يعد فيها مكان لأيّ خيار، ودفعته باتّجاه الزّجاج، خارج النّافذة.

في الدّير، كان ألكسي كافيل يتحدّث مع الأم أديل. كان الاثنان متّفقين على أنّ الحرب مع الألمان محتّمة. الأفضل أن تكون وجيزة وأن تخرج منها فرنسا الكاثوليكيّـة أقوى. سُمِعَ صوت تكسُّر زجاج فوق رأسيهما. وبعد ثانية تهاوى جسد الأب دوفال محطّماً على الحصى، على مسافة أمتارٍ قليلةٍ منهما. اقتربا بسرعة، كان الكاهن ممدّداً بِلا حراك على ظهره ممزّق الوجه. فوق، في إطار النافذة، كانت الأخت ماري أوفرازي تنحني بشكلٍ خطرٍ وراحتاها مجرّحتان بالزّجاج، وأخذت تطلق صرخاتٍ حادّة يتجمّد لها الدّم في العروق.

في الصّالون الصّغير المجاور لمحترفه، كان ريمون فاكيت لا يزال متأثّراً كليّاً بما رآه في ذلك الصّباح بالذّات. هذا الرّجل القصير القامة النّحيف الأشقر، الشّغوف بما هو تقنيّ، سعى دوماً لتجنّب المتاعب مهما تكن الظروف. وجد في التصوير الفوتوغرافيّ مهنة تناسبه تماماً. المصوّر هو الرّجل الذي يوجد خارج إطار الصورة، تاركاً للآخرين نصيبهم من التباهي ومن المشاكل. ليس هناك ما هو أكثر من التّصوير توافقاً مع حكمته في الحياة: إذا أردنا العيش بسعادة فلنعش مختبئين. وعلى الرغم من ذلك كلّه نجا بصعوبة في تلك الصّبيحة من براثن الرّاهبة المسعورة التي دفعت بالأب دوفال من النّافذة. تسنّى له الوقت فقط لترتيب معدّاته الضّخمة والفرار قبل أن تلتفت ماري أوفرازي إليه. الغريب أنّ هذه المرأة العجوز التي كانت تبدو غائبة عن العالم بقامتها القصيرة وهيئتها الحزينة السقيمة استطاعت أن تمسك بالكاهن بسرعة أثارت في نفسه الرّعب.

كان صراخ الرّاهبَة يُنفّر فاكيت، وذلك الصّوت الثخين المرتعش بنبرته الجشّاء. ناهيك عن تلك الرّائحة النّتنة! كان يواجه صعوبة في الاقتراب منها عندما كان الأب الرئيس يطلب منه لقطاتٍ قريبة. أمّا الاعتقاد بأنّ الشّيطان كان يسكنها... كلّ ما في الأمر أنّ المسكينة فقدت عقلها. على أيّ حال كان يشقّ عليه أن يفهم كيف أنّ الرّاهبات لا يُصَبْنَ بالجنون. أن تبقى الرّاهبة محتبسةً طيلة الحياة متخلّيَةً عن كلّ ما هو ممتع أمر مخالف للصّواب!

أشعلَ المصباح. تحت الضّوء الأصفر، بسط الصّور على الطّاولة المغطّاة باللّبّاد الأخضر. كان مسروراً مع ذلك بمجموعة الصّور التي التقطها

منذ شهرين. استطاع أن يلتقط الغرابة الكيديّـة لماري أوفرازي وتصرّفاتها الرّعناء، المضحكة أحياناً، وكذلك لحظات انطوائها على نفسها حيث تبدو مثل كرة من الطّاقة المركّزة المستعدّة للانفجار. كانت بعض تعابيرها مذهلة، إذ تضحك أو تتّخذ هيئة ظافرة تجعلها تبدو غريبة. لكأنّها تلبّست هيئة شخصٍ آخر.

تفحّص فاكيت اللّقطات المقرّبة. أصرّ عليه الأب دوفال أن يصوّر عينيها في اللّحظات التي كانت ماري أوفرازي تبدو فيها غريبة عن نفسها، فتتحدّث بصوتٍ لا يعود صوتها بل يغدو أشبه بهمهمة أكثر منه كلاماً. كان دوفال يزعم أنّه يلمحُ آنذاكَ صورة مطبوعة على حدقتَي الممسوسة. وبرغم الرّائحة الكريهة التي لا تطاق، امتثل المصوّر لرغبة دوفال. في إحدى اللّقطات المأخوذة حتّى الركبَة، كانت الرّاهبة محملقة العينين ونظرتها تحدّق إلى شيءٍ بجوار العدسة، وبالإمكان فعلاً رؤية ما يشبه انعكاساً على الحدقة.

استعان بمنظاره المكبّر ليفحصَ الصّورة ذاتَ اللّون البنيّ الداكن. أجل، كان ثمّة انعكاسٌ على الحدقة، وأكثر من انعكاس: صورةٌ يصعُبُ تفسيرُها، ربّما كانت وجهاً. تعهّد أن يُرِي دوفال ذلك عند خروجه من المستشفى.

توفّيَ الأب دوفال بعد شهرٍ في أحد مستشفيات المدينة السّفلى، دونَ أن تُتاحَ له الفرصة لمعاينة صور فاكيت. نجمَت عن سقوطه عبرَ النافذة إصاباتٌ عديدة، وأفدحها كانت قطعة الزجاج الباترة مثل رأس السّهم التي بقيت منغرزة في حالبه. وما زاد الأمر تعقيداً أنّ أحدهم سارع، في حالة الذّعرِ السّائدَة، ربّما كان الكاهن كافيل، إلى انتزاع قطعة الزّجاج هذه دون حذر، ممّا تسبّبَ بنزيفٍ أضعفَه إلى حدٍّ كبير.

بعدَ بضعةِ أيّام أمضاها في مستشفى لان العموميّ، أصرّ دوفال، الذي اضطرّ للتنازل عن كلّ حقّ في ميراث لوفران، على العودة إلى «عمل الشّمال». رفضَ كلّ علاجٍ طبّيّ دنيويّ وأراد مداواة نفسه بالعلاجات الموروثةِ من الأب بولان، مقتنِعاً بأنّ القرابين المكرّسة، ولصقات البراز على جروحه، وتنظيفَ النّدوبِ باستخدام بَولِه بالذات، ستضمَن له الشّفاء العاجل. بعد مضيّ أسبوعٍ أوجبت عذاباته المبرّحة نقله من جديد إلى أحد المستشفيات. فكّرت الأمّ الرّئيسَة بعيادة صغيرة قريبة من الجمعيّـة. كانت العيادة سيّئة السمعة، ولكن على الأقلّ لن يبتعدَ الأب دوفال عن جمعيّته الحبيبة «عمل الشمال».

ما إن يجتاز الزّائرُ عتبة هذا المبنى الطبّي، وكان قصراً إقطاعيّاً سابقاً يعودُ إلى القرن السّابع عشر، حتّى تصدمه الرّائحة النفّاذة الكريهة التي تبدو وكأنّها معشّشة في الجدران. ذلكَ أنّ نتانة المكان وقذارته هما أشبه بحكم مسبق بالإعدام على المرضى الذين أُدخلوا إليه. كانت الألسن النمّامة تشيع أن الجرّاحين أنفسهم كانوا يتردّدون في إجراء عمليّاتهم لأنّ خطر الإصابة بالتهابات كان جسيماً.

هناك التقى الأبُ دوفال بالشرّ الذي تعمّد السّعي إثره طيلة حياته. تجوّف وجهه الضيّق، واستحال شعره القليل رماديّاً. واللّحية التي أولاها عنايته على الدّوام لم تعد إلّا مجموعة من الشعيرات البيضاء المبعثرة. كان الأطبّاء بجانبِ سريره يتحدّثون عن التهاب الجلد والتقرّحات وتسمّم الدّم، وهي أسماء بدت له غريبة كأسماء الشّياطين التي وُلدَت من نتانة المستشفى. كانت أقلّ رنيناً من اسم عزرائيل الذي أطلقه عليه أوجين فنترا فيما مضى. ولكنّ عزرائيل دخلَ جسدَه وكان يعذّبه. وسرعان ما رفضَ دوفال كلّ الزّيارات وفقَدَ الاهتمام بالناس. لا أديل ولا كافيل ولا فاكيت ولا حتّى مبعوثو الأسقفيّـة استطاعوا التحدّث إليه. لدى اقتراب الزائر منه كان يتظاهر بأنّه يغطّ في نومٍ عميقٍ تتخلّله نوبات ألمٍ لا يستطيع لجمَها.

شيئاً فشيئاً، أصبحَ جرحه ندبة والندبة تقرّحاً ثمّ تفاقمت تقرّحاته. وحين اجتاحَ ساقيه «وحل الجرح»، وتلك عبارة كان أطباؤه يستخدمونَها لأنّ كلمة «غرغرينا» تُشبِهُ إلى حدّ كبيرٍ الحُكم بالإعدام، تذكّرَ تعاليمَ الأب بولان عن هبوط آدم من الجنة. تذكّر القدّاسات السّوداء التي كان يقيمها، واللّحظات التي أصبح فيها كاهنَ الشيطان وبلغ، كما طاب له الاعتقاد، عتبة الجحيم. كان يرى من جديد، والألم يفتك به، الاحتفالات والقامات العارية المتنكّرَة بأقنعة التّيوس منبثقةً من دخان البخور، ولم يعد يعرف تماماً ما إذا كانت المشاهد تجلّيات الشّيطانِ أو مجرّد مؤثّرات مسرحيّـة باذخة. آنذاك كان سؤال يعاوده: هل اقتربَ «حقّاً» من المعلّم؟ كان يعيش لحظاته الأخيرة، تينك اللّحظات التي يعترف فيها المسيحيّ وينال الغفران، لكنّه كان يجهل كيف يموت عابد الشيطان. لا مجال لديهِ للنّدم والقلق والتحسّر وإدانة الذات. أراد أن يجلّ نفسه وينتصر وينتشي. بازّاً الكثيرين في صفاء ذهنه، أدركَ أنّ الشّيطانَ وحده يمكن أن يُرضيه لأنّه لم يحبّ إلّاه. ربّما لم يرقَ إلى مستوى المعلّم الذي

اختارَه لأنّه بقيَ محتجباً عنه في هذه اللّحظات الأخيرَة. ومع ذلك، حين تمنحهُ آلامه هدنة قليلة، كان يتحرّى بإصرار إشارة منه أو نداء.

ثمّ، من أعماق آلامه، أدركَ أنّ الشّيطانَ ربّما كان تجلّى عليه حقّاً في ذلك المكان الموبوء، وأنّ جسدَه المتعفّن، الذي تلتهمه الجراثيم ويستنزفه العذاب، كان جسدَ ملعونٍ ذاهبٍ إلى جهنّم. وبالضبط قبلَ وفاته بقليل جمع قوّته ليرسمَ ابتسامة أخيرة تحيّـةً للمعلّم الذي لم ينتظر موته ليأخذه إلى الجحيم.

مصحّ سانت آنّ، حزيران 1919

منذ دقائق قليلة ازداد صوت ليلي جُشّةً، حتّى كاد لا يُسمَع. أشار لها الدكتور أمبرتو بالتوقّف عن الكلام. نهض، ثمّ أخذ الإبريقَ من المنضدة الموضوعة جانباً وصبّ بعض الماء في الكوب المعدنيّ. فيما كانت ليلي ترتشف الماء ببطءٍ بدا مفكّراً. قال بنبرَةٍ متردّدة: «سنتوقّف اليوم عندَ هذا الحدّ».

أعادَت له الكوب: «حسناً دكتور».

اقترَبَ لفحصِها. أرجعَت جذعَها إلى الخلف قدر ما تستطيع والتصقَت بالحائط خلفها محملقةً بعينيها. وفجأةً، أطلقت صرخةً صغيرَة حادّة.

سألَها الطّبيبُ قلقاً: «ماذا هناك؟»

بدَت خائفةً وصدرها يتخبّط بقوّة:

- الماضي ضبابيّ يا دكتور وذاكرتي تزداد ضعفاً.

- ماذا تقصدين؟

- لا أعرف... ذهني مشوّش...

هزّت رأسَها بخفّةٍ وعيناها مخفضتان. أمسكَ أمبرتو معصمَها برِفقٍ متحسّساً نبضها: كان منتظماً لكنّ يدَها متجلّدة. كان أمبرتو يعرف الخُدَع التي يتوسّلها المرضى لجذبِ انتباهِ من يُقدّم لهم الرّعاية فهو يتصدّى لها باستمرار.

كان راغباً في استئناف الحديث صافيَ الذهن، بمنأى عن الانزعاج الذي غالبه حيال ما روته ليلي. لم يكن يريد أن يفقد السّيطرة على الحديث لا سيّما بعدما اتّخذ هذا المنحى المفاجىء والغامض الذي جعله يبدو وكأنّه «معنيّ» بمريضته أكثر ممّا يستلزم الأمر، فيما كان يعزو هذا الشعور لتعبِه. لكنّ ليلي أصرّت بصوتٍ ملهوف: «علـيّ أن أشرحَ لك. الآن، قبل أن تخونني الذّاكرة...»

- أنتِ بحاجةٍ إلى الرّاحة يا ليلي.

رفعَت رأسَها وبدَت حائرةً متأثّرةً بذكرى ربّما كانت لا تزال غضّةً طرية:
- ماذا أسميتني؟

نظرَ إليها أمبرتو دون أن يفهم:

ماذا دهاكِ! ناديتُكِ باسمكِ، ليلي... ليلي روسو!

من جديد هزّت رأسَها:

- ليلي ليس اسمي الحقيقي كما تعرف. ولا روسّو اسم عائلتي على أيّ حال، لكنّ تلك قصّة أخرى.

- ما قصدك؟

- كان هناك اسم مطرّز على أقمطتي وأنا رضيعة حين عُثِرَ علـيّ: «ليليت».

- اسمٌ غريب! مأخوذٌ من خرافة مشؤومة [75] على حدّ علمي. من أطلقَه عليكِ؟

قالت بلهجة جافّة:

- لا أعرف ولكنّ هذا الشّخص وسمَني بعلامة في جبهتي... لستُ متطيّرة يا دكتور ولكن في مرحلةٍ ما من حياتي، عادت ليليت.

نهض أمبرتو ليُراقبها ثمّ ما لبث أن جلس. يجب عدم إعطاءِ المريض الانطباع بأنّه يسيطر على الموقف. يجب أن يتّخذَ الطّبيب مسافةً من المريض تشجّعه على البوح. هذا هو معتقده. لكنّه أصغى بانتباهٍ جديدٍ لأنّ القضيّـة اتّخذت منحىً غير متوقّع. «هل قلتِ ليليت؟ أما زالت هنا؟ من يكلّمني في هذه اللّحظة؟ من يروي هذه القصّة؟»

احتفظَت بالصّمت وعيناها شاخصتان إلى يدها بأظافرها المقضومة والمكسورة. مسّدَ أمبرتو لحيته لائماً نفسَه لأنّه طرحَ سؤالاً غير مناسب يدفع المريضة إلى التمنّع عن الكلام بدلَ الاعتراف. فكّرَ وهو لا يزال متردّداً في تمديد المقابلة. من جهةٍ أخرى لم يكن أكيداً من أن يُوفّق على هذا النحو في المرّة المقبلة. إنّ ردود فعل المرضى تحت تأثير التنويمِ المغنطيسي كثيرة التنوّع، ومحيّرة غالباً. ربّما التزمت ليلي الصمت التامّ في الغد. تذكّر أنّه يترتّبُ عليه أيضاً أن يُعلِمَها خبراً يثير الاضطراب في داخلها، خبراً يستوجب إعلانه بحذَرٍ لفرط ما كانت تبدو له سهلة الانجراح. «انتظري لحظة».

خرج لإعطاء تعليماتٍ للممرّضِ الذي ينتظر خلف الباب. ثمّ عادَ من جديد، متفحّصاً ليلي لبضع دقائق. كانت ملامحها جامدة تحدّق أمامها في الفراغ دون أن يبدو عليها أنّها رأته. جلسَ من جديد إلى المنضدة، مصمّماً على متابعة الحديث ومجاراتها في اللّعبة التي دعته إليها. الاسم الجديد يعني شخصيّـة دفينة، قناعاً محتملاً لشعورٍ أعمق بالذّنب.

- وماذا فعلت ليليت حين... عادَت؟

لم تقم بردّة فعل. ظلّت صامتةً بلا حراك. لم يبدُ عليها أنّها سمعته.

أردَفَ قائلاً: «إلى أين ذهبتِ مع ابنكِ بعد الدوفليير؟ أخبريني».

استَدارَت ملتفتة إليه ببطءٍ وقد عادت بعض الحيويّـة إلى وجهها بتعرّفها إليه. ثمّ قالت بصوتٍ منخفضٍ على شفا الهمس: - عدْتُ إلى بريمونتريه.

- إلى قريتك؟

- لا... إلى المصحّ... يبدو أنّه مقدّرٌ لي العيش مع المجانين! هل سأخرج منه يوماً؟

بدا وكأنّها توجّه السّؤالَ إليها وحدها لكنّ الطبيب شعرَ أنّه مضطرّ للإجابة. قال لها: - الأمرُ لا يتعلّقُ بي. ماذا فعلتِ في بريمونتريه؟

أغمضت عينيها مرجعَةً رأسَها إلى الوراء لتتكئ إلى الوسادة. وبطيئاً عادت إليها الذّكريات والكلمات. ها هي من جديد في بريمونتريه حيث تعيّن مصيرها هناك.

ليليت (1)

«وفي الصباح القارس المكفهرّ

أسمعُ القذائفَ تتطايرُ ومعها الحُبّ نفسه».

غيوم أبولينير

الحرب... في البدء رأتها ليلي كما رآها أولئك الفلّاحون في ضواحي بريمونتريه الذين أخذتهم على حين غرّة ذات يومٍ مشرقٍ في أغسطس من العام 1914. سمعوا أجراسَ الكنائس تدقّ ناقوس الخطَر فهتفوا جميعهم: «إنّها النّار!». وبدأوا يتراكضون في الحقول ذاهبين باتّجاه القرية وقد استولى عليهم الذّعر. في السّاحاتِ بكت النساء ووقف الرجال على الرّصيفِ يُراقبون برج الكنيسَة دون أن يصدّقوا ما سمعوه: «إنّها الحرب!». وتوقّف المزارعون عن ركضهم لاهثي الأنفاس محملقين بعيونهم: «الحرب! ولكن عن أيّ حربٍ تتحدّثون؟» في الأسبوعِ التّالي تلقّوا جواز المرور الخاصّ بهم. ذهبَت المحاصيل سدىً. بئسَ الأمر! كانوا واثقينَ من العودة قريباً منتصرين، في عيد جميع القدّيسين على أبعدِ تقدير. ثمّ ذات يومٍ بدأت الغابة الكبيرة تضجّ بدويّ القذائف. كانوا على بعدِ كيلومتراتٍ قليلة من دربِ الأميرتين أديلاييد وفيكتوار، ابنتي الملك لويس الخامس عشر، أو شومان ديه دام [76] كما يسمّونه.

انخرَطت ليلي في العمل ممرّضةً مساعدةً في مصحّ بريمونتريه. كان المديرُ يبحَثُ آنَذاكَ عن معاونينَ لأنّ عدد راهبات المحبّة لم يعد كافياً للاعتناء بالمرضى الكثيرين. برطمت بعض الرّاهباتِ أمام هذه الأمّ العزباء التي لا يبدو

عليها شيء، حتّى النّدم. أحسنت إقناعهنّ بها وعملت بلا كلل وبمزاجٍ جيّد لا يتغيّر. ثمّ إنّه كان هناك أرمان الذي أصبحَ صبيّاً صغيراً جميلاً في عمر السنتين. تبنّته الرّاهبات ورُحن يُداعبنَ طيلة الوقتِ شعرَه الأشقر معجبات بنظراته المتوقّدة ذكاءً، الشبيهة بنظرات والدَته.

تفاجأَت ليلي بوجود الأخت ماري أوفرازي في عداد المرضى. ومع أنّ الرّاهبة القديمة في «عمل الشّمال» أمست في غاية البلادة، إلّا أنّها أُسكِنَتْ غرفة صغيرةً منفصلةً في جناح المجانين. كانت هالة من الرّعبِ الشيطانيّ تطوّقها، ولا أحدَ كان يودّ الاقتراب من الممسوسة كما كان البعض يسمّيها مسارعاً إلى رسم إشارة الصّليب. كانت نادراً ما تخرجُ من غرفتها، فقط عند المساء، حينَ كانَ الجميعُ يستعدّون للنّوم. سمنَت كثيراً وبدت كما لو أنّ صدرها وأطرافها تسبح في هلامٍ رخو. قيل إنّ شابّاً كان يأتي لزيارتها من وقتٍ لآخر وإليه وحدَه كانت تتحدّث. ذاتَ مساء حيّتها ليلي راغبةً في أن تعرِف أخباراً عن «عمل الشمال»، فنظرَت إليها الأخت بعينيها الشاحبتين المجرّدتين من الرموش دون أن يبدو عليها أنّها فهمَت، ثمّ ابتعَدَت بخطواتٍ بطيئة، ملتفّة بملابسها المدنيّـة التي لم تكن تلائمها إطلاقاً.

في شتاء 1914 حين ثبت خطّ الجبهة ممتدّاً من بحر الشّمال حتّى سويسرا، وجدَت ليلي نفسها في معسكر العدوّ، في المنطقة التي احتلّها الألمان. وهكذا بين ليلةٍ وضحاها أصبحت لانوا منطقةً على الهامش، حيث هدوء الغابات المكتسية بالثلجِ والحقولِ التي جمّدها الجليد كان يقطعه دويّ المدافع المستمرّ. وبباعث الهوس بالجواسيس والقنّاصة، قطع الألمان المنطقة عن كلّ اتّصالٍ بالخارج. وباتَ مستحيلاً التنقّل إلّا بعد الحصولِ على إذنٍ بالمرور وكان أندر من القمل على رأس الأصلع. كان بعض المعاندين

يتنقّلون بالرّغم من كلّ شيء سالكين الدّروب الجانبيّـة لتفادي دوريّات الجنود ذوي الخوذ المسنّنة [77]. وانزوى كلّ واحدٍ في ملجئه مثل حيوانٍ في جحره.

وجدَت بريمونتريه نفسها في عزلة تامّة، طيّ النسيان تقريباً. كان الألمان يتصوّرون أنّها قريَة تضمّ ألفاً وخمسمائة نسمة وأنّ بإمكانهم أن ينشئوا منطقة إمدادٍ فوجدوا فيها مائتي مزارع وألفاً وثلاثمائة مريض. وهكذا فإنّهم سرعانَ ما ابتعدوا عن هذه القرية الغريبةِ المعزولة في قلبِ الغابة، ما أراحَ العاملين في المصحّ. ولكن لسوءِ الحظّ كانت هذه اللّامبالاة مصحوبة بأقسى أنواع الحرمان. عبثاً حاوَلت ليلي أن تتقصّى أخبار ألكسندر في لان، لكنّها لم تعد تعرف إلامَ ترتكن. سئمَت ممّا كانت تروّجه «غازيت ديز أردين»، الجريدة الألمانيّـة الرديئة والوحيدة المتاحة. كانت تنتظر أن يتقدّمَ الحلفاءُ الإنجليز والفرنسيّون ويحرّروا المنطقة. لكنّ تقدّمهم طال انتظاره، وأشيع أنّه لن يحدث. ومع ذلك، حتّى النّاس الذين دمّر القصف أو الحريق منازلهم بقوا في المنطقة يرودون مثل فهودٍ حولَ بيوتهم القديمة ويعيشون متدبّرين أمورهم بأنفسهم بانتظار الهجوم العظيم الذي سيضع حدّاً للاحتلال والحرب.

هذا المصحّ الذي يضمّ أكثر من ألفِ مختلّ، والذي يفتقر إلى أدنى الأشياء، لم يكن بالطّبعِ رمز السّعادة. ولكنّ ليلي كانت فيه برفقة ابنها الذي كان يجتاز هذه الأماكنَ البائسة بلطفِهِ الطّفوليّ. بعد الانتهاء من عملها، كانت تكرّس له وقتَها في فتراتِ بعد الظّهر. سارت حياتها هادئةً وكان أرمان محورها. أرادت أن تمنحه ما حُرِمَت منه دائماً: الثقة بالحياة. تلاشت جلبَة الحربِ وطقطقة الجزماتِ بعيداً بفعل أعجوبة في هذا الملجأ الباردِ الفقير. في المساء، أثناء تنزّهها في الباحة بعد روايتها قصّة لأرمان كي ينام، كانت تفكّر أنّها موجودة تحت السّماء نفسها المرصّعة بالنّجوم أسوةً بالعديد من

الجنودِ المتجلّدينَ برداً في الخنادق، على مسافةِ بضعة كيلومترات من هناك. في خضمّ الحرب، كانت تنعم بالسلام آملةً بأن تُوفّق في حماية ابنها حتّى انتهاء الهمجيّـة.

بعد ظهيرة أحد أيّام فبراير، وللتوّ بعد وضعِ أرمان في سريره، لمحت ليلي الشابّ الذي كان يأتي لزيارة ماري أوفرازي. كان فتى رشيق القامة يرتدي ملابسَ الفلّاحين. رأته يتّجه إلى مدخل الحديقة مستعدّاً للعودة إلى لان. كانت قبّعة من اللّبّادِ تُخفي وجهه. مدفوعةً بالفضول، اقتربَت بسرعةٍ منَ البوّابة. رفع قبّعته وهو يجتازُ البوّابة لينضمّ إلى رفاقه. لشدّ ما كانت دهشتها حين تعرّفت فيه إلى ألكسندر.

ركضَت نحوَه تناديه. بالقربِ من عربةٍ محمّلةٍ بالأحطاب موثوقة إلى حصانٍ هزيلٍ حسير الثوب، كان ثلاثة رجالٍ في منتصفِ العمر ينتظرونه ووجوههم متورّدة من البرد. التفَتَ متردّداً للحظة ثمّ ابتسَم حين تَعَرَّفَها. أرادت أن تُعانِقَه ولكنّها تراجعت أمام نظرات الرّجال إليها. وفي النهايَة بقيَت مبتعدة منزعجة. قال لها وهو ينظرُ إلى لباسِها: «ليلي! أنتِ ممرّضَة... أم راهبة!؟ عندَ المجانين!».

قالت بوجهٍ مشرق: «آخذ الملابسَ التي تُعطى لي. أمّا المجانين فهم في كلّ مكانٍ الآن. أعيش بين الأقلّ سوءاً فيهم... هل لديك الوقت؟ بإمكاننا الذّهاب إلى مكانٍ دافئ في القاعة، هناك». وأشارَت إلى المباني إلى يسارِها. أومأ لها برأسِه نفياً. «إنّهم ينتظرونني...»، وأبقى عينيه منخفضتين ناظراً شزراً إلى جماعة الرجال قرب العربة «المصادَرة لنقل الأخشاب...»، وألمح إلى الشريطة الحمراء التي يرتديها في ذراعه اليمنى وتشير إلى عامل جنّدَه الألمان.

- هل أنتِ بخير؟

ابتسمَت وهيَ تهزّ رأسَها ثمّ اقتربَت منه. «أشعر بالبرد طوال الوقت، وأتناول الطّعام مرّة واحدة في اليوم، وأعملُ من الفجر حتّى اللّيل مع مرضى يتساقطون كالذباب. على الأقلّ أعاد إليّ التقشّف الغذائيّ رشاقتي، رشاقة أيّام الصّبا. حين كانت الحياة مترفة!».

بدا لها ألكسندر متغيّراً ولكن ليس نحو الأفضل. كان مختلفاً عن الشّاب الصّريح السّاذجِ الذي أحبّته. شيءٌ ما في طريقة خفض رأسه والنظر إليها خلسَة كان يجعله أشبه بحَيوانٍ خائفٍ تعرّضَ لضربٍ شديد. كان هناك تشنّج لا إراديّ يعيب وجهَه الوسيم الهزيل لاوياً فمه في جانبه الأيمن. أمسى أكثر تقدّماً في السنّ منه ناضجاً. لا بل إنّ شعرَه خفّ كثيراً عندَ الصّدغين. فكّرت في المشاقّ التي كابدها بسببها. غمرها شعور مفاجىء بالامتنان له وجعلها تعطف إليه. نسيَت خجلَها وأمسكَت بيدِهِ. فارتعش.

قال بنبرةٍ عجول: «جمعيّـة عمل الشّمال انتهى أمرها، هل تعرفين؟ كان هروبك عين الصواب. لقد أرَوني منَ العذابِ ألواناً. هي الوحيدة التي ساعدتني... قدرَ استطاعتِها...» وأشارَ بذراعه نحوَ المبنى حيثُ تسكنُ ماري أوفرازي... «الضّحايا يتضامنون، أليس كذلك!»

زادَت وتيرَة التشنّج اللّاإرادي الذي يعتري وجهه. ألقى نظرة على الرّجال الثّلاثة. أحدهم كان يُهدّئ الفرسَ التي بدأت بالرّكل. «هل كنتِ تعرفين أن أديل هي أمّي؟... وأيّ أمّ! أحسدُ اليتامى...» قالها ثمّ بصَقَ أرضاً.

- أنا أيضاً أمّ لطفلٍ يُدعى أرمان... لن أجعله يشكو منّي على ما أرجو.

- لديكِ طفل؟!... هل أنتِ متزوّجة... ومن هو والده؟

عضّت شفتَها السّفلى بخفّة. كان السؤال الذي طالما توقّعته لا يزال يحيّرها خاصّة في مثل هذا الظرف. أملى عليها حدسها أنّه لن يكون منَ الجيّد الاعتراف له مباشرة بالحقيقة. بدت لها الفرصة غير مناسبة، وأنّه غير قادر على سماع بعض الوقائع نظراً لتصرّفاته المتكلّفة وطريقته في عدَم النّظرِ إليها مواجهةً، ليس في تلك اللّحظة على الأقلّ. قالت له دفعة واحدة، وبصوتٍ هامس: «أنتَ لا تعرفه، أنا لستُ متزوّجة».

أومأ برأسهِ ثمّ ترَك يدها. بدا أنّه يفكّر وهو يرتدي قبّعته من جديد. قبلَ الرحيل، اقتربَ منها مجدّداً وهمسَ في أذنها بسرعة: «اسمعي، ليسَ لديّ وقت... حالما تقدرين، تعالَي إلى الكاتدرائيَة في العاشرة صباحاً بتوقيت فرنسا... ادخلي خفية واتّجهي إلى العمود الصغير الخامس شمالاً بدءاً من المدخلِ وانتظري هناك... انتبهي، تعالي فقط في الأيّام التي عددها شفْعٌ، باستثناء الأحد. هل فهمتِ؟

قالت له بصوتٍ منخفض:

- ألكسندر، لا نستطيعُ التجوّل دون إذن.

تقدّم أحدُ الرّجالِ صوبهما متذَمّراً. وبحركةٍ من يده أشارَ له ألكسندر أن ينتظر. للمرّة الأولى منذ بداية لقائهما حدّق إلى ليلي مباشرة. ثمّ همس لها: «تدبّري أمرَكِ. لا تقولي شيئاً لأحد وتعالَي. لن تندمي!». تراجعَ الحصان المتجمّد من البرد، أخذ يصهل والبخار الكثيف يتصاعد من شدقه. قال لها وهو يبتعد: «إلى اللّقاء ليلي. لا تتأخّري في المجيء!».

قبلَ أن يصعدَ إلى العربَة، التفَتَ وبالنبرَة السّريعة، الشّاردة لمن استدرك لتوّه ضرورة القيام بواجبه: «سررْتُ برؤيتكِ».

تعرّفت ليلي على لان بصعوبة. بعدَ ساعةٍ من السّير عبر الغابة المكسوّة بالثلج متفاديةً خلالها إحدى الدوريّات، وصلَت إلى الباب الذي يحرسه جنديّان. اختبأت خلف دغلٍ وجلسَت ترتاح من عناء الصّعود. استيقظ الخفيران من قيلولتهما حينَ حاولت عربَة محمّلة بالخشبِ دخول الطريق الضيّقِ الزّلِق. توجّب سَوط الخيول ودفعها، وقدّم صاحبا الخوَذتين المسنّنَتين بعض المساعدة. استغلّت ليلي الفوضى لتتسلّل دون أن يُلاحظها أحد.

داخل المدينة العليا، في الشّوارع شبه المقفرة، بين المنازلِ التي دُمّرَ العديد منها، كان كلّ شيءٍ يُشيرُ إلى أنّهم في الأراضي الألمانيّـة. أصبحَ قصر العدل مقرّ القيادة الألمانيّ، والكنيسة تحوَلت إلى مستشفى حيث يُستقبلُ الجرحى، واستبدل باسم المقهى الكبير «لا كوميديا» اسمَ «الركن الألماني» Deutsches Ecke[78]. حين دارت ليلي حول منزل أودويرتس لتمرّ أمام «المخبزِ العسكريّ» Militär Bäckerei الذي كانت تفوحُ منه رائحة الخبزِ الساخن، دقّت ساعة الكاتدرائيّـة بالتوقيت الألمانيّ. أشيع أنّ الجنود كانوا يوقفون المارّة ليسألوهم عن الوقت وأنّهم كانوا يسجنون كلّ مَن ضبطوا ساعتهم على التوقيت الفرنسيّ. بما أنّه ليس لديها ساعة ولا تصريح انسلّت إلى ركن في أسوار «ميدي» وانتظرت صابّةً جام غضبها على الفضول الذي قادَها إلى هناك، لأنّ في الأمر مخاطرة كبيرة. إذا اعتقلَها الألمان أُرسلت إلى معتقلٍ للسّجناء أو أُعدمت بالرّصاص في حالة اعتبارها جاسوسة.

في السّاعة التّاسعَة والدّقيقةِ الخامسَة والأربَعين، دخلَت الكاتدرائيَة بأكبر قدرٍ ممكنٍ منَ التكتّم وذهبَت لتتكئ إلى العمود الخامسِ يساراً. كان نهاراً مشمساً، وفي آخر جناح الكنيسة كان الضّوء يجعل الزجاجيّات تلتمع. كان بودّها أن تصطحب أرمان إلى هناك لتريه تلك الالتماعات الحمراء والزرقاء. كانت قد أحبّت دوماً رسوم الفنّانين القروسطيّين السّاذجة في مثاليّتها. ارتعدت حين همس أحدهم خلفَها قريباً جدّاً قائلاً: «رائعٌ، أليسَ كذلك؟ إنّ أزرقَ زجاجيّات الكنائس هذا فريد في نوعه. لا أحد استطاعَ تقليدَه بهذا الإتقان منذ العام 1200». كان الصّوت أليفاً. استدارَت فرأت تيو أودويرتس، آخر شخصٍ كانت تتوقّع أن تلتقيَه هناك.

وأردف قائلاً: «النّافذة الورديّـة الكبيرة تمجّد العذراء. وهي بديعة مع أنّها ليسَت مميّزة كثيراً... زجاجيّتي المفضّلة هي تلك القوطيّـة الطراز التي إلى اليسار فهي تروي قصّة تيوفيل وهو رجلُ دينٍ أُنقِذَ من الشّيطان بفضلِ تدخّل سيّدتنا العذراء...». لمسَ ذراعَها برفْقٍ لِيحُثَّها على مرافقَته. «يمكنُنا قضاء ساعاتٍ أمام هذه التّحفِ الفنيّـة. ولكن في وقتٍ آخر. سِيري خلفي مبتعدةً عنّي مسافة ثلاثة أمتار». قبل أن يخرج، رسم إشارة الصّليب مع ركعة خفيفة باتّجاه المذبح. ثمّ قال بصوتٍ خافتٍ دون أن يلتفت: «سررتُ برؤيتك».

قادَ ليلي عبر الحيّ الذي فيه بيت الكهنة حتّى المبنى حيث يسكن في غرفةٍ صغيرةٍ لا نافذة فيها، وأثاثها مؤلّف من طاولة صغيرة وسرير ميدان موضوع في الزّاوية. سألته ليلي مندهشة: «ولكن... منزلكَ ماذا حدثَ له؟»

- لقد صودر!

هزلَ أودويرتس بسبب شظف العيش لكنّه ظلّ محتفظاً دوماً بهذه الفتوّة على الرّغمِ من تساقطِ شعره الأشقر والتّجاعيد الخفيفةِ التي ظهرَت عند زوايا عينيه الزّرقاوين. دعا ليلي للجلوس إلى الطّاولة الصّغيرة، ثمّ أخذ إبريقاً من الفخّار وصبّ لها كوباً من الماء.

- هل ابنكِ في حالةٍ جيّدَة؟

- ذاكَ الذي كنتَ تشبّهه ببكتيريا... شكراً على سؤالك. لقد كبرَ فعلاً.

أبْقاها الفلمنكيّ حتّى المساء. أخبرَها أنّه في طريقِهِ ليُصبِحَ شخصيّـة هامّة، فمقالاته عن الحرب المعاصرة أثارَت اهتمامَ كبارِ الموظّفين في وزارة الدفاع. منذ ثلاثة أشهر، في باريس، استجوبه فريقٌ من ضبّاط هيئة الأركان العامّة. بينهم المقدّم دوبون الذي كان يترأّس المكتبَ الثّاني [79]. قال وهوَ يداعب جبهته: «وجدوا أنّ لديّ الكثيرَ من الأفكار الجيّدة لإلحاق الأذى بالعدوّ... لكنّهم لا يُصدّقونها ويعتبرون أنّ الحرب الجرثوميّـة موضوعٌ يليقُ بجول فيرن». ضحك بخفّة ثمّ أردف قائلاً: «مركز القيادة العامّة على صورة جوفر [80] بشاربَيه الجميلَين المفتولَين وفق موضة 1870... هنالك حرب تفصله عنّا! ولكن علـيّ أن أبرهنَ له أنّني على حقّ».

حملَقَت ليلي في أودويرتس: «كنتَ في الجانب الفرنسي وجئتَ إلى المنطقة المحتلّة!»

- المكتبُ الثّاني لديه الوسائل لتمرير الكثير من النّاس. لديّ أوراق ثبوتية مزوّرة، ووضعي الآن قانونيّ تماماً... أنا هنا لأنّ مجلس القيادة العامّة بدأ يغيّر رأيَه في الحربِ الجرثوميّـة... لذا لا يزالُ يتعيّنُ علـيّ إقناعهم.

- إقناعهم بماذا؟ قالت ليلي التي لم تكن قادرة على أن تفهمَ كيفَ بإمكانِهِ أن يقايض رفاهيَة فرنسا الحرّة بشظف العيش في المنطقة المحتلّة. لم تكن تتصوّر أنّ الوضعَ في الجنوب لم يكن أفضل كثيراً.

- هل تذكرينَ جرثومة الرّعام ومرضَ الأحصنة؟

استرجعت ذكريات الأبحاث التي قامت بها مع أودويرتس، في منزلهِ وسطَ لان عندما كانت تقضي ساعاتٍ في مراقبة الأشياء تحت المجهر. كان هناكَ الكثيرُ من أنواع البكتيريا، لكن الاسم يعني لها شيئاً مع ذلك. «ألا تذكرين بيلّا الثالثة؟»، سألها الفلمنكيّ. «نعم!»، أجابته ليلي وهيَ تهزّ رأسها. تذكّرت بيلّا الثالثة... كانت فرساً رائعة جلدها كستنائيّ اللّون، فرسٌ أصيلة أوشكَت أن تربح جائزة سباق الخيل الخاصّة في أوتوي» [81]. عندما رأَتها ليلي، كانت الفرس التّعيسَة تُنهي أيّامها في أحد مروج المدينة السّفلى. كانت ترتجف جامدَة النظرات مستندة إلى شجرة تفّاحٍ لتتفادى السقوط بعدما أصيبت بمرض الرعام. أخذَ أودويرتس عيّنات منها، وهناكَ، تحت المجهر، بعد تلوينها، أظهرَها لألكسندر ولها. شاهدا البوركهولدريا الرعاميّة [82]، البكتيريا التي قتلت أحد أسرع الخيول في زمنها.

قال: «تصوّري: منذ بداية الحرب فقدَ خيّالتنا عشرين ألف حصان دون أن نَعدّ الحمير والبِغال. لا يمكن عزو خسارتها فقط إلى سوء الرّعاية والإرهاق والشّظايا المتناثرة من المتفجّرات... يبدو أنّ الألمان يتعمّدون إصابة حيواناتنا بالعدوى».

- وهل هذا ممكن؟

- بالطّبع! جراثيم الرّعام تُزرَع في أحد المعاهد الاستعماريّـة في برلين. الأسبوع الماضي، عند الحدود السويسريّـة الفرنسيّـة، صودِرت طرود متّجهةٌ إلى مدريد. حين قرأ الجنرالات التقارير ذُهِلوا: كانت الجراثيم مخبّأةً في الغليسيرين. وعلى الفور استدعوني... بدَت الصّفقةُ بسيطة للغاية: تُنقلُ العدوى إلى الأحصنة في إسبانيا ثمّ تعبرُ الحدودَ وهي تحتضنُ المرض وتبدو سليمَة ظاهريّاً ثمّ ينتشرُ الوباءُ في حظائر الخيولِ لدَينا...

- لا يكفيهم إذن أن يقتلوا جنودَنا!

- يبدو أنّ هناكَ عمليّـة مشابهة هنا. أُهلك القسم الأكبر من خيّالتنا في المنطقة كلّها من نوايون إلى فردان.

نهضَ أودويرتس وكادَ يقلب كرسيّه. أرعش حاجبَه الأيمن تشنّجٌ لا إراديّ كانَت ليلي تعرفه جيّداً. «إذا توصّلْتُ إلى أن أثبِتَ أنّ الألمان يشنّون حرباً جرثوميّـة ضدّنا فسأكونُ طليق اليد ولن يُضايقني أحد في عملي. ثمّ إنّ هؤلاء الجنرالات القدامى الذين لا يؤمنون إلّا بالتّقاليد العسكريّـة التي تعود إلى القرن الماضي وبالحمام الزّاجل، سيمنحوني كلّ المصداقيّـة التي أريدُها...» غمزَها بعينه: «أرأيتِ إلى أينَ أريدُ الوصول، سأحتاجُ إلى معاوِنة».

غادرَت ليلي بعد حلول الظّلام وقد أصابها الدوار من الأفكار والآراء التي تطرّق إليها أودويرتس. كان يعرِضُ عليها أيضاً أن تغادرَ بؤس بريمونتريه. استطاع تهريب ألكسندر الذي كان يُراد إلحاقه بمكتبِ الشّيفرات نظراً لموهبته في الرياضيّات. كان مغرياً حقّاً أن تهربَ من شظف العيش هذا وحياة الملل. ومع ذلكَ طلبَت مهلةً للتّفكير. السّلاح الجرثوميّ، وهو المجال الوحيد الذي كانَت مؤهّلةً له نوعاً ما، كان يثيرُ اشمئزازَها. كانت كلّ حربٍ تقومُ على

إدخالِ المعادنِ إلى جسمِ الإنسان، ويمكنها أن تسلّم بذلك، ولكنّ تسميم الكائناتِ الحيّـة حتّى تتحلّل وإدخال الجراثيم التي تتكاثرُ إليها وتدمّرُ الحياة بشكلٍ أعمى فذاك أمرٌ...

لدى عودتها إلى المصحّ استقبلها أرمان مهلّلاً. راقبَته. لم يكن يبدو مريضاً وإن كان شاحباً وهزيلاً بعض الشيء. في سنّه، يجب أن يتناول قوتاً آخرَ غير الحصص الغذائيّـة المرعبَة التي يقدّمها مطعم المصحّ. ثمّ إنّه من غير الصائب أن يتربّى طفل في مستشفى المجانين هذا حيثُ مَن لم يمت بالتّيفوس أو بالكوليرا مات إرهاقاً. يجبُ أن تبعده عن هناك. هذا أمرٌ بديهيّ. قرّرت قبول اقتراحِ أودويرتس.

بعدَ أسبوع، عادَت إلى الغرفةِ الصّغيرَةِ التي لجأَ إليها الفلمنكيّ. أظهرَ لها، وهو مشرق الوجهِ، قطعة سكّرٍ استطاع الحصولَ عليها من أحد المختبراتِ المنشأة في مستشفى الألمان الجماعيّ. وبهيئة ساحرٍ ملهمٍ وضع المكعّبَ الصّغير في حوضٍ معدنيّ مليءٍ بالماء. حرّرت حبّات السكّر لدى ذوبانها أنبوبة صغيرة. قال لها: «لم أستطع تحليل المزيج لكنّي متأكّد أنّ الأمرَ يتعلّق بصاحبتنا البوركهولدريا الرعاميّـة... إذا اطعمت الحصان قطعة السكّر، قضمها محطّماً الأنبوبة وأُصيب بالرّعام. ربّما لن يموتَ بسببهِ لكنّه سينقل العدوى إلى جميعِ الحيوانات المحيطَةِ به. في المستشفى هناك المئات من قطع السكّر المماثلة، الجاهزة للتسليم على يد عملاء ألمان..» ثمّ رفعَ رأسَه وابتسمَ لليلي مردفاً: «لديّ دليلي! سأرحلُ بعدَ ثلاثة أيّام، عبر بلجيكا، فهل تأتين معي؟»

أومأت ليلي برأسِها إيجاباً: «ولكن ليسَ من دون ابني أرمان».

- برفقة ولد! لا يزال صغيراً جدّاً... سيكون الأمرُ معقّداً...

- إمّا آخذه معي أو أرفض الذّهاب.

نهض ثمّ جالَ في الغرفة الصّغيرَة ذهاباً وإياباً وهوَ يؤشّرُ بيَدَيهِ. تلكَ كانت طريقَتُهُ في التّفكير. حين عاود الجلوس، أمسكَ بيدِ ليلي قائلاً: «عليكِ بالصّبرِ فهذه عمليّـة صعبة وفي غاية التعقيد. ولكن لا بأسَ أيّتُها الآنسة معاوِنتي... سيُرسلون إليكِ أحداً يعبر بكما المنطقة الحرّة أنتِ وأرمان. ستتعرّفين عليه لاحقاً...».

توقّف عن الكلام، وتشنّجَ حاجبُهُ الأيمنُ فوق النّدبةِ الصّغيرة. «حينَ يأتي أحدهم من قبَلي قائلاً لكِ: «بوركهولدريا ماليي» فهذا يعني أنّه عميلنا... سنغيّـرُ وجه الحرب يا ليلي!».

ذاتَ صباح، فقدت ماري أوفرازي القدرة على النّهوض. عبثاً حاولت الممرّضات مساعدتها ومساندتها للقيام ببعضِ الخطوات، ولكن ما إن يتركْنَها حتّى تسقط ويأخذها الدّوار وتفقد القدرة على الوقوف. ومع ذلكَ لم تكن مصابَةً بالحمّى، فالتّيفوس الذي فتك بجناحِ الرّجالِ لم يصبها. ببساطةٍ استنزف جسدها المنهك كلّ قدراته. كان لدى طبيب كوسي وزميله الألماني اللّذين كانا يمرّان بانتظامٍ إلى المصحّ الكثير من المهام للقيامِ بها وبالتّالي كانا لا يستطيعانِ الاهتمام بحالتها. عُزِلَت في غرفةٍ صغيرَةٍ تابعة لجناحِ النّساء، هناكَ حيث بإمكانِها انتظار نهايَتِها. وذاتَ مساء، فيما كان أرمان قد خلد للنوم جاءَت الأخت ماري أنجيل إلى غرفة ليلي.

- ماري أوفرازي تريد رؤيتكِ.

- رؤيتي أنا! وما الداعي؟

قالت الرّاهبَة العجوز:

- لا أعرف. وضعُها في غاية السّوء. منَ الأفضلِ أن تذهبي إليها.

دخلَت ليلي الغرفة الصّغيرَة بعدَ أن قرعت الباب دون جواب وقد تولّاها القلق. ماذا كانت تريدُ منها هذه المرأة المنزوية التي تجاهلتها لأشهر؟ كان الخوف من النزع يعتصر قلبها. تقدّمت ببطء في الغرفة.

كانت ماري أوفرازي مستلقيَةً على سريرها الصغير، والشمعة التي تضيئها ترسل شرارات غريبة على السّقف المنخفض. بدَت نائمة. فتحَت عينيها

بمجرّد أن اقترَبَت ليلي. راقبتها المرأة الشابّة: كان وجهها أشدَّ شحوباً من الملاءة، وكانت حدقتاها فاقدتي اللّون -تلك الحدقتان اللّتانِ التمعَت فيهما نظرة الشّيطان؛ لم تستطع ليلي منعَ نفسِها عن التّفكير بالأمر. كانت تدرك أنّ من العبث أن تُصدّق ترّهات الأب دوفال. ومعَ ذلكَ لم تنسَ ليلي شيئاً ممّا كان الأب يقوله عن الممسوسات، أولئك الملعونات اللّواتي لا يؤثّر فيهنّ لا وخز الإبر ولا الحروق ولا جميع ألوان العذاب، واللّواتي يتكلّمن بأصواتهنّ الجشّاء لغاتٍ غير معروفة ويطلقن ضحكات هازئة تخدش الآذان. لقد نجح، ربّما إلى الأبد، في تحويلِ هذه المرأة، إلى مخلوقٍ لا يطاق.

- ساعديني على النّهوض.

كانَت ماري أوفرازي تتكلّم بصوتٍ واهن يوشك أن يتكسّر عندَ كلّ كلمة. كانَ صوتها مخنوقاً، وحدهما نظرتها بألقها المستعاد والابتسامة الخفيفة التي تحرّك وجهها كانتا تلطّفان التجاعيد المريرة عندَ زاوية فمها وتبقيانها في عالم الأحياء.

ساعدتها ليلي على الجلوس وإسناد رأسها إلى الوسادَة. وجدتها خفيفة الوزن وكان هذا غريباً لامرأة في مثلِ سُمنتها. أمسكَت يدها. كانت متجلّدة. «عرفتكِ يا ليلي وأنت تدركين ذلك...»، قالت ماري أوفرازي وقد بدا وجهها مستعيداً بعض النضارة.

- لم تقولي لي شيئاً.

- كنتُ أريدُ أن أنسى كلّ الماضي، «عمل الشّمال»، والأب دوفال...

كان رأسها يهتزّ باستمرار لفرط وهنها. للحظة، أغمضَت عينيها وكانت أجفانُها المحمرّة متجعّدة كمياه الأنهار.

«... كنتُ منخدعة... الكلّ هنا لا يزالون ينادونني بالممسوسة».

عيناها الكامدتان بدَتا وكأنّهما تنفذان إلى صميم ليلي لتضيعا في الظّلام.

«... والآن يحدّثونني عن المَسحَةِ الأخيرة... - ضحكَت - إذا كان علـيّ أن أودّع أحداً فلْيَكن شخصاً يعرفُ من أينَ أتيت. مَن غيرُكِ يمكن أن يفهم؟... طلبْتُ منَ الأمّ أديل أن تأتي لكنّها في لان، ثمّ إنّها لا تزال حاقدةً علـيّ...

قالت ليلي متردّدة: «كنتُ أعرف أنّ دوفال كان مخطِئاً».

اكتسَت نظرَة الراهبة بغشاوة خفيفة. «الأب دوفال... كنت أداة بالنّسبَةِ إليه. جعلهم يلتقطون صوراً لي. في إحدى الصّور، لقطة مقرّبة، يمكن أن نرى شكلاً غريباً على حدقتي اليسرى. أحضرَها لي المصوّر بعد وفاة دوفال. عبثاً تفحّصناها بأقوى العدسات المكبّرة، لم نتوصّل لتفسير هذا الانعكاس... اليوم أعرف أنّه لم يكن شيئاً آخر إلّا وجه دوفال... وهذا ما ما أثار غضبي الشديد. كنت أقف أمامه وكان يتحرّى أدنى حركاتي، وأدنى كلماتي لكنّي كنتُ فقط مرآة، حين أدركت إلى أين أوصلني أردْت أن أتمرّد. نهضت وتقدّمت نحوه لأقول له إنّني موجودة، أنا، ماري أوفرازي وإنّه كان هو الممسوس...».

صمتَت مغمضة عينيها. للحظة، عادَت إلى وجهها من جديد نظرة المرارة والقلق التي كانت تتّشح بها أيّام عرفتها ليلي في الرهبنة، ثمّ هدأت. أصبح صوتها ناعماً كالثّلج: «في أغلب الأحيان، خلال جلسات «طرد الشّياطين» - لفظَت العبارة بنفَسٍ مليء بالسّخرية- لم أعد حتّى أعرف ماذا كنت أقول. كان يطرحُ أسئلة وكان الأمر كما لو أنّ شخصاً آخر يجيب بدلاً منّي. في معظم الأوقات لم أكن أتذكّر شيئاً. كان يحاول أن يحاور هذا الصّوت في داخلي...».

أدارَت ماري أوفرازي رأسها ناحية ليلي. ابتسمت فتغضّنت زوايا عينيها الرطبتين. أصبحَت نبرة صوتها أكثر ثقة ومفعمةً بلطفٍ لا زيف فيه: «هو المثقّف جدّاً كانَ منَ السّذاجَةِ بحيث صدّق أنّه كان يتحدّث إلى الشّيطان... انتهى به الأمرُ إلى إقناعي. هل تذكرين كم كنت تعيسة؟»

- كنت بالتحديد تخيفينني... وتبدين وحيدة بشكلٍ فظيع.

همسَت: «لا أحقدُ عليه... جرّني إلى حيث لم يكن بإمكاني الوصول بمفردي... كنت منزوية معظمَ حياتي، كما تعرفين... كان ذلكَ درساً لي. نتعلّم كثيراً عن التّفاهة الإنسانيّـة في الأديِرَة ولكن بالتّأكيد ليسَ عمّا جعلني الأب دوفال أراه... هل تتخيّلين ما معنى... أن يظنّكِ النّاس «ممسوسة»؛ بدَت كما لو أنّها تتقيّأ الكلمة، ثمّ شدّت يدها على يدِ ليلي وأردفت: كان الناس يأتون لزيارتي خائفين، أجل، لكنّهم كانوا يأتون، لأنّه لا أحد بجاذبيّـة الشّيطان...». وانفرجَت شفتاها كاشفتين عن فمٍ شبه أدرد. انفطر قلب ليلي لابتسامتها الصامتة.

«حين كنت صغيرة، كانت أمّي تردّد قولاً مأثوراً: «إذا تناولت العشاء مع الشّيطان فخذ معك ملعقة طويلة...» ولكن من منّا يتّصف بمثل هذا الحذر؟ كنت مؤتمَنَةَ أسرارِ أمير هذا العالم. في البداية ضعفت لأنّي كنت فخورة بذلك!... كان الجميع ينتظرون كلماتي وهم يرتجفون وكأنّها كلمات هادٍ منذور لمهمّته».

هزّت ليلي رأسها، هي أيضاً كانت تتأثّر لدى سماعها أقوال الأب دوفال. كانت مباني جمعيّـة «عمل الشّمال» المتواضعة تبدو كأنّها متعملقة بحضورٍ هائل لا يوصف. والجماعة بأسرها كانت تنفعل متأثّرة بما يقول.

زاد تنفّس ماري أوفرازي عسراً. اكتسى وجهها بعرق بارد دفين وتغضّن جبينُها. شعرَت ليلي أنّها كانت تبذل جهداً هائلاً لتتكلّم. «إنّه لأمرٌ غريب، كما تعلمين، أن تري كيف يتصرّف النّاس حين تُشرّع حياتهم على مثل هذا البعد الشاسع... مواجهة الشيطان! وسماع الكائن العظيم الذي يستحوذ في داخله على حريّـة الإنسان كلّها وجبروت تحدّيه وقساوته كلّه! حتّى أكثر المشكّكين كان ينتهي بهم الأمر إلى التساؤل عمّا إذا كان الشيطان في العمق...»

أطلقت تنهيدَة جشّاء فاجأت ليلي. للحظة بدا لها أنّ المرأة العجوز نسيت وجودها. «... في لحظات صفاء بصيرَتي كنت أراقبهم، هو والزّوار الذين كان يُحضرهم ليتأمّلوني، ويواجهوا الوهم الكبير.. كانوا أطفالاً وصبياناً يخافون من اللّيل ولكنّهم مؤمنون به إلى أبعد الحدود...».

بدَت وكأنّها تحاول لجم ألم شديد انتابها. حين نظرت من جديد إلى ليلي، اكتسى وجهها بإشراقة الملهمين. «تساءلتُ: من أين يأتي هذا الصّوت الذي يتكلمُ في داخلي؟» وابتسمتْ ثمّ أردفتْ: «أحياناً، حين كنت أتمكّن من التذكّر، كنت أرى أنّ تصرّفاتي تتطابق تماماً وما يتوقّعه النّاس: القهقهات، القرابين المكرّسة التي تسودّ فجأة في علبِها الفضيّـة، كتل الدّم المتجمّدة التي تُنتزعُ من فم دنّسَه التجديف... كنت أكرّر التفاهات عن ألسنة النّار والكبريت التي يلصقها الجميع بالشيطان. كان هذا شبيهاً بالصور المتحرّكة للأخوَين لوميير في باريس. كنّا في مسرح خيال الظلّ وكنت محور الدّراما!».

شخصت عيناها إلى ليلي وكأنّها كانت تشكّ بأنّها تسمعها. «جعلَني الأب دوفال أعيش في الموت مثل أليعازر، لكنّه سمَحَ لي بأن أفهم الكثير من الأشياء، أنا التي لم تكن ذكيّـة جدّاً... ذات يومٍ كلّ من كنت أؤمن بهم بدوا لي

وكأنّهم وهمٌ... صعبَ علـيّ الاعتراف بهذه الحقيقة في نهاية حياة عشتها في ظلّهم، فالوجوه التي غذّت إيماني كانت تماثيل جوفاء!».

«إنّه التجديف الأخير!»، فكّرت ليلي دون أن تسعى لمقاطعتها. عند هذه النقطة لم تعد كلمات الراهبة تستدعي جواباً. فكَّرَت المرأة الشّابّة: «هل كنت تريدين رؤيَتي لتقولي لي هذا الكلام؟» لم تكن نافذة الصّبر ولكنّها شعرت بشيء من الخيبة من جرّاء هذا الاعتراف الأخير.

بدا أنّ ماري أوفرازي تخمّن ما تفكّر به ليلي. توقّفت عن الكلام وركّزت نظرتها الكامدة على الفتاة الشّابّة ثمّ قالَت بنبرَة حادّة: «أنا لا أكفر بعدَ إيمان». أغمضت عينيها من جديد لتجمع ما تبقّى لديها من قوّة وأردفَت: «حين نطرد الخالق وعدّوه معاً ويصيران مثل عديدِ الصّور التي لا قوّة لها، تُلفينا غارقين في ظلامٍ دامس لا قرار له...». لم تعد ليلي راغبة في الحوار. كانت ماري أوفرازي تتحدّث إلى نفسها وحدها، كهؤلاء الخطباء الذين كانوا يستعجلون لبلوغ نتيجة لا تعني سواهم. «طيلة حياتي اعتقدت أنّ الإيمان يفتح لنا الطّريق إلى ما هو خارق للمألوف. إنّه بالضبط عكس ذلك...»

صمَتَت وبدَت كأنّها تُراقب الهواء أمامها. «كانت لدى أجدادنا الحكمة لاختراع الأديان لحمايتنا من الخارق للمألوف. كلّ أولئك الكهنة والحاخامات والأئمّة والبراهمة يجعلوننا موثقين إلى أسرار مألوفة مطمئنة. لكي نكون في سلام، يكفي العيشُ داخل الحدود التي رسموها، ولقد عرفت ذلك بالغريزة، أنا التي كنت أشعر بالراحة في الحياة الرّهبانيّـة. دوفال ساقني إلى أبعد...»

«كان يعتبر نفسه فائق القوّة بعبادته التعيسة للشيطان. لم يكن على قدر المهمّة. ثمّة قوى هنا، مثل الهواء أو كتلك الكواكب المحتجبَة التي يتحدّث عنها علماء الفلك، تحيط بنا مستعدّة لالتهامنا إذا قاربنا مملكتها...».

أطلقت ضحكة جشّاء أشبه بسعالٍ، كاشفة عن لثّتها الممتقعة. «وهل تعرفين أنّ أطرف شيءٍ الآن، في لحظة الرّحيل، هو رؤية أنّ هذا الحدس كان الأهمّ في حياتي...».

شعرَت ليلي أنّ ضوء المصباح خفَتَ حتّى كاد ينطفئ. وفجأة، تساءلت من أين يأتي هذا الصّوت. نظرت مذهولة إلى الراهبَة الممدّدة وقد فارقتها كلّ قوّة. هل كلمات النكران هذه كانت حقّاً كلماتها؟ وإلّا فمن ذا الذي يتكلّم بلسانها؟ ارتجفت قليلاً. وفي ما يشبه الدّوار بدا لها أنّ الغرفة كانت تمتلِئ بحضور هائل متجلّد مخيف. كلّ شيء بدأ يدور من حولها ولم تعد تعرف من يتكلّم أهذه المرأة المحتضرة أم قوّة أولى، ربّما كان جبروتُ ما لا اسم له موجوداً هنا كما في أيّ مكان آخر، وللحظةٍ تردّد صداه عبر شفتَي إنسان.

«ماذا كانت تريد منّي؟ كان يجب أن أستدعي طبيباً وكاهناً يعرّفها. كانت شديدة الشحوب، وجهها كالشمع، وما عادت تتنفّس إلّا بشكل متقطّع. لم يكن هناك طبيب، والكهنة تسبّبوا لها فعلاً بأذىً كبير. ما عادت تنفعها أيّة رعاية، كانت مفرغة من قواها، وقد أدّت قسطها للدّنيا كما للدّين. اختلطت الأمور كلّها عليّ، ما عدت أعرف هل كانت هي التي تكلّمني أم أنّه صوت غريب وأشدّ هولاً. للحظة بدت كأنّها عادَت إلى الحياة. سحبَت قلادة من تحت وسادتها لتعطيني إيّاها. قرأتُ ما نُقِشَ عليها: القدّيس بنوا مع الأحرف التي تمثّل عبارة التعزيم. القلادة ذاتها التي حملتها إبّان طرد الأرواح الشرّيرة، الحلية التعيسة التي كان يفترض بها أن تحميها من هجمات الشيطان. قالت لي بصوتٍ أكثر تصميماً: «خذيها، لكي تتذكّريني وتتذكّري ما قلته لك».

بدَت وكأنّها ترى شيئاً ما في الهواء خلفي، أو أنّها كانت تريد فقط أن تقول لي وداعاً. أدركت أنّني كنت آخر وجهٍ تراه. لذا حاولتُ الابتسام. أغمضَت عينيها، تجمّد فمها وتراخَت اليد التي كانت تتشبّث بي. غادرت الحياة دون أن تتمنّى شيئاً.

حين استدرت كان هناك امرأة واقفة عند عتبة الغرفة. عرفتها، إنّها الأم أديل. وصلت بعد فوات الأوان. لم تكن مهتمّة على ما يبدو، ودهشت لرؤيتي هناك. خرجتُ راكضة، وحين مررت قربها وأنا أشدّ على القلادة في راحتي لم

تقم بأيّ حركة للإمساك بي. همسَت بصوتٍ حاقد: «ماذا تفعلين هنا أيّتها الأفعى؟»، وولّيت هاربة دونَ أن أجيبَها.

أشعر بالقلق. الله يعرف ما الذي ستفعله بي وقد وجدتْني.

لان، 1916

كان ألكسي كافيل يذرع الحيّ حيث بيت الكهنة تحت مطرٍ غزير ومتجمّد. أخذت الحرب، التي اعتبرها في البداية مرسلة من العناية الإلهيّـة، تلقي بوِزرها عليه بشدّة. كان سعيداً أوّل الأمر لأنّ جميع مشاكله طواها النسيان بعد أن طمستها الأحداث الدامية، ولكن إلى حين...

بعد الفضيحَة التي أثارتها وفاة لوفران، ثمّ الحادث الذي وقع للأب دوفال، أصبحت جمعيّـة عمل الشّمال جرحاً مفتوحاً في خاصرة الكنيسة، ما جعل حظوته تتراجع ثانية لدى الأسقفيّـة. نجح في التخفيف من تحمّس الشرطة للتحقيق في وفاة الرّجل العجوز، وكان طفيفاً في الأصل، كما تفادى محاكمة محفوفة بالمخاطر من خلال الحجر على الأخت ماري أوفرازي، لكنّ سمعته في الأبرشيّـة تراجعَت إلى أدنى مستوياتها. ولولا الحرب والاجتياح الألماني لصار منبوذاً في نظر الكنيسة. لكن، منذ بدء الحرب ما عاد أحد يهتمّ بهذه الهفوات. تلذّذ بهذه العذريّـة المستعادة لكنّ الوضع بدأ يقلقه.

أرغمه شظف العيش على التقشّف الذي يتّبعه الكاهن الحديث التّرسيم. تلك اللّيلة بالذّات، حلم بأصناف طعامٍ يسيل لها اللّعاب فاستيقظ على حموضة تملأ معدته. وما زاد الطين بلّة دخول حشرة إلى أذنه آذت سمعه. فمن أين أتت هذه الحشرة لتنهي حياتها في طبلة أذنه وفي هذا الطقس القارس الذي يفترض به أن يقضيَ على كلّ الطفيليّات؟ إنّه لغز بحقّ. ولكنّ ثلاثة أيّام مضت والكاهن غير قادر على إخراجها. ولن تنفع الصلوات الموجّهة إلى القدّيس الطوباويّ باراباس، شفيع هذا النوع من الحوادث، في طرد

الحشرة. على أيّ حال منذ وقت طويل أقلع كافيل عن الصّلاة. كان يغفو وعلى وجهه ملامح الخشوع.

في زاوية الشّارع، أمام منزلٍ نوافذه مسدودة، لمحَ فتىً في السابعة أو الثامنة من عمره مرتدياً قميصاً يقف بلا حراك تحت المطر. لم يكن متسوّلاً. فالمتسوّلون كان يعرفهم لأنّه يطردهم دوماً من ساحة الكاتدرائيّة بركلات في المؤخّرة. اقتربَ من الصبيّ؛ وضع يده على كتفه ثمّ هزّه بعض الشيء قائلاً: «ماذا تفعل هنا؟» بدا الطفل وكأنّه يفيق من حلمٍ طويل. نظر إلى الكاهن مشدوهاً. لمس كافيل يده، كانت حارقة. «ما اسمك؟»

- فالنتان يا أبتِ... في بيتنا الجميع مرضى. أبحث عن طبيب ولكن لا أعرف أين أجده.

- والدك يرسلك لتحضرَ طبيباً دون أن يقول لك إلى أين تذهب!

شعر فالنتان بالوجل من نبرَة الكاهنِ الغاضبَة فلم يُجب.

- خذني إلى بيتِكم.

أضاعَ الصّغير عنوان بيته لكنّه اهتدى أخيراً عندَما رأى كنيسة «سان جان أو بور». كان يسكن على مقربَة من هناك في منزل بورجوازيّ له بابٌ جميلٌ مصنوع من خشبِ الكرز. أدارَ كافيل المقبض ووقف عند العتبة جامداً.

كان هناكَ رائحَة كريهة تسرح في الصّالون الصّغير. عبرَ الباب نصف المفتوح لإحدى الغرف، لمحَ رجلاً ممدّداً على سريره. تقدّمَ، سمعَ الصبيّ يُغلقُ الباب خلفه. بدا وكأنّ شيئاً ما غير محسوس أشبَهَ بحضور رهيب خفيّ يحوم في الهواء المحبوس.

كان الأب الثلاثينيّ الأسود الشّعر غارقاً تحت أغطية ولحاف ورديّ اللّون. فتحَ عينيه بصعوبة حين انحنى الكاهنُ على سريره، مطلقاً أنيناً خافتاً. وإخوة فالنتان الثلاثة، الذين يقربونه في السنّ، لم يكونوا في حالةٍ جيّدة. كانوا راقدين في الغرفة المجاورَة ويسعلون في نومهم. وعلى مسافةٍ أبعدَ الأمُّ هاجعة على سرير ميدانٍ صغير. جسّ كافيل نبضها، كان متوقّفاً. لم يكن هذا ما لفَتَ انتباهه فهو اعتاد مجاورة الموتى. لكنّه لم يرَ قطّ وجهاً أزرقَ كوجه هذه المرأة.

سأل الصبيّ الذي بدأ يرتجف عمّا إذا كان هناك أحد ما في الطّابق العلويّ. فأجابه بصوتٍ مبحوح: «السيّد هوفمان». ربّما كان الضابط الألماني الذي كان أُسكِنَ في منزلهم. تسلّق الكاهن الدّرج الخشبيّ القديم بسرعة فأحدث فرقعة تحت ثقله.

كان السيّد هوفمان مستلقياً تحت بطّانيّـة بنيّـة اللّون وهو لا يزال في زيّه العسكريّ، ورائحة التحلّل الخفيف آتيَة من سريره. كانت أسنانه ناصعة البياض، وتحت شعره الأشقر المقصوص قصيراً وجهه المنحوت كأنّما في المرمر كان أزرق هو أيضاً. أمام هذا الوجه الذي ينهش الفراغ والذي يخيّل للناظر وكأنه صُبِغَ للكرنفال، عرف كافيل أنّه كان في حضرة مرض مجهولٍ ولكن مرعب، مرض يقبع هنا سيّداً مطلقاً على الأمكنَة، مرض قادر على التشبّث به إن بقي في المنزل دقيقة واحدة بعد. نزل الدّرج بأسرع ما يمكن وأخذ الصبيّ من يده وخرج مغلقاً الباب خلفهما. في الشّارع ترتّبَ عليه أن يحمل الصبيّ الذي أغميَ عليه بمجرّد أن بدأ، من غير انتباه، بالرّكض.

ذهبَ الكاهن إلى المستشفىّ العسكريّ حيث التقى بالأمّ أديل التي كانت تبحث عنه للتوّ. ذهب كلاهما لرؤية الرائد كلاين وشرح له كافيل الوضع.

بدَت الحالة خطيرة للضابط لأنّه رافق الكاهن على الفور إلى المنزل المعنيّ.

بدا الرّائد متفاجِئاً من حالة المرضى. اتّخذ قراره بسرعة: أُغلق المنزل بإحكام وُوضِع الأب وفالنتان وإخوته الثّلاثة في الحجر الصحيّ في المستشفى. أمّا جثّتا الأمّ والضابط هوفمان فقد دُفِنَتا بعد أخذ عيّنات منهما. ثمّ عاد كافيل إلى الكاتدرائيّـة برفقةِ الأختِ أديل.

كان المبنى من الداخل شديد القذارة. منذ بضعة أيّام، لم يجد جنرال بروسيّ مكاناً أفضل منه يخيّم فيه مع خيّالته وستمائة حصان. كانت رائحة الرّوث تنتشر تحتَ القبّة. قالت أديل للكاهن الذي انحنى صوبَها لاوياً جذعه ليستطيع سماعها بالأذن التي لم تكن صمّاء: «إنّها أزمنَة صعبةٌ تمرّ بها الكنيسة وبلادنا». عبثاً حاولت التحدّث بصوتٍ جهوريّ كعادتها، فما كان يستطيع سماعها إلّا قليلاً.

كانت أديل تعمل آنذاك ممرّضة في المستشفى البلديّ. كانت وفاة دوفال، وهرب ابنها ألكسندر، وتشتّت أفراد «عمل الشّمال»، جميع هذه التّجارب قد جعلت منها امرأة عجوزاً وسمينَة (أخذ يتساءل كيف أمكنها زيادة وزنها على هذا النحو في أزمنة الحرمان هذه). كانت تمشي لاهثة مع كلّ خطوة. فقط صوتها، الجهورُ، المعتاد على الأوامر، كان يذكّر بالرّئيسَة التي كانتها. «عبادة الشيطان لا توصل إلى شيء»، قال في نفسه مفكّراً في الميتة المزرية التي لاقاها الأب دوفال عشيقها. «ومع ذلك...»

في تلك الأوقات الصّعبة، كان يسهل الإيمان بالجبَروت الشّرير المهيمن على البشر والضارب بهم بشراسة غير مسبوقة. في نظر الكاهن كافيل، كان الشرّ متمثّلاً في ذاكَ الصربيّ الصّغير [83] الذي أطلق في سراييفو

شرارة أكبر مجزرة في التّاريخ. كيف بالإمكان عدم التعرّف على يد الشيطان في سلسلة الأحداث التي أعقبت تلك النائبة ودفعت عجلتها المتوحّشة الجائرة فيما كانت تبدو مستحيلة لستّة أشهرٍ خلَت؟ قبل دقائق قليلة، لدى وصوله إلى الكاتدرائيّـة، ولحظة ركوعه الآليّ أمام المذبح، لمحَ كافيل الزجاجيّـةَ اليسرى وعليها رسمُ تيوفيل الذي أُنقِذَ من براثن الشيطان على يد العذراء. يا للكذبة الجميلة! كان الشيطان هو الأقوى، وكان الجبروت المذهل اللّاوي رؤوسَ آلافِ الرّجالِ في وحل الخنادق، على مسافة بضعة كيلومترات من هذه الكنيسة، يعلن انتصاره بظفرٍ غير مسبوق. كان الاقتراب من هذا المعلّم أمراً شديد الإغواء بالنسبة إلى الكاهن. ولكن هل كان الشيطان، وقد بلغ هذا المستوى من قوّته وسؤدده، بحاجةٍ فعلاً إلى معاونين؟ فيما عمّت سلطته جميع الكائنات.

التفت إلى أديل التي كانت متفاجئة من رؤيته مسترسلاً في أفكاره، وقال:

- هذه الحرب عقاب نزلَ بأمّتنا لابتعادها عن الكنيسة. منذ قضيّـة دريفوس البغيضة حُمِلَ النّاس على الاعتقاد بأنّ المرء يمكنُ أن يكون فرنسيّاً صالحاً دون أن يكون مسيحيّاً صالحاً. وغدا المفكّرون المتحرّرون والماسونيّون واليهود هم المسيطرون. انظري إلى أين أوصلنا هذا. هؤلاء النّاس هم الأعداء الحقيقيّون لفرنسا.

- لنأمل أن تعيد هذه الحرب الإيمان لبلادنا.

- علينا أن نتمنّى ذلك! قال هذا لاعناً في سرّه هذه الحشرة التي تسكن في عمق قناة أذنه.

لا الراهبَة ولا الكاهن كانا منخدعين. كانا ينطقان بالكلمات المتّفق عليها التي يفترض بدعاة الدين إعلانها على الملأ. كانا يعرفانِ أنّهما مراقَبان. وكانت جميع القداديس تُقام حينذاك بحضورِ عميلٍ في المخابرات الألمانيّـة، وأغلب الظنّ أنّ جاسوساً كان يختبىء وسط ثلّة المؤمنين الرّاكعين للصلاة في جناح الكنيسة.

قادَت أديل الكاهن إلى ركنٍ منعزلٍ من الكنيسة ثمّ قالت مخفضة صوتها أي متحدّثة بشكلٍ طبيعيّ بدلاً منَ الصّراخ فيما كان يقرّبَ أذنه من فمها وكأنّه يعرّفها: «التقيت ليلي روسو!» ثمّ صمتت على الفور لتتركَ للكاهن أن يروز أهميّـة ما صرّحت به.

بما أنّه لم يكن يبدو عليه أنّه فهم أردفَتْ بصوتٍ مفعمٍ بالغضب:

- الفتاة التي قتلت السيّد لوفران تتظاهرُ بأنّها أخت في راهبات المحبّة، في مصحّ بريمونتريه، هي المجرمة التي لا دِين لها...

«... والتي دمّرَت «عمل الشّمال» بقتلِ وليّ نعمة الرهبنة»، أكمل كافيل في سرّه.

- أوشكتُ أن أشي بها أمام الرّائد منذ قليل لكنّني أردت أن أعرف رأيك، يا أبتِ... ما تقوم به الفتاة رياء، وتجديف.. يجب وضع حدّ لذلك. هل علـيّ الذهاب لإخطار الضبّاط البروسيّين؟

عدّل الكاهن من وقفته جامعاً يديه تحت ذقنه وكأنّه يصلّي. تظاهر بأنّه يأخذ وقته للتفكير ثمّ قال مقرّباً فمه من أذن أديل حتّى تسمع جيّداً كلامه: «لا تتحدّثي لأحدٍ عن الأمر أيّتها الأخت... هذه الفتاة مذنبة بالطبع ولكن ربّما كانت جاسوسة. ماذا نعرف عن الموضوع؟... لا تنسَي الموقف الذي أملاه علينا الأب

الأقدس منذ بدء الحرب وهو التزام «الحياد المطلق». يجب ألّا نفعل شيئاً دعماً للألمان ولا ضدّهم. ربّما عضدناهم بفضحنا أمر الفتاة أو ساعدناهم في الكشف عن عميل فرنسيّ والتسبّب في قتله! تعرفين كم أنّ الألمان سريعو الانتقام! وفي الحالتين سيكون تصرّفنا هذا نقيض الحياد...».

كان من الصّعبِ إقناع أديل. وترتّب على كافيل أن يلجأ إلى كلّ القوّة البلاغيّـة التي صقلتها عشرات السنوات من العِظات لثنيها عن الانتقام. وأخيراً صلّيا معاً وغادرتْ تُهَمْهِم منزعجة لكنّها وعدَته بعدَم قول أيّ شيء للألمان.

شغل وجود ليلي روسو في بريمونتريه أفكار الكاهن كافيل لعدّة أيّام. هل يترتّب عليه أن يشيَ بها للألمان أم لا؟ في مثل هذه الحالات غير المتوقّعة كان كافيل يطرح على نفسه سؤالاً أوليّاً: «أين مصلحتي في ما يجري؟» كانت الأسقفيّـة منقسمة بين أولئك الذين لا يريدون التنازل عن شيءٍ للألمان، مجازفين بأن يصبحوا محاربين حقيقيّين للاحتلال، أي أنصار الاتّحاد المقدّس [84]، وبين هؤلاء الذين كانوا يحاولون أن يجدوا تسويات تريح السكّان قليلاً. فأين تكمن مصلحة الكاهن العليا؟ هل هو الموقف الذي يخدم طموحاته خدمة أفضل على المدى البعيد؟ كانت تلك نقطة شديدة التعقيد كالسّعي إلى معرفة جنس الملائكة.

كان البابا بنيديكتوس الخامس عشر قد أعلن حياد الكنيسة الصّارم إزاء المتحاربين. لا مجال لدعم أيّ معسكر حتّى وإن كانت الإمبراطوريّـة النّمساويّـة الهنغاريّـة قوة كاثوليكيّـة. حتّى وإن كانت روما مقتنعة بأنّ السّبب الحقيقيّ للحرب ناجم عن المجتمع العلماني المتحرّر الذي أنتجته الثورة الفرنسيّـة. كان كافيل يكره رؤية بلاده محتلّةً وشقّ عليه بادئ الأمر أن يمتثل لهذا الإيعاز. لم يكن يحبّ أن يُحتفَلَ بالدين البروتستانتيّ في كنيسة ليبس أو في الكاتدرائيّـة مع تمثال العذراء والصّليب مغطّيين بدثارٍ أسود، ثمّ يأتي أخيراً النشيد الوطنيّ الألماني معزوفاً على الأرغن الكبير متوِّجاً المشهد البغيض كلّه! ولكن بعد كلّ حساب كان الكاهن يفضّل البقاء على الحياد. بيد أنّ التشهيرَ بهذه الفتاة يعني تخلّياً عن الحياد لنصرة المحتلّ. فأين كانت مصلحته؟

اتّخذ قراره في ليبس ذاتَ مساء كئيب وقد أملته عليه معدته متغلّبة على نصيحة البابا. حكّ ذقنَه ناظراً من حوله: كان جالساً بمفرده في غرفة صغيرة سيّئة التدفئة أمام طاولة وُضع عليها عشاء مؤلّف من ربع قطعة خبز أسود مهلهل، وقطعة لحمٍ قديدٍ، وثلاث حبّات بطاطا متجلّدة، والشراب الذي يرافق الوجبة كوب من الماء. كيف وصلَ إلى هذا الدّرك من الانحطاط؟ كان في العشيّـة قد أكل الروتاباغا [85]، وقبلها بيومٍ تناول القرّاص وأوراق الجزر الذابلة متبّلة بما توفّر لديه، مع خبز يابس كأنّه الصّلصال. كان بطنه يؤلمه لمجرّد التفكير بالعشاءات اللّذيذة التي كان البورجوازيون يقدّمونها له كلّ مساء تقريباً قبل الحرب. فقدَ ما لا يقلّ عن ستّة كيلوغرامات من وزنه، وحتّى الثؤلول على ذقنه بدا وكأنّه تضاءل. كان يشعر أنّه متجمّد من البرد بالرغم من ارتدائه ثلاث جبّات تحت معطفه. كانت قدماه تؤلمانه لا بسبب المسامير- التي لم تختفِ مع ذلك - ولكن لأنّهما كانتا متجلّدتين باستمرار. في مثل سنّه، كان لا يستطيع الاستمرار على هذا النّحو.

حتّى ذلك الحين، كان الألمان هم الأقوى، ولا جدوى من إنكار ذلك. كان يغضّ الطرف لدى مروره بمحلّ «دويتشه كونديتوراي مِتْ كافيه» [86] في شارع شاتلين حيث كانت كعكات الحلوى تحضّر بالدقيق الأبيض، وكان هذا أعلى مستويات التّرف. فما نفع معاداة أناسٍ كانوا يتمتّعون بمثل هذه المزايا؟ لقد أوقف كاهن أبرشيّـة سان مارتان ورُحّل إلى ألمانيا لأنّ نشرته الرعويّـة كانت تحتوي على تصريحاتٍ معاديَة للمحتلّ. أعجب كافيل بشجاعته ولكن من بعيد. لم يكن يهوى الاستشهاد. على أيّ حال، وبالنّظر إلى القضيّـة عن كثب، كانت ليلي روسو مجرمة فموت لوفران كان فظيعاً، وقاد كافيل إلى تأويلات لا نهاية

لها لدى الأسقفيّـة. وفوق ذلك كلّه، كانت ليلي تنتحل هويّـة راهبَة. بدا له أنّ فضح سافلة مثلها عمل مشرّف. لم يكن الأمر يتعلّق بمساعدة الألمان أو الفرنسيّين، بل بخدمة العدالة. لعلّه يستطيع أيضاً أن يغتنم الفرصة ليحابي ذاته قليلاً...

كان حذراً وهذا ما دفعه إلى التزام موقف الحياد الصّارم الذي دعا إليه البابا. ولكن كان يتوجّب عليه أيضاً الإفصاح عن أمرٍ ما للمعسكر الآخر، للفرنسيّين الذين كانوا يحاربون سرّاً. فكّر أنّه يكفي أن يعلمَهم أنّ ليلي روسو افتضح أمرها بسبب رسالة مجهولةٍ وأنّها معرّضة لخطر الاعتقال، مدّعياً أنّ أحد أبناء الرعيّـة أفصح له عن ذلك أثناء الاعتراف. لن يأتي أحد للتحقّق من صحّة الأمر. وهكذا يضمن حمايته من كِلا الجانبين. مستغرقاً في أفكاره التهَم آخر حبّة بطاطا، ثمّ جرع كوب ماء ليطرد الطّعم الكريهَ المتبقّي في فمه. أجل، كان راضياً عن إيجاد هذا الحلّ المتوازن.

في صباح اليوم التالي، حضر كافيل إلى مركز القيادة العسكريّـة في لان حيث استقبله القاضي باتزنزيغر، رجل ملتحٍ بالغ القبح، وكان كافيل يعرفه لأنّه كان يُعلمه بكلّ أنشطة لان الكنسيّـة. في العادة، كانت المقابلة تجري باللّغتين وفق مقتضيات الحوار وفترات الصمت. بصوته الفاغنريّ [87] الجبّار، شكر القاضي الكاهن وأكّد له اتّخاذه الإجراءات اللّازمة لإلقاء القبض على السّيدة روسّو.

معسكر إيتابل البريطاني [88]، نوفمبر 1916

بصرف النظر عن الخنادق المحفورة في الوحل وما يمتدّ أمامها من أراضٍ قاحلة ومقفرة منذورة للغربان والجرذان، لا شيء كان أكثر حزناً من نهاية الخريف في معسكر إيتابل. «مقاصف التفّاح»، كما أسماها الجنود، كانت عبارة عن مجموعة ضخمة من الثكنات والأكواخ الخشبيّـة والخيم التي تؤوي قرابة مائة ألف رجل، وكان يقيم فيها كلّ جنديّ من امبراطوريّـة جلالة الملك قبل أن يغادر إلى الجبهة. وفيما كان الحارسُ يقرأ وثيقة التفويض، أخذ أودويرتس يراقب البحر الرّماديّ الهائج خلف الكثبانِ التي سحقها الجليد وأنبتت أعشاباً هزيلة بلون أخضر برّاق. في البعيد، كان يَسمع دويَّ المدافع المضادّة للطائرات فيما الأرض تهتزّ بانتظام تحت قدميه. كانت الطيور المهاجرة تسافر أسراباً نحو الجنوب بحثاً عن مناخ أكثر اعتدالاً. رأى أنّ الطّيور على صواب لكنّه كان سعيداً بوجوده هنا.

منذ ثلاثة أيّام، تلقّى رسالة مقتضبة من زميله الطبيب الرّائد ويليامز سائلاً إيّاه المجيء للقائه في إيتابل بغية التداول في «عناصر عياديّـة من شأنها أن تهمّه».

كان الإنجليزيّ يعمل مثله في هذا الميدان الخفيّ من النزاع: الحرب الجرثوميّـة.

قطع الفلمنكيّ شوطاً منذ نشر مقالاته عن «الحرب المعاصرة»، وأجرى لقاءات مع قادة المكتب الثّاني. في البداية، عندما كان الجميع لا

يزالون يتخيّلون حرباً كلاسيكيّـة وجيزة لم يلقَ أودويرتس إلّا القليل من الاهتمام. ثمّ استخدم الألمان أسلحة غير مسبوقة. في أبريل لم يتفاجأ بالأنباء القادمة من الجبهة، حين ارتفعت من الخنادق الألمانيّـة في شمال إيبر [89] سحابة من الأبخرة ذات اللّون الأخضر المائل للصّفرة ودفعتها الريح صوب خطوط الجبهة الفرنسيّـة. أحرق الكلور رئات آلاف الأشخاص التعساء الذين لقوا حتفهم عقب عذابات لا توصف. كان يُشاع حينها أنّ المصانع الألمانيّـة كانت تعمل على تطوير غازٍ أكثر فتكاً.

وكما توقّع أودويرتس، لم يكن العدوّ يكتفي بالكيمياء، بل كان يخطّط لأعمال جرثوميّـة. حين اتّضح أنّ الخيّالة الفرنسيّـة كانت ضحيّـة وباء الرعام، وأنّ مركز الشفرة فكّ شفرة الرّسائل بين مدريد وبرلين مكتشفاً التّلاعب بالجراثيم، استُقدم أودويرتس وعُيّن طبيباً وباحثاً في مختبر ساحة كاليه [90] ومنطقة الشّمال. كانت مهمّته الرّسميّـة تقوم على مكافحة الأوبئة ومعالجة ضحايا الغازات السامّة. كان عليه أن يقدّم بصفةٍ غير رسميّـة تقريراً إلى هيئة الأركان العامّة عن تقدّم الحرب الجرثوميّ، ومُنِحَ الحريّـة لتفقّد المناطق التي يريدها والقيام بتجارب علميّـة. في لان حقّق ضربة معلّم بإبلاغه البرهان عن التلوّث المتعمّد للخيول الفرنسيّـة، ما أكسبَه سمعة ملتبسَة.

كان يرى أنّ الحرب ليست أمراً سيّئاً، وكانت تسمح له بوضع معارفه موضع التنفيذ. هو الذي كانت البقرة تمثّل له وعاء اختمارات جرثوميّـة أكثر منها حيواناً، ونقطة التقاء لآلاف الكائنات الحيّـة الدّقيقة. وقلّما كان يتصوّر الإنسان خلاف ذلك، بل ينظر إليه بوصفه نقطة التقاء ملايين الكائنات الدّقيقة التي ارتقت إلى مستوى الوعي بأعجوبة. منحته الحرب الفرصة لاختبار

إمكانيّات هذا الكائن البيولوجيّ الذي وهبَه الله روحاً. كان يعتبر أنّه يجب عدم وضع حدود للعلم لأنّه منذور للتقدّم باستمرار للكشف عن الألغاز البشريّـة المستعصية، إلى أن يلاقي الدِّين في نهاية المطاف.

جعلت ريح البحر الخيام تصطفق بعنفٍ. اصطحب جنديّان أودويرتس عبر صفوف لا متناهية من الأكواخ وصولاً إلى اللّافتة البيضاء التي كتبَ عليها «مستشفى عامّ رقم 27». قدّم نفسه للرّائد ويليامز، رجلٌ أشقر قصير يتكلّم بلُكنة أهل يوركشاير. سارا معاً عبر المخيّم للذّهاب إلى المستشفى. وهناك واجه المشهد المعتاد لصفوف الأسرّة حيث الجرحى الشّجعان والأنين وصرخات الألم التي يطلقها من زال عنه مفعـول المسكّنات، ورواح ومجيء الممرّضات يتنقّلن من جريحٍ لآخر في معاطف طويلة تكاد ألّا تحميهنّ من البرد. رأى الفلمنكيّ أنّهنّ كنّ يُقدّمن للجنود الإسعافات الأوليّـة فقط، فما من ضمادات توضع ولا شاش ولا أقمشة متّسخة تُستبدل. كان همّهنّ فقط إيقاف حالات النّزيف وتفحّص الأنابيب المطّاطيّـة التي أدخلت في أجساد لن تصمد طويلاً، وكذلك تقديم الماء ومسح جباه المحتضرين. وحين ينتهي كلّ شيء، كانت الممرّضات يضعن على عجلٍ حواجز فاصلة حول سرير الجنديّ الذي قضى نحبَه لحجبه عن الأعين.

قال له ويليامز دون أن ينظرَ إلى أودويرتس: «شيء مرعب أليسَ كذلك؟ لكنّك تعرف كلّ هذا يا عزيزي. لديّ أمر يقلقني أكثر، وعلـيَّ أن أريَكَ إيّاه».

خرجا من المستشفى ثمّ توجّها إلى مبنى صغير جانبيّ حيث تجمّع خمسون جنديّاً وبعضهم كانوا ينامون على الأرض بسبب نقصِ الأسِرّة. قبل

الدّخول، سلّمه وليامز كِمامة من الشّاش، وارتدى كمامة هو أيضاً ليحمي فمه وأنفه. «المرض مُعدٍ. أصيبت ممرّضتان وطبيب من طاقمنا».

منذ دخوله شعر أودويرتس أنّ المشهد أليف لنظره: هنا لا ضِمادات ولا أنابيب متوالية أو ندوب نازفة. كان الجنود ممدّدين هناك، ممتقعي السحنة، مزرقّي الشفاه، وكانوا يتنفّسون على نحوٍ متقطّع. كان لديهم جميعاً النظرة القلقة لمن يشعر بأنّه على شفير الاختناق، ويجاهد لكيلا يكون النفس الذي يدخله بصعوبة إلى رئتيه آخر شهيقٍ له. في إحدى الزّوايا، كانت ممرّضة تحاول تهدئة رجل يهذي صارخاً بصوتٍ عالٍ: «كان لديّ عصفور صغير اسمه إنزا. فتحت النافذة وحلّق إنزا». لطالما لاحظ الفلمنكيّ ذلك الأمر ونوّه به: يحتفظ الجرحى عموماً بشخصيّتهم حتّى عقب عمليّـة خطيرَة فيما المرضى يتحوّلون. الجراثيم أكثر شراسة من المعدن فهي تلتهم البشر، فيما الأسلحة يقتصر فعلها على تشويههم. في تلك اللّحظة، شعر أودويرتس بإرهاف فريد في حواسه: كان يواجه خصماً أشدّ دهاء وقوّة من جيش.

اقتربا من سرير مريض كان فاقداً وعيه وعلى وجهه المنقبض تكشيرة آليّـة تمطّ ذقنه الملطّخ بالدّم اليابس. دخل الغيبوبة التي تسبق الموت وكانت يداه لا تزالان متشنّجتين على الغطاء.

ناوَلَ ويليامز البطاقة الموضوعة قرب السّرير إلى الفلمنكيّ.

كان العريف ألِك فورست في العشرين من عمره وقد اعتلّ منذ خمسة أيّام. في البداية شعر بألمٍ في الحلق ثمّ بأوجاعٍ شديدة خلف العينين وفي الأذنين والحقوَين. ارتفعت حرارته إلى مائة وخمس درجات فهرنهايت (سرعان ما احتسب أودويرتس الحرارة في ذهنه: أي ما يعادل 40 درجة

مئويّـة). تسارع نبضه بمعدّل 100 نبضة في الدقيقة، وبلغ ضغط دمه 8 درجات كحدٍّ أقصى، أمّا الحدّ الأدنى فتعذّر قياسه. بعد أن شقّ عليه التنفّس دخل مرحلة الهذيان، وظلّ في اختلاج مستمرّ حتّى هذه الغيبوبة الأخيرة.

كان وجه المريض أزرق وكذلك كانت شفتاه وأذناه زرقاء. أزاحَ ويليامز الغطاء كاشفاً عن جذع الشاب: باستثناء عددٍ قليل من البثور الحمراء، كان اللّون الأزرق يعمّ أيضاً كلّ جسده. «إنّه السيانوز» كما شخّصه أودويرتس في ذهنه. كان الدّم يفتقر إلى الأوكسجين وهذه ظاهرة مألوفة، ولكنّه لم يرَ المرض متفاقمـاً إلـى هذا الحدّ من قبل. قال ويليامز: «إنّها الأعراض نفسها دوماً. فكّرنا في الإنفلونزا، بطبيعة الحال، فهذا موسمها. لكنّنا فقدنا طبيباً وممرّضتين وثلاثين مريضاً». عاود تدثير الجندي بالغطاء الصوفيّ فيما هزّته نوبة تشنّجٍ أخرى. «الإنفلونزا لا تقتل الشبّان... ليس إلى هذه الدّرجة، وليس بهذا الشّكل».

- وماذا عن نتائج التشريحات؟

رفع ويليامز كتفيه قائلاً: «أنت تعرف، يصعب القيام بذلك في مثل هذه الظروف! كانت هناك بؤر للالتهاب القصبيّ في الرئتين. أرسلنا عيّنات إلى مختبرنا في لندن. كانت عُصَيّـة فايفر [91] موجودة في العديد من الحالات، ولكن ليس كلّها... بصراحة لا نعرف ما هي لكنّها معديَة بدرجة فائقة عن طريق التنفّس أو عن طريق اللّعاب على الأرجح، أضف أنّها فتّاكة لدرجة خطيرة.

في الجهة الأخرى من القاعة الصّغيرة، عاود الهاذي إنشاد أغنيته. أعاد أودويرتس البطاقة إلى زميله ويليامز الذي بدا قلقاً. كان يفهم حيرته.

جعلت الحرب الكثير من الأطبّاء متغطرسين. في غضون عقود قليلة عُرف عن الأمراض أكثر ممّا عُرِفَ عنها خلال آلاف السنين الماضيَة. أثبتت الأدوية واللّقاحات والعلاجات فعاليّتها في وقف انتشار أوبئة الجدري والتيفوس والملاريا أو الكوليرا. للمرّة الأولى في التّاريخ، كانت المعارك تتسبّب بالموت أكثر من الأمراض. في الحروب السّابقة كان الجنود الجرحى يموتون في أغلب الأحيان لا بسبب جراحهم بل من جرّاء التهابها. في عام 1896، أثناء حملة مدغشقر، توفّي خمسة آلاف جنديّ مرضاً قبل أن تطلق رصاصة واحدة. هذا لا ينفي أنّ فرص الجرحى في الشفاء تضاعفت بفضل التعقيم، وسجّل الطبّ انتصاراً حاسماً. لكنّ ويليامز كان يرى نفسه آنذاك في مواجهة مرض فتّاك وشديد العدوى. قال لأودويرتس بنبرة متفاصحة: «كيف لك أن تقول لشبّان في العشرين من عمرهم، لفتيان نجوا من القذائف والرّصاص والقنابل والألغام والغارات الجويّـة إنهم يواجهون خطر الموت بسبب نوعٍ من الإنفلونزا!...» ثمّ أردف متجهّماً: «أو بسبب رشحٍ، لمَ لا؟!»

في تلك اللّيلة، في الكوخ الصّغير المخصّص للزّوار، لم ينم أودويرتس كما ينبغي. على الرّغم من النار في الموقد، كان البرد قارساً. في الصّباح الباكر، بينما كان يحتسي زجاجة الكحول التي اشتراها في «باري بلاج» [92] لتساعده على تحمّل الرطوبة المتجلّدة، أمكنه أن يدرك خطورة الوضع. كان أسوة بويليامز لا يفهم مصدر المرض. بدت الأعراض، مع أنّها غير مسبوقة، مشابهة لأعراض الإنفلونزا، ولكن بقي هنالك أمر غير مفهوم. كانت الإنفلونزا قلّما تقتل الأطفال وكبار السنّ لكنّها لم تكن تقتل الشباب. كانت هذه الإنفلونزا بالنسبة له شيئاً آخر وربّما مكيدة من تدبير الألمان.

بعد تجنيد ألكسندر في مكتب الشّفرة السّريّـة، كان أودويرتس يتلقّى معلومات متزايدة عن رسائل العدوّ المتعلّقة بالبيولوجيا. كان يعرف أنّ هناكَ جراثيم تُزرع في المستشفى الألماني في مدريد. في بداية عام 1915، سُرِّبَت جراثيم رعاميّـة آتية من برلين داخل علب الصابون عبر الحدود الفرنسيّـة السويسريّـة. استطاع الألمان نقل العدوى إلى الخيول والحمير والبغال المنطلقة من إسبانيا والمرسلة إلى الجيش الفرنسيّ.

لم يبقَ الفرنسيّون مكتوفي الأيدي حيال ذلك. في برن، حاول أحد الضّباط نشر جرثومة الرعام في ألمانيا. أخفى كبسولات تحوي الجرثومة في أنابيب معجون الأسنان التي أُرسلت من سويسرا إلى الأسرى الفرنسيّين المعتقلين في معسكرات ألمانيّـة. كان يكفي أن تتنشّق الحيوانات الموجودة هناك العُصيّات لينتشر المرض. كان نجاح العمليّـة محدوداً لكنّ أودويرتس كان يفكّر في تطويرها بطرق أخرى.

كان الأمر الأكثر إثارة للقلق هو قدرة الألمان على الاختراع في مجال الأمراض. التقط مكتب الشفرة للتوّ رسالة من ضابط اختصاصيّ في علم الجراثيم أعيد إلى وطنه من الكاميرون ويُدعى كونراد. كان يقترح، إذا ما خاضت البرتغال الحرب ضد ألمانيا، أن يسمّم أنهر البلاد ببكتيريا الكوليرا، وكانت بضعة أنابيب من الجراثيم النقيّـة كافية حسب رأيه. في رسالة أخرى، كان كونراد نفسه يقترح نشر التيفوس في تسالونيك ومرسيليا وتولون، وكان هذا أمراً جسوراً ولكن قلّما يمكن تحقيقه وفقاً للفلمنكيّ الذي اضطرّ إلى أن يرفع تقريره إلى قادة المكتب الثاني.

أوضح لرؤسائه أنّ «التيفوس، سواء كان التيفوس الوبائيّ أو التيفوس الفأريّ لا ينتقل مباشرة من شخصٍ لآخر. بالنسبة للتيفوس الوبائيّ يجب نشر

براغيث أو قمل مصاب بالمرض بين السكّان المستهدفين. الأمر عرضيّ للغاية! بإمكان المرء أن يتخيّل نشر براغيث الجرذان أو القطط المصابة لكنّها ستنقل التيفوس الفأريّ الذي نادراً ما يقتل الإنسان، لذا لا فائدة تُرجى من ذلك!».

«لا!» ختم قائلاً أمام الضبّاط والموظّفين المنذهلين، وأضاف: «كونراد هذا يحلم. عليه بدلاً من ذلك أن يفكّر في نشر براغيث مصابة بالطّاعون. عندئذٍ ستكون الخطّة نافذة المفعول. على أيّ حال، يبدو نشر وباء الطّاعون في برلين فكرة جيّدة...».

لذا جعل يتساءل إن كان المرض الذي ظهر في إيتابل سلاحاً جرثوميّاً أدخله عميل ألمانيّ إلى المعسكر البريطاني. في اليوم التالي أطلع الرائد ويليامز على شكوكه فقال له إنّ الفرضيّـة خطرَت بباله. لسوء الحظّ، لم يكن لديه أيّ وسيلة للتحقق من الأمر.

مكث أودويرتس في المخيّم بضعة أيّام سعياً لتفحّص تطوّر المرض الغامض. أُعلِنَ عن أكثر من ثلاثين إصابة خلال إقامته.

اجتاح المرض الكثيرين وعرتْهم فـي النهايـة الزرقةُ الغريبة التـي كانت تجعلهم أشبه بمخلوقات الغولم [93]. كان هؤلاء المرضى يسعلون أقلّ مما يريقون دماً، وفي لحظاتهم الأخيرة حين كانوا يبحثون عن شهيق أو نفس كانوا كمن يستخرج الماء من بئرٍ، ويتفّون من فمهم رغوة زهريّـة اللّون تخرج منتفخة هشّة مثل زينة الحلويات.

باشر أودويرتس إلى جانب ويليامز ومساعديه في أعمال تشريح، وأخذ عيّنات وأجرى زرعاً. ثمّ أرسل عيّنات إلى كاليه. لكنّ النتائج كانت مخيّبة

فعصيّـة فايفر، كما قال الرّائد، كانت موجودة في كثير من الحالات، ولكن ليس في كلّها. الشيء الذي اعتبره الفلمنكي مؤشّراً لوجود بكتيريا ثانويّـة. غادر من جديد إلى كاليه ليجري تحاليل أكثر تعمّقاً للعيّنات التي جُمعت، وأصرّ على جعلها أولويّـة لمعاونيه إلى حدّ الإزعاج. لكنّهم لم يصلوا إلى نتيجة.

بعد ثلاثة أسابيع، أعلمه ويليامز لدى عودته إلى مخيّم إيتابل، أنّ الوباء لم يعد منتشراً. في المجموع، أصيب أكثر من مائتي شخص توفّي منهم حوالى مائة. وفشل البريطانيّون هم أيضاً في عزل الجرثومة المسبّبة لهذا المرض.

شعر أودويرتس بالانزعاج، وحين أراد الخروج من المعسكر ضلّ طريقه في ناحيَة لم يكن يعرفها من قبل. التفّ حول مبنيين فسيحين خاليين من أيّ صفات عسكرية. أوضح له أحدهم وكان يدعى تومي، أنّهما مأوى للدواجن حيث كانت تُعَدّ الدّيوك الروميّـة لعيد الميلاد. على مسافة أبعد أقيمَت حظيرة خنازير لإمداد فرق الجيش بالغذاء. كان ذلك في شهر ديسمبر وكانت الغيوم الكثيفة تعبر متسارعة فوق الكثبانِ الرمليّـة وأشجار الصنوبرِ الداكنةِ المتمايلة في الريح. فكّر خائباً أنّ المرض اختفى مثل الإنفلونزا الموسميّـة القديمة دون أن يتمكّن من معرفة ما إذا كان ذلك ناتجاً عن عملٍ تخريبيّ ألمانيّ.

وفي الواقع، كان يأمل أن يعاودَ المرض ظهوره. ربّما انتقلت العدوى من جنديّ لم يتسنَّ للمرض إخضاعه بعدُ إلى أشخاص آخرين أثناء مأذونيّـة له في «باري بلاج» أو في توكيه [94]. لا بدّ أن الميكروب كان يشقّ طريقه في مكان ما من فرنسا أو إنجلترا، ولكن من المستحيل اقتفاء أثره. ومع ذلك كانت تلك ضالّته: العثور على جرثومة فتّاكة شديدة العدوى قادرة على أن تشكّل سلاحاً مرعباً في وجه العدوّ.

وجب التشدّد في اتّخاذ الاجراءات الاحترازيّـة. اطّلع على قائمة المرضى الذين أصيبوا بهذا المرض. كانت تضمّ أستراليّين ونيوزيلنديّين وكنديّين وهنوداً وأفارقة جنوبيّين وحتّى صينيّين. إذا كُتب لهم الشفاء من المرض فسيذهبون إلى الجبهة ولن يعودوا أبداً على الأرجح. ولكن، إذا أتيح لهؤلاء المرضى الذين ينتمون إلى بلدان مختلفة أن يعودوا يوماً إلى ديارهم فإنّ الوباء سيصبح عندئذٍ وبالاً على العالَم كلّه.

مرّ بجنودٍ ينْتفون وهم يمرحون أرياش الدّيوك الرّوميّـة. رأى ممرّضتَين ترتديان ثياباً بيضاء تمشيان مسرعتين باتّجاه مخيّم المستشفى العامّ. توقّف لمراقبتهما. كان معجباً بهؤلاء النّساء اللّواتي يواجهنَ مخاطر العدوى في غرف العمليّات ويتحمّلنَ المشهد المرعب للعمليّات الجراحيّـة التي تجرى للجنود. أمس، استوقفه ما قامت به إحدى الممرّضات حين فتحت النّافذة على مصراعيها لدى وفاة جنديّ. نظرت إليه للحظة بعدم مبالاة ثمّ ابتعدت مسرعة. بما أنّ الفلمنكي بقي هناك لا يلوي على شيء، استدارت نحوه قائلة له بصوتٍ هامس: «هذا لكي تتمكّن روحه من الخروج».

كان يرى أنّ مهامّ المرأة الأساسيّة تقـوم علـى المواسـاة والاهتمام بالعائلة وتقديم الرعاية الكاملة لها. لم يكن يحبّ رؤيتهنّ على الجبهة في خضمّ المعارك، مثل تلك الطبيبة الفرنسيّـة التي جُنّدَت خطأ لأنّهم ظنّوا أنّها رجل على أوراقها الثّبوتيّـة. بدا أنّها كانـت على الخطّ الأمامي للجبهة فعّالة مثـل زملائها الذكور، ولكن الأمر زاد عن حدّه! كان صحافيّ من مجلة «الحياة الباريسيّـة» la Vie parisienne قد لخّص وجهة نظره تماماً بهذا الخصوص: «لا يحتاج الجنس اللّطيف للتعرّض للقنابل والقذائف، فقِدْرُ الطعام تكفيه!».

على الرّغم من أنّه لم يكن يهوى الأدب إلّا أنّ إحدى رواياته المفضّلة كانت «أميرة العِلم» لروائيّة كاثوليكيّة نسيَ اسمها. في البداية، كانت البطلة، وهي عذراء ذهنيّة الطّبيعة، ترفض مصيرَها كامرأة باسم الطموحات الفكريّة. ثمّ تمكّن زوجها، لحسن حظّه، من إعادتها إلى مكانها الطبيعيّ، فهو ما كان يتقبّل أن يصبح «زوج الدكتورة». حرّكت نهاية الرواية مشاعر الفلمنكيّ حين عادت هذه المرأة المتمثّلة بالرجال إلى رشدها أخيراً قائلة لزوجها بصوتٍ تخيّلَه راجفاً: «سأكون رفيقتك، ومساعدتك المتواضعة في أبحاثك، ومعاونتك». استحسن أودويرتس أن تكرّس زوجة بهذا الذكاء نفسها أخيراً لعائلتها وأولادها. لدى مروره، ابتسم للممرّضات اللّواتي كنّ يرحنَ ويجئنَ بخطىً مسرعة في معاطفهنّ الطويلة. ذات يوم سيترتّب عليهنّ هنّ أيضاً العودة إلى منازلهنّ فيشرّفنَ مصيرهنّ كنساء. توقّف قائلاً بصوتٍ عالٍ: «ليلي!». في خضمّ كلّ هذه الأحداث كان قد نسيَها تماماً! وعد بتهريبها إلى فرنسا الحرّة. إنّها المعاوِنة التي يحتاجها، فهي أكثر تفانياً من الطبيبين الشّابّين اللّذين عُيِّنا مساعدين له، وأقلّ ميلاً لمعارضته.

انطلق عائداً بسرعة إلى كوخه. منذ الغد سيُعلم من يهمّه الأمر في المكتب الثّاني متطرّقاً إلى مسألة إلحاقها به.

بريمونتريه، 1916

أُيقِظَت ليلي من نومها عنوة. كانت يدٌ خشبيّـة تكمّ فمها وتضغط على وجنتيها إلى حدّ تحطيم فكّها. نفر الدمع من عينيها إذ لمحت قامة فوقها في الظلمة، وجه رجلٍ لم تستطع تميّز ملامحه. مذهولة، أرادت أن تنظر جهة السّرير حيث كان ينام أرمان، لكنّ ثقلَ الذّراع الضاغطة على صدرها منَعها من الاستدارة. انحنى الرأس نحوها مقترباً من أذنها. لفرط صدمتها لم تفهم الكلمات الأولى التي همس لها بها ثمّ سمعت اسم «تيو أودويرتس». استغرقها الأمر بضع ثوانٍ لتَفهم. كانت ذراع الرجل تواصل الضغط على صدرها لكن يده أرخت قبضتها. أخذت نفساً عميقاً ممسكة نفسها عن الصّراخ بعد أن سمعت كلمة المرور «بوركهولديريا ماليي». عندئذٍ هدأت قليلاً ومسحَت دموعها. نهض الرّجل هامساً: «ارتدي ثيابكِ واتبعيني إلى الخارج بسرعة!».

في الحديقة المتجلّدة شرح لها الرجل المجهول ببضعِ جملٍ ملفوظة بسرعة أنّ اسمه جوزيف كاتييز، وأنّه كان يقود شبكة من مقاومي الاحتلال. لقد وشوا بها لدى البروسيّين وعليها الرّحيل قبل أن يأتوا في الصّباح لاعتقالها.

قالت مفكّرة على الفور بالأمّ أديل:

- وشوا بي! هل تعرف من وشى بي؟

- ليس الأمر واضحاً. أحد معاونينا في «لييس نوتردام» هو الذي أخطرنا بذلك. منذ فترة ونحن نراقبكِ، ولكن هذه المرّة الأمر أكيد. لذا يجب الرّحيل.

- ولكن ليس من دون أرمان، ابني. عمره ثلاث سنوات. إنّه بحاجة إليّ.

بدا كاتييز منزعجاً، نظر إليها بحزنٍ ثمّ قال:

- مستحيل! سيكون في الأمر مخاطرة كبيرة إن اصطحبتِ طفلك.

- لن أرحلَ من دونه.

- سيّدتي، خذي كلّ ما تحتاجينه واتبعيني الآن في هذه اللّحظة. سيُعتنى بالصّغير. أعرف عائلتين على الأقلّ سيسرّهما احتضانه. هيّا، الألمان قادمون.

- قلت لك لا!

تحدّث معها كاتييز كمَن يتحدّث إلى تلميذة عنيدة: «في أحسن الأحوال سيرسلك الألمان إلى معسكر تتعفّنين فيه لأشهر، وربّما لسنوات، ويعهدون بابنك إلى مدرسة داخليّـة حيث يجعلون منه تلميذاً بروسيّاً جيّداً. وفي أسوأ الأحوال، سيَعُدّونَكِ جاسوسة ويعدمونك بالرّصاص. على أيّ حال، يستحيل أن تذهبي برفقة ابنك. أعرف كيف تسير الأمور. صدّقيني!»

لم تُجب ليلي. كانت تستشيط غضباً وحقداً على هذا الرّجل السّافل. لكنّه كان على حقّ!

- هل فهمتِ قصدي يا سيّدتي؟

- دعني إذَن على الأقلّ أشرح له. دعني أودّعه.

- ليس لدينا وقت. ثمّ إنّه سيُحدث ضجيجاً ويوقظ الجميع. تعرفين كيف هم الأطفال...»

تنهّدَت ليلي. كانت تعرف... ولكنّها شعرت بحزنٍ مدمّر إزاء رحيلها هكذا دون أن تقول لأرمان وجهتها. نظر كاتييز إلى السّماء. ارتسم عند الأفق شريط نورٍ منذراً بالصّباح. يجب الرحيل. التفت مصفّراً مرّتين. وبعد دقيقة رأت شخصاً منبثقاً من عمق الحديقة يسير باتّجاههما. كانت امرأة ترتدي ثياب العاملات. حيّت ليلي بإيماءة من رأسها. قال كاتييز: «إنّها أميلي. ستهتمّ بابنك أرمان». أدركت ليلي أنّه خطّط لكلّ شيء ما جعلها تهدأ قليلاً. ثمّ غادرا المصحّ عبر الجانب الخلفيّ للحديقة. باستثناء دوريّـة في الغابة سَهُلَ عليهما تفاديها، انطلقت مسيرتهما حتّى لان بسلامٍ. كانت تحمل معها بعضاً من ملابسها ومؤونة هزيلة. كاد ألّا يتسنّى لها الوقت لتقبيل أرمان على جبينه دون أن توقظه. حين نهضت، كانت عيناها تؤلمانها. تسلّحت بالشّجاعة وهمست ببعض التوصيات لأميلي ثمّ قبل أن تستدير على أعقابها لترحل انتشلَت من حقيبتها قلادة القديس بنوا التي أعطتها إياها ماري أوفرازي وقالت بصوت خافت: «أعطيها لأرمان وقولي له إنّها تجلب الحظّ وإنّها هديّـة من أمّه التي ستعود قريباً للبحث عنه». همس كاتييز في أذنها: «طلع النّهار». وجذبها خلفه دون اكتراث.

في الحديقة، استحوذت عليها فكرة أن تعود أدراجها وتهرع لموافاة أرمان. تساءلت في نفسها وهي تمرّ تحت الأشجار التي جمّدها الصّقيع: ما الذي كانت تفعله؟ هل لديها أيّ فكرة؟ أتترك طفلاً في هذه المنطقة المحتلّة، وسط المرضى والمجانين؟ كانت تتجنّب التّفكير في اللّحظة التي سيستيقظ فيها الصبيّ الصّغير ليجد امرأة مجهولة بجانب سريره ويدرك حينئذٍ بكلماته الطفوليّـة أنّه تُرِكَ وحيداً لأنّ والدته تخلّت عنه. في سكون الصّباح الذي بدأ دويّ المدافع يمزّقه في البعيد، كان ذهولها يتنامى باطّراد. أخذت تتذكّر هائمةً مئات اللّحظات التي أمضتها مع أرمان. أثارت استغرابَها فكرة أنّهما كانا

شديدَي القرب أحدهما من الآخر، وأنّها غادرت بهذه السّرعة العالمَ الذي بنياه معاً وكان هو محوره. من حولها كان المشهد غارقاً في ضباب خفيف. كانت تسير لا تدري لها وجهة، متعثّرة بالأخاديد، مرتعبة لإدراكها أنّ الشخص الوحيد الذي يهمّها كان ينأى مع كلّ خطوة أكثر فأكثر. تولّاها تعب ما عرفتْه من قبل، مثقِلاً كلّ حركة من حركاتها، وكان يقين وحيد يشدّ أزرها، ألا وهو العودة لموافاة أرمان، وفي أقرب وقت.

لم تحتفظ ليلي إلّا بذكريات مشوشّة عن هربها مع كاتييز. سارا ليلاً حتّى بلجيكا وهي لا تفكّر إلّا في ابنها الذي كان لا يزال ينتظرها يقيناً برغم كلّ ما قيل له. لدى الاقتراب من الحدود عهد البيكارديّ بها إلى رجلين في الخمسين من عمرهما، متجهّمَي الوجه، ولم يتبادلا معها إلّا كلمات معدودة خلال الأيام الثلاثة التي أمضتها برفقتهما. كلّ ما استطاعت أن تفهمه منهما أنّهما كانا ينتميان إلى شبكة «السيّدة البيضاء»، وهي منظّمة بلجيكيّـة سريّـة. الاسم آتٍ من أسطورة ألمانيّـة تؤمن بظهور شبح أبيض يأتي ليعلن سقوط سلالة هوهنتسولِن [95]. اجتازوا مدُناً خامدة لم تكن أسماؤها المعقّدة تعني لها شيئاً، وتفادوا الدوريّات عن طريق الاختباء خلف الأسيجة المتاخمة للحقول ليصلوا أخيراً إلى مزرعة منعزلة بالقرب من قرية تدعى سانت لورنس. كان اسم مالكها بروت، وهو فلمنكي طويل القامة ورديّ البشرَة، مرح النظرات، وكتفاه تشبهان أكتاف الحدّادين. بعد رحيل الرجلين، شرح لليلي بفرنسيّـة ركيكة أنّ الحدود باتت قريبة جدّاً وأنّ عليهما اجتيازها هذه اللّيلة لأنّ القمر محجوب بالغيوم. كان يترتّب عليهما دهن أيديهما ووجهيهما بالأسود وارتداء ملابس سوداء ضيّقة. قبل رحيلهما أعطاها تبغاً لتمضغه. نظرت إليه ليلي

مندهشة. فقال لها: «هذا يمنع الفم من الجفاف... ويجنّب أيضاً السّعال... إذا سعلتِ لقيتِ حتفكِ».

لحظةَ انطلاقِهما كانت لا تزال تتساءل هل كان يفترض بها أن تعود أدراجها. حاولت يائسة أن تفكّر بتعقّل، ثمّ ما تكاد تتوصّل إلى ذلك حتّى تعود وتلعن نفسها لأنّها أمّ بهذا السّوء. لمدّة ساعتين تَقدّمَها بروت عبر الحقول عابراً بسرعة من بقعة معتمة إلى أخرى. ترتّب عليهما الرّكض منخفضين وحبس أنفاسهما. حين مرّت دوريّـة من الشّرطة العسكريّـة الألمانيّـة بجوار الغابة حيث اختبآ لم تنتبه لها ليلي، وبعد مغادرتها ظلّت ترتجف طويلاً وهي في حالة من الذهول والذعر. أوضح لها بروت أنّ الحدود كانت محاطة بأسلاك شائكة مكهربَة وأنّ عليهما المرور من تحتها. اقتربا بحذر شديد حتّى سماع خطوات الحرّاس الذين يقومون بنوبة الحراسة وسلكا طريقاً مهجوراً للوصول إلى وادٍ طبيعيّ مطلٍّ على نفقٍ ضيّق يفضي إلى هولندا. عند الخروج من النّفق كان رجل بانتظارهما. لم يتسنّ الوقت لليلي كي تودّع بروت. حين استدارت كان قد غادر تحت جنح الظلام.

في فرنسا اصطحبها جنود لم تتعرّف إليهم بسبب تغيّرِ زيّهم العسكريّ. خوذة أدريان [96]، المنتفخة مثل ظهر الخنفساء، حلّت مكان «الكاسكيت»، وما عادوا يرتدون السّترة الزرقاء والسّراويل الحمراء القديمة، مستعيضين عنها ببدلةٍ أخضرُها أقرب إلى الرّماديّ الألمانيّ.

في كاليه أتى ألكسندر لموافاتها. كان يعمل آنذاكَ في مكتب الشفرة في وزارة الخارجية، وهو مكتب مهمّ وإن لم يكن له وجود رسميّ. لم يجرِ ألكسندر أيّ تدريب على عِلم التشفير ولكن أعطيت له بعض البرقيّات الألمانيّـة المشفّرة بناءً على توصيَة من تيو أودويرتس، واستطاع إيجاد مفتاح

الشفرة في أيّام قليلة. حتّى جورج بانفان، موزارت عِلم التشفير، بدا معجباً به. بالنسبة إلى ألكسندر، وهو أحد علماء الرياضيّات النادرين في العالم الذين كانوا يفهمون أعمال كانتور، كانت عمليّات التشفير أشبه برياضة أوليّـة لتقوية العقل. كانت هذه الموهبة تتيح له العمل في مكاتب باريس بدل التعفّن في أوحال الخنادق، أسوَة بمعظم الشبّان في سنّه.

أمضى معها بضعة أيّام ليتسنّى لها التأقلم مع الحياة في المنطقة الحرّة، ثمّ غادر إلى شانتيي وباريس لاستئناف عمله في تحليل الشيفرات. لم تكن ليلي غاضبة من جرّاء ذلك. أضحى المراهق الذي أحبّته في «عمل الشّمال» يزعجها لأنّه بات يشبه حديثي النعمة، وكان فوق ذلك عصابيّاً. كانت عصبيّته المرضيّـة وتشنّجاته اللّاإراديّـة المتزايدة تشوّه جماله الطفوليّ لا سيّما وأنّ رأسه يتأرجح في كلّ مناسبة مائلاً إلى اليمين قليلاً. أمّا نظرته التي كانت تصرّ على اعتبارها مراوغة فكان يتطاير منها الشرر ما إن يصطدم بأدنى معارضة. لم تكن تستاء من تصرّفاته لأنّها كانت تتبيّن فيها علامات جرح قديم تُدرك مصدره جيّداً.

شارداً استمع ألكسندر إليها وهي تروي حياتها في بريمونتريه. وتحدّث خصوصاً عن عمله على شيفرات البحريّـة الألمانيّـة التي كان يأمل في فكّها لمعرفة مسارات غوّاصات العدوّ. حين لمّحت إلى «عمل الشّمال» لم يعلّق بشيء، رافضاً التحدّث عن والديه المتوحّشين، أو عمّا كابده بعد رحيلها. كانت مستعدّة لسماعه يبوح بأسراره، وللتعبير له عن امتنانها. لكنّه بدلاً من ذلك أمعن في نصحها بالعثور على زوج. إذا تحدّثت عن متابعة أبحاثها مع أودويرتس كان يناكدها مذكّراً إيّاها بموبيوس [97] الذي لا يُطاق، مردّداً أقواله برتابة أسطوانة الغراموفون: «النساء المتبحّرات والفنانات هنّ منحطّات وإلخ إلخ

إلخ...» لذا اتّخـذت قراراً حاسماً بألّا تفصح لهـذا السيّد الكئيب عن أنّه والد أرمان.

لان، 1916

بعد أسبوع من تشهيره بليلي، كان ألكسي كافيل يتناول فطوره في شقّة مريحة ومدفّأة جيّداً في بيت الكهنة. عشيّـة ذلك اليوم، كان قد دُعيَ إلى مأدبة عشاء نظّمتها السلطات الألمانيّـة. ما برحت معدته تؤلمه ولكن هذه المرّة من فائض الطعام. فقد عادة تناول الطعام حتّى التّخمة. وكذلك، بعد غسله أذنه عدّة مرّات خرجت الحشرة التي تحوّلت إلى كرة سوداء موبرة. أضحت الحياة أقلّ قسوة. هنّأ نفسه وهو يبسط النسخة الصباحيّـة من صحيفة «غازيت ديزاردين» [98]. نجحت ليلي روسّو في الهرب من الجنود لكنّ القاضي بوتزنزيغر حقّق في الأمر. ثَبَتَ أنّ معلومات كافيل كانت صحيحة. وهكذا صار الكاهن في نظر الألمان في عداد الفرنسيّين الذين يمكن الاعتماد عليهم واندرج في فئة الأصدقاء المدلّلين. بطبيعة الحال كان كافيل حريصاً على إطلاع جوزيف كاتييز، المرتاب بأمره، على أنّ قبوله بهذه الامتيازات كان من باب خدمة فرنسا، والحصول على معلومات سريّـة.

حين أخبرته أديل ساخطةً أنّ الألمان عرفوا بأمر ليلي روسّو لكنّها تمكّنت من الفرار، بدا متفاجئاً وقال لها: «لا تنسي أنّ أجهزة استخباراتهم قويّـة!» ثمّ أضاف ووجهه يرشح خبثاً: «أرأيتِ يا أختي، لم يكن الأمر يستحقّ أن نتدخّل في هذه القضيّـة».

ذات مساء التقى كافيل بالرّائد كلاين في منتزه الأسوار. كان يتحدّث طوعاً إلى هذا الألماني المثقّف، ساعياً إلى تعزيز معرفته بلغة غوته التي

تعلّمها في الدّير منذ سنوات خلت. مشى بضع خطوات متقدّماً الطبيب ليوافيَه من بَعدُ تحت شجرة الدردار.

كان كلاين لا يزال شابّاً، في الثّلاثين من عمره تقريباً. كان رجلاً قصير القامة نحيفاً، ابن أحد نبلاء بوميرانيا [99]، ذا وجهٍ نحيل ووجنتين بارزتين كوجنات الآسيويّين. كان يثير إعجاب كافيل بذكائه الموسوعيّ الذي يحلو له التعبير عنه برهافة في حديثه المنمّق بالعبارات الكوسموبوليتية.

تبادلا الحديث في بضع جملٍ غامضة تتحدّث عن بؤس الأزمنة ومآسي الحرب. كان الألمانيّ يأمل ألّا يكون الاحتلال الراهن سوى مرحلة عابرة تتوطّد من بعدها هيمنةُ ألمانيا على أوروبا وتبدأ حقبة جديدة من الازدهار، في حين كان الكاهن يذكّر بالأراضي المقتطعة من فرنسا.

ثمّ قال كلاين:

- تأخذ الحرب منعطفاً غريباً في بعض الأحيان. كمثل ذلك المرضِ الذي أودى بحياة أسرة بكاملها وانتشر لدى بعض جنودنا والذين يرعون صحّتنا.

- هل عرفتم ما هو هذا المرض؟

تغضّن جبين كلاين ما جعله أشبه بحكيم يابانيّ قديم. «ليس لديّ أيّ فكرة... أهو التهاب رئويّ أم إنفلونزا. كلّ ما أعرفه أنّه سريع التفشّي ومن مميّزاته أنّه يؤدّي إلى موت من يحمله، كيف تقولون العبارة؟»

أكمل الكاهن قائلاً:

- لديه خاصيّـة مميتة. وافرض أنّكم تجهلون ما هو... ولكن هل يمكن أن يؤدّي إلى وباء؟

أومأ كلاين برأسه وهو يطرف بعينه ثمّ قال بنبرة متواطئة: «سيّدي الكاهن، أريد أن أخبرك بشيء، يبقى بيننا. كان الملازم هوفمان عائداً من مهمّة سرّيّـة، مهمّة مراقبة في الأراضي الإنجليزيّـة، في إيتابل، على الشاطئ الفرنسيّ... لا شكّ في أنّه التقطَ هذه الجرثومة هناك... أصدقاؤكَ البريطانيّون يصنعون أشياء غريبة...

- أليسَ هذا المرض طبيعيّاً؟

- ربّما نعم وربّما لا... بإمكان هذا المرض الغريب أن يكون سلاحاً مخيفاً... هل ثمّة ما يدعو للتّفكير أم ماذا؟

ابتسم كافيل بهيئة من فهم ما يرمي إليه: «أليست الحرب الجرثوميّـة فكرتكَ المفضّلة؟»

كان يعرف منَ الممرّضين الفرنسيّين وأسرى الحرب الذين عملوا في مختبر كلاين أنّ جراثيم تُصنع هناك لنقل العدوى إلى الخيّالة الفرنسيّـة. هذا الطبيب الودود والمثقّف كان له أيضاً وجهه القاتم.

- فكرتي المفضّلة؟ كما تريد... رأيت ما تقدر عليه الأسلحة الكيميائيّـة. حسناً في رأيي، الأسلحة البيولوجيّـة تفوقها فعّاليّـة. ولستُ الوحيد الذي يعتقد ذلك. ربّما كان هذا هو السرّ الذي استحصله هوفمان التّعيس لدى الإنجليز وأراد قوله، أو أنّ...

- لا أتصوّر أنّ الإنجليز قادرون على مثل هذه الوحشيّـة.

- لأنّك رجل دين مثاليّ وسليم النيّـة. ولكن إذا توصّل أحد علمائكم إلى عزل جرثومة هذا المرض الفتّاك، فهل تعتقدُ أنّه سيتردّد ثانية واحدةً في نقله إلينا؟ وافترضْ أنّه امتنع عن ذلك فإنّ الجنود سيسارعون لإرغامه على القيام به.

- هل عزلتم الجرثومة؟

- لا يحقّ لي أن أفصِحَ لكَ عن الأمر... أو إن أردتَ الحقّ: بئسَ الأمر: لا، لم نستطع اكتشافها أو معرفتها. ولا أعتقد أنّ الإنجليز نجحوا أكثر منّا. حتّى الآن... لكنّ المرض يتجوّل وينتقل داخلَ لان وخارجها. أين؟ متى؟ كيف؟ لا أحد يعرف لكنّه سيُعاودُ ظهورَه، ولو كنتُ قادراً على زرعه والحالة هذه لما تردّدتُ، صدّقْني».

هزّ كافيل رأسَه قائلاً: «هناكَ لحظات تخيفني فيها يا سيّدي الرّائد».

أمامهما، في الأسفل، كان مشهد السّهل الفسيح الخارج لتوّه من الشّتاء يمتدّ على مسافة كيلومترات مكسوّاً بالوحل رازحاً تحت سماءٍ تزداد قتامة. قال كلاين «يجب أن ننتهيَ إلى حلّ، سيد كافيل... وهذا الفيروس وسيلة ممتازة. سأفعل كلّ ما بوسعي لأعثر عليه قبل علمائكم».

ليليت (2)

«عِشْتُ طويلاً طويلاً

في عالمٍ آخر

وأريد العودة إليه».

إيغون شيله

كاليه، مايو 1917

في المختبر الذي أضاءته شمس بعد الظّهر السّاطعة، كانت ليلي تتفحّص عيّنة في المجهر حين دخل تيو بخطواتٍ مسرعة. وإذ رفعت عينيها عن المجهر، فهمَت على الفور أنّ فكرة جديدة شغلته للتوّ، فكرة جديدة كما في العادة.

قبل سنة أصبحَت معاونة الفلمنكيّ بعد إخراجها من المنطقة المحتلّة. سنة مرّت وما من خبر عن أرمان! كأنّها دهر في نظرها. كانت تعمل صباحاً ممرّضة في المستشفى، ثمّ تكرّس بعد الظهر لتحضير الزرع والبحث عن الجراثيم وفق تعليمات معلّمها الذي أصبح خبيراً مشهوراً في فنّ الحرب الجرثوميّـة. كانت الحياة مع عالمٍ غريب الأطوار ومتطلّبٍ مثله منهكة. كان لديه دوماً حدس جديد يجب التحقّق منه في الحال، وإنْ أمضى اللّيل بطوله منكبّاً عليه. ثمّ لا يلبث أن يعلن أنّ مسار الأبحاث هذا لا يستحقّ الذكر، وأنّه ينبغي التخلّي عنه فوراً للانصراف إلى مسار آخر أشدّ جاذبيّـة. كان سعي ليلي لتتبّع نزواته يضنيها، وتتساءل كيف بإمكان قيادة الأركان الفرنسيّـة أن تَثِقَ بعالِمٍ متقلّبِ المزاج مثله؟

لسوء الحظّ، كان أودويرتس أملها الوحيد لرؤيَةِ ابنِها مجدّداً. وحده كان قادراً بفضل صِلاته الوثيقة مع المكتب الثاني على تهريب الصبيّ حين يُصبح الأمر ممكناً. ولكن متى؟ كانت تذكّره بذلك ما إن تسنح لها الفرصة. انقطعت أخبار الشبكة التي كان ينتمي إليها كاتييز بشكلٍ تامّ. كانت تجهل ما إذا كانت أميلي تلك التي رأتها في بريمونتريه لا تزال تُعنى بأرمان. ولم يأتها أودويرتس بأيّ خبر مع أنّه كان على اتّصال مع معاونين له في لان، وكان يستعلم عن أنشطة علماء البيولوجيا الأعداء هناك. وحين سئمَت من الانتظار ونفد صبرها، ذكرت أمامه إمكانية العودة إلى بريمونتريه والذّهاب للبحث عن ابنها، لكنّه هزّ كتفيه هازئاً قائلاً لها إنّ ما تنوي القيام به عمل جنونيّ.

في 27 أكتوبر، اليوم الذي وُلد فيه أرمان، أضاءت خمس شموع في كنيسة كاليه الصّغيرة أمام تمثال العذراء. كانت تجهل معنى الصّلاة لكنّها حاولت أن تفكّر باللّحظة التي سيلتقيان فيها وكيف سيكون ردّ فعل كلٍّ منهما حيال الآخر. هل بالإمكان تخيّل طفل بهذه السنّ الصّغيرة في منطقة محتلّة على مسافة بضعة كيلومترات من المعارك، ولا أحد يحميه أو يُطمئنه؟ لم تكن تريد الحديث عن الأمر حتّى. كان هذا الانتظار عذاباً مبرّحاً. كانت تقرأ أخبار الجبهة وتحاول أن تستعلم لدى الجنود الجرحى، في المستشفى. على مسافة كيلومترات من لان، انتهى الهجوم الذي نُفّذ في «شومان دي دام» بمحصّلة تبعث على اليأس. كان ألكسندر يتحدّث عن مائتي ألف قتيل من الجانب الفرنسيّ وما يوازيه ربّما في صفوف العدوّ. لكنّ هذه المجزرة لم تسمح حتّى بتحرير المدينة حيث يوجد ابنها. كان سجيناً في مدينة تقع على أبواب الجحيم، أمّا هي، أمّه، فكانت غير قادرة على تحريره. في اللّيل كانت تفيق متجلّدة، والعرق يتصبّب منها، معتقدَة أنّها سمعَت أرمان يناديها لتنقذه. كانت خائفة

وتشعر أنّها مهزومة، ترثي لحالها وتضمر حقداً يفوق الوصف على كلّ الحواجز المنتصبَة بينها وبين ابنها. صارت في غاية الهزال تكتفي بالقليل من الطعام وتتجرّع ليترات من القهوة الرديئة. لم يعد لديها إلّا العمل والقراءات، المتزايدة باطّراد، خصوصاً في مجالي علم الأحياء وعلم النّفس تسلّيها وتخفّف عنها تعاستها بعض الشيء.

ذات يوم بعد الظّهر وفيما رفعَت ليلي نظرها عن مجهر كارل زيس، منتظرة، بإعياء مسبق، أن يتحفها أودويرتس بآخر نزوة خطرت له، قال: - جهّزي أمتعتكِ. سنرحل!

- نرحل! إلى أين؟

للحظَة علّلت نفسها بأمل مجنون منتظرةً أن يقول: «إلى لان»، فكان جوابه غير متوقّعٍ على الإطلاق: «إلى قادس في إسبانيا».

كانت تجهل آنذاك ما ينتظرها ولكن «حربها» بدأت. وتبدّت أكثر رعباً من تلك التي سمّيت يوماً «الحرب الكبرى». وقد بدأت بأسفار كانت بمثابة ضربات مسبار تسعى لإخراج العدوّ من مخبئه، العدوّ غير المرئي بالطّبع.

مدريد، مايو 1917

تناول تيو أودويرتس قارورة «التّرموس» ثمّ حلَّ سدادتها المثقوبة بفجوات صغيرة وسكبَ المحتوى على الطّاولة. تناثرت مئات الحشرات ذات اللّون البنيّ الداكن أو الأحمر، التي يبلغ طولها ميلمترين أو ثلاثة، على القماش المشمّع. أمسك الفلمنكيّ حشرة بملقط شعر. قال مشخِّصاً: «إنّها سوسة».

«هل تذكرين حصصي الدراسيّـة يا ليلي؟ إنّها خنفساء من فصيلة السوسيّات الحقيقيّـة. تحت المجهر تكشف هذه الممسوخة عن وجهها الحقيقيّ: حشرة دميمة جلدها موبر ومخدّد مثل حقل ألغام، عيناها ضخمتان، وقوائمها ذات مخالب يمكنها أن تتشبَث بأيّ شيء، وفي قمّة رأسها خطمٌ طويل قادرٌ على ثقب أشدّ الأسطح صلابة. إنّها سيرانو [100] الأهراء، تفتك بجميع أنواع الحبوب، القمح والشيلم في المقدّمة ولكنّ شراهتها تفوق الوصف وهي قادرة أيضاً على التهام المعكرونة والأرزّ وحتّى الطحين...».

أفلت الفلمنكي الحيوان الصّغير الذي كان يتخبّط بين ساقي الملقط المعدني ثمّ التفت إلى الضابط الفرنسيّ الجالس في الطّرف الآخر من الطاولة، الذي انتفض قليلاً على كرسيّه وهو يرى حشرات السوس تتقدّم باتّجاهه. «تُعتبر حياتها قصيرة الأمد، أربعة أشهر على الأكثر، لكنّ أنثى السوس الشرهة تحفر ثقباً في الحبّة حيث تبيض حوالى مائة وخمسين بيضة ثمّ تغلّفها بواسطة مادّة جيلاتينيّـة لا تلبث أن تقسو. وهكذا تتغذّى اليرقة على الحبّة ثمّ تخرج لتتكاثر بدورها. هل تتخيّل المجزرة التي تحدثها في إهراء القمح؟

تستطيع في غضون أيّام قليلة تدمير محصول ستة أشهر. هل تقول يا حضرة الملازم أنّ لديكم عدّة قوارير «ترموس» مشابهة؟

- لدينا ثمانٍ بالضبط يا سيّدي.

في شهر مايو ذاك كان جوّ الغرفة الصّغيرة شديد الحرارة في السّفارة الفرنسيّـة في مدريد، وكانت ليلي تتصبّب عرقاً. عشيّـة ذلك اليوم كانا قد وصلا إلى قادِس لمشاهدة انطلاق الباخرة العابرة للأطلسيّ «رينا فكتوريا أوجينيا» متّجهة إلى مونتفيديو وبوينس آيرس. كان المشهد رائعاً: كانت الباخرة تقلّ ألفاً وأربعمائة راكب أثناء هروبها المهيب من الجحيم الأوروبيّ. في عنبر الأمتعة كان هناك فقط حقيبتان مفقودتان تخصّان سيّدة بلجيكيّـة تدعى إميلي وخادمتها الخصوصيّـة وقد استولت عليهما المخابرات الفرنسيّـة أثناء اللّيل.

في الحقيبتين عثر الملازم ريفيير، منسّق العمليّات، على ثماني قوارير «ترموس» مغلقة بإحكام بسدّادات مهوّاة، وبعض علب من قطع السكّر. كانت إحدى تلك القوارير التي فتحها الفلمنكيّ للتوّ وتناثرت حشراتها لتتقافز محمومة على الطاولة.

فجأة نهض ريفيير غاضباً فطـوى القماشة المشمّعة من جديد ثـمّ ذهـب بسرعة لينفضها من النافذة تاركاً السوس المترنّح المتساقط من علوّ طبقتين ينتشر في الحديقة. عاد إلى أودويرتس وسأله:

- ما رأيك يا سيّدي؟

كان الفلمنكيّ مستمتعاً بنفور الجنديّ من الحشرات. ذاكَ الضابط الشّجاع الذي لم يكن ليجفل تحت وابلٍ من القذائف كان يخشى الحيوانات الأصغر من ظفر خنصره. ومع ذلك كان أودويرتس مسروراً بشكلٍ خاصّ لاستنتاجه أنّ الأمور كانت تجري كما تصوّرها تماماً: كان الألمان يهاجمون بكلّ الوسائل البيولوجيّـة المتاحة لهم.

قال طارفاً بعينه:

«كانت السيّدة إميلي تحمل في حقيبتها ما هو أفضل من المتفجّرات بكثير. الأرجنتين تمدّنا بالحبوب. لذا يرى أعداؤنا أنّه يجب تحييدها إمّا عن طريق نسف سفنها -وهذا ليس دوماً سهلاً فالمحيط شاسع!- وإمّا عن طريق إفساد محاصيلها... يكفي إذاً إطلاق هذه الحشرات في أهراء القمح في بوينس آيرس لإفساد إنتاج سنة بأكملها... والملفت في الأمر أنّ لا أحد سيلاحظ المشكلة إلّا لدى وصول السفينة التي تنقل القمح إلى أوروبا. من أين أتت هذه البضاعة؟

- تمّ تسليمها بواسطة الغواصة U35 في قرطاجنة. الألمان دفعوا للسيّدة إميلي لإرسالها إلى قادس ومن هناك إلى ...

- لا بدّ أنّ السيّدة إميلي تشعر بخيبة أمل كبيرة الآن. أضاعت طرد الألمان... وأسوأ من ذلك فقدت ثقتهم. يترتّب عليها أن تجدَ طرقاً أخرى لتكسبَ رزقها... أمّا الأنابيب الصّغيرة المخبّأة في قطع السكّر في الحقيبة الأخرى، فسنتفحّص المحلول مع مساعدَتي - التفتَ إلى ليلي. أكيد أنّ الأمر يتعلّق بجراثيم الرعام. ثمّ متوجّهاً من جديد بالكلام إلى الملازم: هل تذكر تلك

الباخرة الأرجنتينيّـة التي كانت تنقل خيول البامبا [101] لصالح الخيّالة الفرنسيّـة منذ ثلاثة أشهر؟

- الباخرة ريفادافيا؟

- بالضبط. أُجبرَت الباخرة على تغيير اتّجاهها وسط المحيط الأطلسي لأنّ جميع الحيوانات فيها كانت مريضة. لا بدّ أنّ الألمان استخدموا الوسيلة نفسها لتسميم الأحصنة. لقد «لعبوها» ببراعة.

- تلك الخيول كنّا بحاجة إليها في وقت عصيب، لا أرى أنّ في الأمر لعبة بارعة!

- بربّك أيّها الملازم! لقد اهتدى الألمان إلى حلّ أنيق لمشكلة الدّعم الأرجنتيني. بدلاً من تفجير السّفينة ببلاهة، أدخلوا جرثومة جعلت الحمولة بلا طائل. أن يُظهرَ المرء لباقة ومهارة بدلاً من استخدام القوّة الغاشمة، أليسَ هذا مثيراً للإعجاب؟... علينا نحن أيضاً أن نرتفع إلى هذا المستوى من التحدّي!

كانت ليلي تراقب ريفيير خفيةً. كان وجهه أحمر وجبينه عرِقاً وكانت شرايين صدغيه منتفخة. لم يكن لديه حسّ الدّعابة الذي يملكه أودويرتس. على أيّ حال لا أحد كان يملك مثل هذا الحسّ من الدعابة.

وهي على نحوٍ خاصّ.

بعد إسبانيا ذهبا إلى تولون [102] حيث كان التيفوس متفشّياً. هناك لم يجد أودويرتس أيّ دليل على أنّ الألمان كانوا مسؤولين عن أصل الوباء. في جميع الأحوال لم يكن يؤمن بذلك كما أوضح لضبّاط المكتب الثاني. وبعدئذٍ ذهبا إلى مرسيليا حيث كان الطاعون منتشراً في حيّ قذر ومنعزل، استولى

عليه اللّصوص والجرذان. في المستشفى قام الفلمنكيّ بتشريح جثّة أحد المرضى. أخذ عيّنة من دُمّلٍ وأعدّها للفحص. تحت المجهر أظهر لليلي العصيّات ذات الأطراف المستديرة التي كان ألكسندر يرسان [103] أوّل من اكتشفها منذ ما يزيد قليلاً على عشرين عاماً. «اليرسانة الطّاعونيّة» كانت هنا. إنّها الموت الأسود بالذّات، وقد بدأ يوزّع قسمته من الجثث وحفّاري القبور، ويشيع فوضاه ونكباته في قسم من المدينة. ولكنّ القرون الوسطى أضحت نائية وقد جرى التصدّي له.

بحث الفلمنكيّ عن آثار عدوى متعمّدة خطّط لها العدوّ. فتّش وليلي الحيّ والنواحي الأكثر استبعاداً، والأماكن الأشدّ قذارة. أراد أن يعثر على المريض الأوّل، المريض رقم صفر، ذاك الذي أصيب بالعدوى والذي بدءاً منه يمكن تتبّع سلسلة الإصابات المُجَدْوَلَة. لكن ترتّب عليهما أخيراً مغادرة مرسيليا وكلاهما خالي الوفاض. ومع ذلك عاد أودويرتس إلى كاليه من جديد مقتنعاً أنّ الألمان قاموا هناك بهجومٍ بيولوجيّ. قال لليلي في قطار العودة إلى باريس: «الألمان متقدّمون علينا. سيتعيّن علينا القيام بهجومٍ مضادّ».

في هذه الأثناء ارتدّت سفينة أرجنتينيّـة ثانية على أعقابها. كانت وسط المحيط الأطلسي محمّلة بخيولٍ مرسلة إلى الجيش الفرنسي. على متن السّفينة أُصيب ثلاثة أرباع الحيوانات بالمرض. مرّة أخرى تعرّفَ الفلمنكيّ يد العدوّ. كانت الحرب الجرثوميّـة التي تخيّلها قيد التكشّف بحجمها الطبيعيّ، وكان علم البكتيريات يغيّر وجه الحرب. شعر بالابتهاج، رأى نفسه نبيّاً، في طليعة العِلم. رأى نفسه درعَ دول الحلفاء في مواجهة الأسلحة الهمجيّـة الجديدة. كانت ليلي تستمع إليه بصمتٍ معتادةً على نشواته التي سرعان ما تتلاشى. غالباً ما كان يحدّثها عن المرّة الأولى التي وجد فيها الدّليل على أنّ

الحرب كانت تتحوّل إلى حرب جرثوميّـة. أتاه الإلهام في لان إبّان اكتشافه قطع السكّر الملغومة. كانت ليلي تجيبُه آنذاك وصوتها يرتجف غضباً لأنّه لا يدرك أنّها تتألم وقد عرى التجهّم وجهها الجميل: «نعم أنت على حقّ. لكنّي من جهتي أفكّر في ابني الذي لا يزال هناك. متى سأراه؟»

في 6 يناير من العام 1918، في إحدى عيادات هال في ألمانيا، توفّيَ جورج كانتور، الرجل الذي أدخل اللّانهاية في الخطاب الرّيّاضي، من جرّاء سكتة قلبيّـة، رابضاً على مبولته في حجرة نومه.

في صباح اليوم التّالي، دخل ألكسندر دامعاً إلى الدار حيث كانت ليلي جالسة أمام طاولة عليها فنجان قهوة رديئة. أتى إلى كاليه ليزورها ويتحدّث إلى أودويرتس. أسكنته بكلّ سرور في المنزل الصّغير الذي كانت استأجرته. نظرَت إليه مندهشة. كانت هذه المرّة الأولى التي رأته فيها يبكي، هو عالِم الرياضيّات البارد والمتغطرس. قال بصوتٍ حزين: «مات كونتور». استلزمَ ليلي بعض الوقت لتسترجع الرمز الجميل الذي اخترعه عالم الريّاضيات: ℵ الذي كان يشير إلى عدد العناصر في المجاميع اللّامتناهيَة، وكان ألكسندر في اندفاعة من حماسته المتّقدة جعله وشماً على مقدّمة ذراعه.

همَسَت قائلة وهي تأخذ يد ألكسندر: «أنا آسفة. كان يمثّل لي بصفة خاصّة الحسابات المملّة إلى ما لا نهاية».

نظرَ إليها غاضباً: «ليس الأمر مضحكاً. رحل للتّو أحد عباقرة البشريّـة وأنت تمزحين!... كنتُ سأقول لكِ شيئاً لكنّكِ لا تستحقّين ذلك يا ليلي!»

- المعذرَة يا أليكس، ماذا كنتَ تريد أن تقول لي؟

تمخّط ألكسندر: «لا أهميّـة لذلك! في الواقع كان كانتور محجوراً لإصابته بانهيار عصبيّ تملّكَه لسنوات...». وطفق يتحدّث عن العالِم الذي أنهكه عمله العظيم، وأصبح في النهاية هيكلاً عظميّاً، تقضم دماغَه الأفكار العظيمة التي لم يعد قادراً على احتوائها. «كنت أودّ فعلاً أن ألتقيَ به!... كان مقتنعاً أنّ الله هو الذي ساقه إلى حساب المجاميع اللّامتناهية. كان يهذي في آخر الأمر ولكن...! تعيّن عليه، بمعنى ما، أن يتّخذ نظرة إلهٍ ليحدّد حجم اللّانهائي الذي يمكن الإنسان بلوغه ويحسبه... ضحّى بذاته ليحقّق ذلك الهدف».

أومأت ليلي برأسها دون أن تفهم قوله. كان ألكسندر يبكي عالِم الريّاضيّات كمَن يبكي جنديّاً تقدّم إلى ميدانٍ لا أمل له بالعودة منه. «ذهب إلى حقول اللّانهاية...» خلص أودويرتس إلى القول حين أعلن له ألكسندر وفاة بطله.

ولاحقاً علّق بكآبةٍ ليست من صفاته قائلاً: «اللّانهاية... هل سنعرف يوماً هل هي علامة عجزنا أم علامة ذكائنا؟».

في فبراير 1918، كان الألمان قد أبرموا للتوّ هدنَة مع روسيا ونقلوا فرقهم من جبهَة الشّرق إلى جبهة الغرب للهجوم على أوروبا قبل وصول الأميركيّين إليها. لا أحد أدرك أنّ شيئاً ما كان قد اختلّ في العالم، وأنّه، بمنأى عن مذبحة الحرب التي لا ترحم، كان هناك قوّة تبصر النور، قوّة خبيثة ماكرَة، وبسببٍ من ذلك انبرت أكثر خطورة. في البداية اتّخذت شكل إنفلونزا شديدة العدوى ولكن غير مؤذيَة.

أعلم ألكسندر أودويرتس أنّ وباء إنفلونزا انتشر في كنساس في الولايات المتّحدَة ثمّ تفشّى وباء آخر، من الطّبيعَة نفسها ظاهريّاً في كانتون في الصّين. حين أُبلِغَ الفلمنكيّ بالتّقرير الأميركيّ، أبدى اهتمامه الفوريّ. في 4 مارس، في مخيّم فونستون العسكريّ في كنساس، نُقل الطبّاخ ألبرت ميتشيل إلى المستشفى بعد إصابته بالإنفلونزا. بعد ذلك بساعات، أُصيب أكثر من مائة جنديّ بالمرض. وفي غضون ثلاثة أسابيع أضحى المعسكر أشبه بمستوصفٍ ضخمٍ حيث كان ألف جنديّ طريحي الفراش يسعون لاستعادة تنفّس ازداد تعسّراً على نحوٍ غير مسبوق. وصف الجميع بالتوافق أعراض «حمّى الضربة القاضية» بأنّ مَن يعانيها يشعر بأنّه كمن تعرّض للضرب بمخباطٍ في جميع أنحاء جسده. ثمّ ما لبث أن انتشر المرض في نيويورك. كان الجميع يرتدون كِمامات من الشّاش الأبيض على الفم والأنف راجين النّجاة من الآفة متحصّنين على هذا النحو. وبالنظر إلى اتّساع الوباء، لم تكن هذه الوقاية فعّالة حقّاً.

وسرعان ما انتشر الوباء ولم يعد حكراً على مدينة معيّنة. تفشّى في معظم المدن الكبيرة من بوسطن إلى سان فرنسيسكو، ومن فيلادلفيا إلى لوس أنجلوس. أعقبت ذلك حالة من الفوضى العامّة وفي أسوأ توقيت ممكن. فيما كان الإنجليز والفرنسيّون ينتظرون يائسين التعزيزات الأميركيّـة للتصدّي للهجوم الألمانيّ الكبير، كان الأطباء والممرّضات ينتقلون من مريضٍ لآخر، والعمال يهجرون الورشات، والمدارس والكنائس وصالات السّينما والمسرح تفرغ من مرتاديها. وحدها المستشفيات فاضت بالمرضى الوافدين من كلّ مكان، في السيّارات والعربات وحتّى في المناقل يدفعهم صديق. وجب فتح مئات مراكز الطوارئ. اختفى رجال الإطفاء وجامعو القمامة والمعلّمون لأنّ الإنفلونزا سمّرتهم في فراشهم، وحتّى رجال الشّرطة قلّ عديدهم لدرجة أنّه كان من الممكن أن يستغلّ الأشرار غيابهم لو لم تنتقل العدوى لهم هم أيضاً. في نهاية شهر أبريل أصيب أربعة وعشرون معسكراً للجيش الأميركي بالإنفلونزا من أصل ستة وثلاثين. كان الجميع يخشون الإصابة بالمرض. في بوسطن استطاعت فتاة في الثامنة من عمرها الإفادة من الوضع. عندما سألتها صديقاتها إن كانت تخاف لدى عبورها الشارع الكبير المظلم والمقفر في المساء وهي عائدة إلى المنزل، أجابت: «في الحقيقة لا، إذا اقترب أحدهم للتحدّث إليّ، أسعل سعالاً متواصلاً فيغادر على الفور».

أغوت أودويرتس فكرة الذهاب إلى الولايات المتّحدة لتقصّي الأحداث، لكنّ مدّة الرّحلة جعلته يعدل عن الفكرة. على أيّ حال، كانت الجرثومة في طريقها إلى فرنسا بمعيّـة القوّات الأميركيّـة.

وشك أودويرتس، لفرط سرعته، أن يُسقط الآنية عن يمينه، وهو يمسك بالذبابة التي هبطت للتوّ على الطاولة التي كانت ليلي جالسة إليها. فتحَ يده بحذرٍ ثمّ أمسك قوائم الحشرة التي بدأت تئزّ يائسة. كانت عيناه تلتمعان وهو يقرّب الحشرة من وجهها لتتفحّصها قائلاً: «انظري إليها. هذه الذّبابة البسيطة الآتية من ساحة المعركة. عند الفجر ارتوت من النّدى اللّامع على معاطف الجنود، جالت على وجوه الموتى الراقدين في الوحل متنشّقةً وجوههم التي التهمتها الجراذين وعيونهم التي أخرجتها القوارض بمخالبها الصّغيرة، ومرتشفةً العصارة المتدفّقة من اللّحم النازف، حطّت على الغربان التي تقفز من جثّةٍ لأخرى، تغلغلت في أحشاء الخيول التي بقرت قذيفة بطونها، انزلقت على أوتار الأذرع التي مزّقتها مناقير الطيور، أُتخِمَتْ من الجثث المتحلّلة المتروكة للدّود... لا بدّ أنّها أزعجت الناجين الكئيبين المغتمّين من رائحة الموت وذكرى أصدقائهم الذين سقطوا بالأمس. ربّما طردوها بحركة من أيديهم وتركوها تهرب بَشِمَة من عصائر التحلّل. وها هي تأتي لترفرف من حولنا، متسائلة عمّا إذا كان بإمكانها أن تتغذّى من أجسادنا كما فعلت ببقايا الجنود».

كانت ليلي تعرف أنّ أحبّ أمرٍ إلى قلبه هو أن يثير سخطها بأقواله ويرى أمارة اشمئزازها. كانت حريصة على عدم منحه تلك المتعة وقالت بازدراء: «كما تشاء...».

- أيّتها الحشرة البذيئة! قال وهو يُطلق سراح الحشرة التي حلّقت بشكل دائريّ مذهولة ثمّ طارت باتّجاه سماوات أكثر رحابة. أنت لا تدركين

المعجزات التي تحقّقها هذه الحشرة... «للذباب جبروته: ينتصر في المعارك، وينهب أرواحنا، ويلتهم أجسادنا...» [104].

كانا قريبين جدّاً من الجبهة، بجوار آراس بعد رحلةٍ إلى بوردو حيث استطاعا أن يتحرّيا معسكراً أميركيّاً مأهولاً حديثاً بالقوّات التي نزلت للحين من السفينة. شاهدا الجنود ينزلون، بعضهم أوهن من طفلٍ، كانوا شاحبين ومترنّحين، ويحملون حقائبهم بصعوبة فيما يسندهم رفاقهم حتّى نقطة المراقبة.

أكّد لهما الضابط الذي التقياه أنّ الرحلة كانت شاقّة. كان العديد من هؤلاء الجنود في وضعٍ لا يسمح لهم بالالتحاق بالجبهة حيث كان يُنتظَر قدومهم بفارغ الصّبر. كان الأكثر عافية بينهم يتّجهون صوب الشمال على الرغم من أنّ العديد منهم كانوا مصابين بجرثومة الإنفلونزا وسينقلون الداء حتماً إلى قوّات الحلفاء.

قال أودويرتس: «علينا الاهتمام بهذه الجرثومة».

شعرت ليلي أنّه كان يفكّر في مشروعٍ جديدٍ واسع النطاق.

- هل ما زلت تعتقد أنّها مؤامرة ألمانيّـة؟

- ومخطّط لها بشكل ممتاز! هذه الجرثومة أصابت الأميركيّين في المكان الملائم: في المعسكرات الحربيّـة وفي نيويورك، أهمّ ميناء لتزويد أوروبا بالجيوش. الألمان يُضعفون حلفاءنا على أرضهم وحين تصل قوّاتهم إلى فرنسا فإنّها تُضعف بدورها جنودَنا.. مصادفة لا تصدّق.

- يجب إثبات ذلك.

- بالطبع، أعرف. على أيّ حال لدينا شيء أفضل نفعله: عزل هذه الجرثومة وزرعها ومعاملتهم بالمثل. لا بل وأسوأ.

- ليس هناك ما هو أسوأ.

- ابذلي جهداً من فضلك. هذه الجرثومة تعذّب الأجسام الحيّـة لمدّة تتراوح بين العشرة والخمسة عشر يوماً ثمّ تتعافى وتعود من جديد جاهزة للمعركة. تخيّلي أن نعمل على جعلها «مميتة»... أفكّر في هذه الجرثومة التي رأيتها في إيتابل. لم تكن بالتأكيد مختلفة عن هذه التي هنا... وماذا لو تمكّنا من جعلها متحوِّرة؟

تساءلت ليلي: «هل يؤمن حقّاً بما يقول؟ ما أغربه! يتحدّث عن الذّباب كما يتحدّث الآخرون عن الأرواح. يرى في الجنود القتلى ميداناً تتنافس فيه الحيوانات والكائنات الحيّـة المتناهية الصغر الموجودة في التراب. تلك الجراثيم، حسبما شرح لي البارحة متظارفاً، تتكاثر بسرعة أكبر إذا وصل الحيوان إلى الجثة قبلها. عندئذٍ تستطيع أن تتغذّى من البقايا الممضوغة والمهضومة التي تتغوّطها الحيوانات بدلاً من أن تنكبّ بشراسة على اللّحم الشديد الصّلابة... يا له من عالِمٍ مضحك! يرى معركة بين البهائم والجراثيم حيث الآخرون يتحدّثون عن بطل سقط في ساحة الشرف. لفرط رؤيته الوجود بالمجهر نسي الفرق بين الناس والجراثيم... يسقمني التفكير بأنّ رؤيَة ابني مجدّداً منوطة به!».

طفق المرض ينتشر في كلّ مكان من أوروبا. في دونكيرك [105]، أصيب 90% من جنود الفوج الأميركي لسلاح المشاة والبحريّـة. خلال الهجمات الألمانيّـة، في سواسون [106] ورانس [107]، أُجلِيَ في كلّ يوم ألفا جنديّ فرنسيّ مصابين بالإنفلونزا. لم يكن يُعلن عن الإصابات. ظلّت المعلومات المتعلّقة بالحالة الصحيّـة للجيوش سريّـة. كانت التقارير العسكريّـة تشير إلى «المرض الحادي عشر» لتجنّب إبلاغ العدوّ. كان أودويرتس يسخر من زملائه الأطباء الملحقين بالجيوش. «المرض الحادي عشر! شيء رائع! حقّاً!... أتساءل ماذا سيكون المرض الثالث عشر!». إذا صدف وتحدّثت الصّحف عن الوباء، فهذا في إشارة منها إلى أنّه كان يحيد بأعجوبة عن المعسكر الفرنسي فيما كان يعيث خراباً بالألمان. كانت الإنفلونزا حليفتنا حسبما كان يؤكّد الصحفيّون. قال أودويرتس ساخراً: «لو كان هناك صحف في القرون الوسطى لزعمت أنّ الطّاعون الأسود يفتك فقط بالمسيحيّين الضالّين!».

استلزم الأمر بلداً محايداً وصحافة حرّة نسبياً لكي يتّخذ المرض اسماً له. أعلنت الصّحف الإسبانيّـة مرض الملك ألفونسو الثالث عشر، وإصابة سبعين في المائة من سكان مدريد بالإنفلونزا، وانتشارها لاحقاً في جميع المدن الكبرى. لذا أُطلِقَ عليها اسم الإنفلونزا الإسبانيّـة، أو «السيّدة الإسبانيّـة» على حدّ قول ضابط إنجليزي لأودويرتس. «الويل لمن يرقص معها!» قال لليلي بابتسامة متشنّجة تشي بعجزه.

في غضون ذلك، كانت الاستراتيجيّـة الألمانيّـة القائمة على قذف البريطانيّين في البحر قبل إلحاق الهزيمَة بالفرنسيّين على وشك النجاح. السؤال الذي لم يفكّر فيه أحد حقّاً حتّى ذلك الحين أصبح ملحّاً إلحاحاً مخيفاً: هل ستخسرُ فرنسا الحرب؟ لم تكن الأخبار الواردة من الجبهة مشجّعة. وحين كان الجنرالات الهرمون ذوو الشّوارب والكروش يقرؤون الأخبار العاجلة عن الإنفلونزا التي فتكت بالمعسكرات الحربيّـة الأميركيّـة، والداء الذي أصاب ثلاثة أرباع سكّان إسبانيا، وأعلّ آلاف الجنود الفرنسيّين والإنجليز، أخذوا يفكّرون أنّ ضربات العدوّ كانت تتحوّل إلى ميدانٍ مجهول فاستُدعيَ أودويرتس إلى باريس.

وإذ شعرَ الفلمنكي بالرّضى لأنّ صوته أصبحَ مسموعاً في مركز القيادة العسكريّـة، قدّم تقريراً متوتّراً. ربّما وجد الألمان سلاحاً كان يمنحهم الأولويّـة. وهذا السّلاح لم يكن مدويّاً كالمدفع ولا سريعاً كالرشاش ولا خطراً كالغاز، لا يا سادة! هذا السّلاح غير مرئي، وغير مسموع، وغير ملموس، وأرقّ من الغبار، ولكن إذا سيطرْتَ عليه فهو قادرٌ على الفتك بالرجال أكثر ممّا تفعله أيّ قنبلة. إنّ عطسةً تُطلِق، في الإجمال، أربعين ألف قطرة صغيرة وواحدة منها تكفي لإصابة شخصٍ قريب. لكُم أن تقدّروا عدد المرّات التي يعطس فيها مريض الإنفلونزا في يوم واحد... وفي نهاية خطبة رديئة منمّقة بملاحظات عن الجراثيم التي تسبّبت في تفشّي التهاب البواسير لدى نابوليون في واترلو ودفعته إلى اتّخاذ قرارات تكتيكيّـة سيّئة، ختم بوضوح: «الأمر بسيط يا سادة.. الرصاصة تدخل جسد الرّجل فترديه قتيلاً، ولكن بمفرده. أمّا الجرثومة فتخترق جسم الجنديّ، فيُصاب بالمرض وربّما يفتك به، ولكن هناك احتمال أن ينقل العدوى إلى عشرة أشخاص أو مائة». سألوه في مركز القيادة عمّا يرمي إليه. بدا أنّه يتمهّل للتفكير، فيما كان يتوخّى المطالب نفسها لأشهرٍ خلتْ، أي

سُلَفاً ومختبراً يستطيع أن يقوم فيه بتجاربه بكلّ حريّـة، وبعض المعاونين المتفانين. ليسَ الوقت للتسويف، وآزره في ذلك أحد الجنرالات الحاضرين مذكِّراً بشعار باستور العظيم: «العلماء من دون مختبرات جنود بلا سلاح». فأعطيَ ما كان يتمنّى.

بِرَكُ كوميل [108]، 1918

أقام أودويرتس وفريقه في أحد مختبرات وادي نهر التَّيف وسط غابة شانتيي بالقرب من بِرَك كوميل. أُعطيت لهم مزرعة قديمة أعيد تجديدها وكانت مخصّصة في البداية للجيش. عُيّن حارس للمكان، رجل من مشوّهي الحرب بساقٍ واحدة اسمه أنسيلم، وكان يهتمّ بإدارة المؤونة والإشراف على المرأتين المسؤولتين عن الطبخ والتنظيف. إلى جانب ليلي، كان بإمكان الفلمنكيّ الاعتماد على أربعة معاونين اختيروا من بين الأطبّاء أو الطلاب المتفوّقين في علومهم. كانت مهمّتهم، التي ظلّت سريّـة، تقوم على إيجاد لقاح ضدّ كلّ وباء يحتمل أن ينشره العدوّ، وكانت الإنفلونزا مستهدَفة. ولكن، وقبل كلّ شيء، كان لدى أودويرتس مطلق الحريّـة في تطوير أسلحة بيولوجيّـة جديدة من شأنها أن تغيّر مجرى الحرب.

كان موقع المختبر مثاليّاً للاختبارات السريّـة، ولكن سرعان ما تبيّن أنّه غير عمليّ. كان يجب الذّهاب إلى مستشفيات الريف، قرب الجبهة، للعثور على جراثيم الإنفلونزا واستخراجها من حلوق ضحايا المرض القلائل أو دمهم أو رئاتهم، ثمّ العودة بها إلى وادي التَّيف. كانت صعوبة المواصلات والتنقّل تبطئ الأبحاث. حاولوا أن ينقلوا العدوى إلى حيوانات المختبر المعهودة: الأرانب والكلاب والفئران الأخرى. ولكن أيّاً منها لم يكن ملائماً. ولم يكن بالإمكان عزل العامل المسبّب للمرض.

أمّا ليلي فقد أحبّت على الفور هذا المكان المنعزل. درجت على عادة الذّهاب للتنزّه فجراً حين كانت سلسلة البِرَك متّشحة بضبابٍ خفيف، والنسيم

يضفي الحياة على الغابات المبلّلة بالندى حيث تتجاوب تغاريد العصافير المتواصلة. مشت بمحاذاة الضفّة حتّى قصر الملكة بلانش [109]، مسكن صغير مهجور بُني على الطراز القوطيّ الجديد وله أبراج صغيرة مزدانة بنوافذ مدبّبة. كانت المناطق المتاخمة تغور في الغابة مقفرةً ما عدا قصراً كبيراً مهجوراً، وعلى مسافة ربع ساعة سيراً على الأقدام، وسط مرج شاسع، مزرعة منزوية كانت تذكّرها بمزرعة الدوفليير. في أوقات فراغها، كانت تذهب لتتحدّث إلى صاحبة المزرعة وزوجها، وتساعدهما في الاعتناء بالحيوانات.

حتّى الرّبيع، ظلّت الإنفلونزا المرض الموسميّ المعدي الذي يسمّر المرء في الفراش لبضعة أيّام ثمّ يتعافى منه بسهولة. كانت تربك الجيوش، وتضعف الكثير من المدنيّين، ولا شيء أكثر. ولكنّ وصول سفينة من كندا إلى بولونيا جعل أودويرتس مستنفراً. على متن السّفينة، كان هناك ستمائة عامل صينيّ، ومعظمهم مريض لدرجة أنّهم أرسلوا فوراً إلى مستشفى نواييل في السّوم [110]. وسرعان ما ذهب الفلمنكيّ إلى هناك برفقة ليلي...

إنّ معظم الحمّالين الصّينيّين، الـ «كولي» كما يدعوهم الكنديّون، كانوا مصابين بنوع خطير جدّاً من الإنفلونزا. كان المترجم، وهو رجل طويل القامة، ضخم البنية، أهزلَه شظف العيش، لا يبدو أفضل حالاً بكثير من مواطنيه طرحى الفراش. حدّثهم عن الرحلة بلغة إنجليزيّـة رديئة يقاطعه السّعال والتنهّدات المتعبة. عندما أبحروا من شانغهاي إلى فانكوفر، كانوا أكثر من ألفٍ ممّن فرّوا من المجاعة والبؤس في إقليم شانسي، معلّلين الأمل بأن تكون أوروبا، حتّى في أوان الحرب، أرأف بحالهم. نقلهم قطار من فانكوفر حتّى هاليفاكس من حيث أبحروا. ظهرت بعض الحالات المرَضيّـة في كندا. ولكنّ هذا لا يقارن بما حدث على متن الباخرة.

كانت الباخرة تدعى «لو ميراكل». بدت بهيكلها الصدىء وكأنّها تستعدّ لرحلتها الأخيرة قبل أن تغرق. ومع ذلك أراد الجميع ركوبها هرباً من الشتاء الكنديّ. كانت الحكمة تقتضي إبقاء جميع المرضى على البرّ. ولكن وحدهم الرّجال الذين لم يعد باستطاعتهم السير أو الذين انهاروا محمومين على الرّصيف المؤدّي إلى السّفينة تلقّفهم الصليب الأحمر. في حين استطاع

الآخرون، الذين أصابتهم رجفة الحمّى وساروا مجرجرين خطاهم بمشقّة، بلوغ جسر السفينة وهناك ارتموا متهالكين متوهّمين النجاة.

بالإضافة إلى تسعمائة صينيّ كان هناك ثلاثمائة راكب على متن السفينة معظمهم من الجنود الأميركيّين والكنديّين. وحتّى قبل الإقلاع، كان مستوصف السّفينة يرفض استقبال المرضى. وسرعان ما ضاق الطبيبان والممرّضات الخمس ذرعاً بالمرضى. بعد مرور ثماني ساعات أُعلنت على متن السّفينة أوّل حالة وفاة من جرّاء الإنفلونزا الرئويّـة. حُجر المرضى بعزل قسم في ميسرة السفينة، القسم «ج». ونُقِل الركّاب إلى قسمٍ أدنى، غير مريح في العادة بسبب التهوية غير الكافية. وحين امتلأ القسم «ج» بدأوا يضعون المرضى في القسم المجاور فيما أقصي الركّاب إلى مناطق أقلّ مراعاة للبيئة الصحيّـة.

كان المترجمون (كانوا خمسة ولم يبقَ سواهم) يستنفدون قواهم لتأمين التواصل بين المرضى والأطبّاء. ما جعلهم في آخر المطاف يحفظون عن ظهر قلب الأعراض التي يصفها المرضى: في البداية، ألم في الحلق، ثمّ أوجاع شديدة خلف العينين وفي الأذنين وأسفل الظّهر، وارتفاع الحرارة لتصل إلى درجات قصوى وصعوبة التنفّس. إنّها الإنفلونزا حتماً حسب تشخيص الطبيب. ولأنّ عدد المصابين تزايد باستمرار، وانتقلت العدوى إلى ممرّضتين، بات ملحّاً والحالة هذه إيجاد متطوّعين للاعتناء بالمرضى. لكن الأمر بدا عسيراً لأنّ المرض كان معدِياً بشكلٍ مخيف وتسبّب بوفاة العديد من المرضى في نهاية الأسبوع الأوّل بمن فيهم مترجمان.

وحين أصبح البحر هائجاً، وانضاف الغثيان إلى المرض، اعتلّت الأغلبية الغالبة على متن السّفينة. كان دوار البحر لمن أصيب بالإنفلونزا يضاعف

عواقب الحمّى متسبّباً في عذابات مبرّحة. ما عاد المترجم يميّز بين النهار واللّيل. كان يمضي وقته في القسم «ج» حيث كان المصابون يفدون باستمرار ثمّ يُصرفون على الفور لأنّ المكان ضاق بالمرضى. وهؤلاء الذين تعذّر استقبالهم كانوا يذهبون للاختباء في أيّ مكان، على الجسر أو في الممرّات الجانبية حيث كانوا يرقدون على الأرض لعجزهم عن الحراك. كنت تجدهم في كلّ مكان على السّفينة، متكوّمين في الأماكن الأكثر غرابة، هاذين لا يعرفون مكان وجودهم.

بعد عشرة أيّام من الإبحار، عندما أصيب الطّبيبان بدورهما، لم يعد بإمكان أحد تنظيم الحياة على متن السّفينة. رفض القبطان مغادرة مركز القيادة المنعزل عن باقي السّفينة وكلّف الممرّضات الثلاث اللّواتي بقين بصحّة جيّدة بإدارة العمليات الطبيّـة. وحدهم الركّاب الذين يملكون مقصورة خاصة بهم جُنّبوا المرض بعدما التزموا بإيصاد أبوابهم جيّداً والامتناع عن الخروج. في القسم «ج»، لم يعد بمقدور المرضى الأكثر تضرّراً التعرّف على أنفسهم. لا أحد كان يعرف من هو. سرعان ما وجدت الممرّضات أنفسهنّ مرتبكات في مواجهة عشرات الموتى المجهولي الأسماء. ذلك أنّ أولئك التّعساء مزّقوا الأساور التي وُضعت على معاصمهم لأنّ شائعات سرَت تقول إنّ هذه الطّلاسم اللّعينة تنشر الإنفلونزا.

كان العمّال الصينيّون يفضّلون النوم على سطح السّفينة متدثّرين بغطاء معرّضين أنفسهم للرّياح المتجلّدة، ولضربات الأمواج بدل أن يبقوا عالقين في هواء عنابر السّفينة المسموم. ومن كان أضعف من أن يتحمّل هذا الوضع كان يُصاب بالالتهاب الرئويّ ولا عزاء له إلّا في كونه سيتوفّى بمرضٍ آخر غير الإنفلونزا.

لم يكن المترجم يملك الكثير من المفردات، ولكنّ وصفه للقسم «ج» أدخل الرعب إلى قلب ليلي. كانوا يمشون في بِرَك الدم المتشكّلة من النّزيف الأنفيّ، وينزلقون على غشاء من القيء واللّعاب. كانت الهمهمات وصرخات الرّعب تختلط بنداءات المرضى الذين يطلبون الدواء من ممرّضات ما عاد بأيديهنّ حيلة. ومن ثمّ كانت هناك النتانة الآتية من تكوّم الجثث التي كان الكثير منها ملقى على الأرض. عندما أمرَ القبطان البحّارة بتنظيف هذا الجحيم رفضوا النزول إلى بؤرة العدوى. كانوا على وشك العصيان فعدل عن موقفه. ذلك أنّ الجنود أنفسهم ما كانوا ليُطيعوا ضباطهم الذين تعاملوا بحكمة مع الموقف وامتنعوا عن سؤالهم أيّ شيء كان. بعد وفاة خمسين مصاباً، بات متعذّراً تحنيط الجثث بالسرعة الكافية، وانتشرت رائحة التحلّل في الباخرة كلّها. لم يعد من مكانٍ لتنشّق هواء نظيف سوى سطح السّفينة المعرّض للرّيح والأمواج، وبشرطِ تحمّل البرد القطبيّ.

بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار، وبدلاً من الرسوّ في ساوثهامبتون، خرجت باخرة «لوميراكل» عن مسارها وما إن رست في بولونيا حتّى سارع الرّكاب الأصحّاء إلى الخروج من هذا النعش العائم. وحدهن الممرّضات انفصلن باكيات متثاقلات عن المرضى الذين أُجْلوا إلى نوايبل. وفي المجمل أحصي أكثر من ثلاثمائة وفاة في صفوف الصينيّين خلال الرحلة، وبقي الكثيرون منهم مجهولين، مدفونين تحت صليب خشبيّ هزيل، في مقبرة صغيرة في إقليم السّوم.

تبادل أدويرتس وليلي نظرة تواطؤ. لم تعد تلك الإنفلونزا الخفيفة غير الخافية على أحد بل كانت تتّخذ شكلاً يفوقها خطورة بكثير. في المستشفى، حين رأت ليلي وجوه المحتضرين المزرقّة تذكّرت المرض الذي عاينته في

مزرعة الدوفليير. وأودويرتس الذي رأى الحالة نفسها في إيتابل قبل عامين هتف قائلاً: «هوذا المرض 13!» محاولاً ألّا يُظهر حماسه أكثر من اللّازم. وعلى عجل حضّرا زراعة الجراثيم بدءاً باللّعاب وعيّنات مأخوذة من رئات الضحايا وتفحّصا دماءهم. وباءت محاولاتهما نقل العدوى إلى الحيوانات بالفشل. وسرعان ما اختفى المرض مع آخر صينيّ مصاب واحتجب كما ظهر بالطريقة الغامضة نفسها.

كان أودويرتس منزعجاً. الجرثومة التي اعتقد أنّه أمسك بها أفلتت مرّة جديدة من قبضته. قال موضّحاً موقفه لليلي: «هذه المرّة، لا أعتقد أنّ للألمان علاقة بالوباء. لو كانوا يتحكّمون بجرثومة مماثلة لجعلوا جميع الموانئ الأميركيّـة موبوءة». ثمّ أضاف طارفاً بعينه وقد انبعث من نظراته بريق شرّير: «ولكانوا انتصروا في الحرب!».

بِرَك كوميل، عام 1918

لدى العودة إلى وادي نهر التَّيف، طلب أودويرتس من ليلي جمع مساعديه: أندرو، وباستيان، ولوييك وفالنتان، بغية تقييم الوضع. بالنسبة إليه، كان واضحاً أنّ هنالك نوعين من الإنفلونزا: أحدهما خفيف يمكن علاجه خلال أسبوع أو أسبوعين وكان متفشّياً في كلّ مكان تقريباً في العالم، والثّاني فتّاك مثل الطاعون، أي «المرض13». وكان هو الذي أودى بركّاب السفينة، وكذلك بأصدقاء ليلي في بريمونتريه، والجنود البريطانيّين في إيتابل عام 1916. كان الفلمنكيّ يفترض أن الجرثومة هي نفسها في كلتا الحالتين ولكنّها تحوّرت على الأرجح لتصبح مميتة. ولسوء الحظّ كانت الجرثومتان تتحرّران من سلطتهم.

أمّا أندرو، الشديد الشقرة الأميركيّ الأمّ، فكان يرى إنّ الميكروب القاتل هو عصيّـة فايفر، «المستدمِية المنزليّـة»، والبرهان على ذلك هو أنّ العديد من الجراثيم المزروعة المدعّمة بالدم والمأخوذة من عيّنات المرضى على متن السّفينة «لوميراكل» كانت تحتوي على هذه الجرثومة. عبّر أودويرتس بحركة عن استيائه إزاء الفرضيّـة التي عاودت الظهور عدّة مرّات ولم يكن يؤمن بها. هذه العصيّـة التي كانت تحمل اسم مخترعها البروفسور الألماني الدكتور فايفر كانت بالتأكيد موجودة في الزرع ولكن ليس دائماً. ومن ثمّ عُثر عليها في إصابات أخرى مثل السلّ. كان للفلمنكيّ نظريّته في هذا المجال. «تخيّلوا ساحراً من صنف هوديني [111]. يجذب انتباهك إلى ذراعك أو

إلى رأسك ويغتنم الفرصة ليسلبك محفظة النقود من جيبك. وهذا ما تفعله عصيّـة فايفر. تنتشر في جميع أنحاء الجسم المريض جاذبةً انتباهنا، فلا نرى سواها لكنّها في الواقع تصرف انتباهنا عن الجرثومة الأصليّـة. لا يا أصدقائي، مؤكّدٌ أنّ المستدمية المنزليّـة ليست في أصل المرض».

وبناءً على طلب أودويرتس، لخّصت ليلي الفرضيّات التي توصّلوا إليها: إن العامل المسبّب للإنفلونزا تتعذّر رؤيته في المجهر لأنّه ربّما كان جرثومة من الصّغر بحيث تتملّص من كلّ أنواع المَصافي. كما أنّه لا يمكن زرعها في بيئة اصطناعيّـة ولا في الحيوانات. وهي تجعل المرض عُرضة لإصابات ثانويّـة مثل عصيّـة فايفر بينما تظلّ هي نفسها محصّنة ضدّها. وفي ظلّ شروطٍ معيّنة، لا تزال مجهولة، كانت تتحوّر لتصبح مميتة. أوقفت ليلي القراءة ورفعت رأسها. بدا أنّ لدى الجميع الفكرة نفسها: كان هذا الميكروب هو المجهول المطلق.

نهض الفلمنكيّ، وجال في الغرفة واضعاً يديه خلف ظهره مفكّراً في الأمر ثمّ قال بنبرة يزداد خفوتها كلّما استغرق في تهويماته: «لنفرض أنّنا في مواجهة فيروس... كائن أدقّ من أصغر البكتيريات لن تتاح لنا أيّ فرصة لرؤيته حتّى في أكثر مَجاهر العالم تطوّراً. لا أحد يستطيع القول كيف يبدو. ولكن عند هذا المستوى يبدو الفيروس على الأرجح من «طبيعة مختلفة»... تخيّلوا كائناً لم يسبق لأحدٍ أن رآه، عمره آلاف السنين ويتكاثر في كلّ مكان... تخيّلوا شكلاً لا مثيل له في صغره، سابقاً ربّما على ظهور الانسان ليكون الطور الأوّل لما هو حيّ ... محجوباً تماماً عن النظر ومع ذلك فهو هنا، قابع في أعماق الحياة، متحيّنٌ الوقت المناسب ليظهر... وقادرٌ على إصابة كلّ كائن».

نظرت ليلي خلسة إلى المعاونين الأربعة، هازئة في سرّها من وجوههم المتوتّرة. أوكلت إليهم مهمّة معالجة الجنود وتحديد ماهيّـة الأمراض التي تصيب الجيش. كانوا موظّفين مثاليّين في زمن الحرب وها هم يجدون أنفسهم رهن إشارة باحث مصابٍ بجنون العظمة يطرح فرضيّات عرضيّـة عن جراثيم خارجة عن السيطرة. فبأيّ مأزق زجّوا أنفسهم؟ أمّا هي فكانت، على العكس، متحمّسة لارتياد عالم يزداد خفاء.

لطالما كانت مفتونة بالحيوات المتناهية الصغر، كلّ هذه الحيوات التي لا تدرك، الأكثر عدداً من النجوم في السماء. معها لا وجود لأيّ جثث، فقط أشكال مؤقتة تعجّ فيها الكائنات المجهريّـة حيث الحياة لا تني تتحوّل ممعنة في تقلّصها. ولكن إلى أيّ حدّ؟ كانت البكتيريات تقيس بضعة مليمات من المليمترات، والفيروسات كانت ألف مرّة أكثر دقّة حسبما يفترض أودويرتس. أهنالك حدود يتوقّف عندها هذا التكاثر الخفيّ، حيث لا يمكن الذّهاب أبعد، لأنّه الطور الأقصى لما هو حيّ، المحطّة الأخيرة التي تسبق عالم الجمادات؟ ربّما كان الفيروس هو ذاك الكيان الموجود بالضبط عند مفترق الطرق بين الحياة والموت. وربّما كان كشف غموضه والحالة هذه بمثابة بلوغ الحدود القصوى: أقلّ خطوٍ، أقلّ اهتزاز يعني الدخول في مملكة الموت. إلّا أنّ الفيروس كان يتوقّف بالضبط عند العتبة. ارتجفت لدى التفكير بذلك.

ولكن، بطبيعة الحال، كان عليها الانتظار في الوقت الراهن. في بريمونتريه وإيتابل وعلى متن سفينة «لوميراكل» وبالتأكيد أيضاً في مكان آخر مجهول، كان الفيروس ينتشر دون قواعد. وكانت مستعدّة للكمون له قدر المستطاع مهما طالت المدّة.

ولكنّه كان أقرب بكثير ممّا كانت تتخيّل.

ذات صباح، كانت ليلي تتنزّه على ضفّة البحيرة، وهي تفكّر أنّ أرمان كان يحتاج إليها بالتأكيد، وأنّها يجب أن تبادر للقيام بشيء ما. كان عقلها يقارب، في كلّ لحظة، هذه الفكرة غير قادر على الذّهاب أبعد، مثل مفْصل مشدود إلى أقصاه ويوشك أن يتمزّق إن تمدّدت الحركة ملّيمتراً واحداً. قرب قصر السيّدة بلانش، وضع صيّاد صنّارته على العشب ثمّ جثا على ركبتيه ممسكاً سمكة شبّوط ضخمة ملقاة على الأرض. وبضربة عنيفة من سكّينه شقّ بطن السمكة ذات العينين المحتقنتين دماً، فانتشر البيض الأملس والمستدير بألوانه اللّؤلؤيّـة على الأرض. بهدوء، وبكلتا يديه أفرغ الرجل أحشاء الحيوان الذي كان ذيله يضرب الأرض بغضب. رمى عناقيد الكريات الصغيرة اللّزجة في البِركة حيث تفكّكت ببطء عائمةً على السطح. قال للمرأة الشابّة مبتسماً وهو يرفع بإصبعه المكسوّة بالدم حافّة «كاسكيته»: «كانت السمكة هذه ممتلئة بالبيض!».

هزّت ليلي رأسها دون جواب. كانت لمحت للتوّ جثّتي بطّتين مهاجرتين تطفوان بالقرب من الجزيرة الصّغيرة التي تتوسّط البِركة مزروعة بأشجار الزان الباسقة المائلة. كانت أجنحتهما شبه مبسوطة، وكان منقاراهما مفتوحين على تكشيرتهما الأخيرة. في الضوء الشاحب، بدت الجثّتان كامدتين تماماً، وكان ريشهما أشبه بأشلاء متحلّلة. وضع الصيّاد سمكة الشبّوط في كيسه مقتفياً نظرات ليلي. قال لها: «وصلتا إلى هنا منذ أسبوع. ربّما كانتا منهكتين...». انحنت على المياة القاتمة مراقبة البطّتين بضع لحظات ثمّ واصلت طريقها إلى المزرعة يحدوها شعور أليم بالشؤم.

حين وصلت بالقرب من الحظيرة، سمعت الأبقار تخور بعنـاء ومشقّة. في الفناء حيث تفرّقت الدجاجات، دارت ليلي حول حظيرة الخنازير متجهّمة الوجه. كانت معظم الخنازير مضطجعة على جوانبها تحت غطاء من الذباب

الأخضر. رأت خنزيرة ضخمة مطروحة أرضاً وبدت وكأنّها تبتسم بشدقها المفتوح وعينيها الصغيرتين الزجاجيّتين الماكرتين. انزلق كلب أسود تحت السياج وبدأ يهمهم حين اقتربت، ثمّ قبع وشدقه مليء بأشلاء دامية. أمسكت معزقة متروكة على التراب ولوّحت بها بقوّة لتبعده. تراجع إلى الخلف بضعة أمتار، شاهراً أنيابه، منتفخ الكتفين، مصمّماً بشكل واضح على انتظارها حتّى تبتعد لينكبّ على وليمته. في الهواء الساكن كان طنين الحشرات أشبه بأزيز منشار.

شعرت ليلي بقلق متزايد لدى رؤيتها الطيور تخرج من البيت الكبير المفتوح. كانت غربان تراوح مكانها على العتبة ولا تكاد تعيرها انتباهاً. سرت قشعريرة في أوصالها. أرادت أن تفرّقها بضربات قويّـة من المعزقة، فكسرَت جناح غراب كان يطير متثاقلاً وما لبث أن سقط على الحجر مطلقاً صرخة مرعبة ثمّ قفز مرتبكاً وهرب باتّجاه الأهراء.

بمجرّد دخولها، رأت ليلي نفسها عالقة في زوبعة من الأرياش والمناقير فحَمَت وجهها محرّكة المعزقة في كلّ الاتّجاهات، وتملّكها خوف لم تشعر به من قبل. كانت الغرفة مغلّفة برائحة تبعث على الغثيان والذباب يطنّ في كلّ مكان، وكان السّرير مغطّى بسحابة من الغربان وعناقيد الجرذان التي فرّقتها بصعوبة وهي تضرب الفراش بمقبض الخشب. وعبر سحابة من الأرياش والغبار لمحت جثّة المزارع ممدّداً في ثيابه ووجهه نصف مأكول.

استدارت لتتقيّأ. كانت الرائحة المُغثية لا تطاق. خرجت وهي تضرب الهواء بالمعزقة لتفرّق الأجنحة السوداء الهادرة التي تحلّق متلاصقة تحت السقف. فرّ اثنان من الجرذان وهما يصيئان. في الخارج، في الفجر المتوهّج، كان الكلب يصفّق بفكّيه مواصلاً إتمام وجبته. بالقرب من حزمة القشّ، وفيما

القطيع الذي سمعها بدأ بالخوار، رأت دجاجة صهباء تقفز لتنقر دودة، ثمّ انقلبت ببطء منطرحة على جانبها صريعة والدم يخرج من دبرها. على مسافة أمتار قليلة، وضعت دجاجة أخرى، بيضاء وسوداء، قائمة أمام الأخرى، ثمّ توقّفت وسقطت بدورها. وتبعتها ثالثة. رمَت ليلي المعزقة وهربت راكضة. لقد عادت الإنفلونزا القاتلة.

كان أودويرتس مبتهجاً، فالحظّ كان حليفه على غير المعتاد. من النظرة الأولى تعرّف عليها في المزرعة: «السيّدة الإسبانيّـة في ثوب الحِداد الأسود. صاحبتنا حاضنة المرض 13!». كانت الجرثومة التي يفتّش عنها موجودة هنا على مقربة منه. هذه المرّة لن يدعها تفلت من يده.

باستيان، أحد معاونيه، عثر على المزارعة. بعد وفاة زوجها، لجأت إلى أسرتها الساكنة على مقربة من هنا، في مونغريزان. كانت مريضة. أمر أودويرتس بنقلها إلى المختبر مع شقيقها وزوجته اللّذين أُصيبا هما أيضاً. وُضع ثلاثتهم في غرفة كبيرة. لإنقاذ المظاهر، حاول الفلمنكيّ تجريب علاج يعتمد على الكلورال والبرومور [112]. لكنّه كان يسعى في الواقع للاحتفاظ بالجرثومة في متناول اختباراته أكثر ممّا كان مهتمّاً بمعالجتهم. وحين ساءت حالتهم، لجأ إلى زيت الكافور والإستركنين [113] والضّمادات الباردة. ما من نتيجة. كانت الحمى تصل إلى درجات قصوى. وعند فجر اليوم العاشر، عثرت ليلي على المرأة ميتة ووجهها قد كسته الزرقة. كشف تشريح الجثّة عن بؤر الالتهاب الرئويّ القصبيّ منتشرة في جميع أنحاء الرئتين، ولكن لسوء حظّ أودويرتس، لم يعلموا أكثر من ذلك عن الجرثومة التي تسبّبت بالمرض. بدا أودويرتس قلقاً يتوقّع النهاية: سيلقى المريضان الآخران حتفيهما ويدفنان في تابوتَين من رصاص، ومرّة أخرى، سيُفلت الفيروس من قبضتهم. وكان هذا كابوساً يجثم على أبحاثه.

رأت ليلي أنّ عليها أن تخاطر بنفسها في تلك اللّحظة. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لإثبات أنّ الإنفلونزا كانـت فيروساً ولعلّها فرصـة لإيجاد لقاح. ذهبت للبحث عن الفلمنكيّ لتعلمه برغبتها في التطوّع لكنّه تردّد في القبول. سبق أن فكّر هو نفسه بالقيام بهذه التّجربة الخطرة ثمّ غيّر رأيه لكونه شخصاً لا يستغنى عنه في إجراء الأبحاث. نظرَ إليها مليّاً ليرى مدى حزمها في القرار الذي اتّخذته. وأخيراً عزم على الامتثال لأحد أقواله المفضّلة: «العلم لا ينتظر أبداً»، فوافق على قرارها بالتطوّع.

طلب من باستيان أن يأخذ عيّنة من دم المريضَين مقدارها بضع سنتمترات مكعّبة. بعد أن تحقّق من أنّ زراعة الدم كانت سلبيّـة، شرع في إزالة تخثّر الدم ثمّ في تمرير المزيج في مصفاة شمبرلند [114] وهي راشح من الخزف أسطوانيّ الشكل يسمح بحفظ الكائنات الحيّـة الدّقيقة. حين أصبحَ كلّ شيء جاهزاً قال لليلي إنّه لا يزال بإمكانها العدول عن المشروع. فمدّت له ذراعَها اليُسرى العارية.

قام بحقن جلدها بجرعة من الدم الملوّث. عندئذٍ تذكّرت قصّة المترجم الصينيّ الذي كان على متن السفينة. استرجعت وجه المزارع المزرقّ الممزّق نصفه، ووجه زوجته الذي شوّهه الألم. إذا كان فيروساً فقد أصبح داخلها. وبدءاً من اللّحظة، ومهما حدث فإنّها لن تخرج سالمة.

لمدّة يومين تجوّلت ليلي في المختبر، منطوية على ذاتها، بدأ كلامها يقلّ وأكلها يزيده قلّة. بدا الجميع في حالة انتظار. كان المساعدون يشعرون بالغيرة من الاهتمام الذي يوليه المعلّم لهذه المرأة التي لم تكن حتّى طبيبة وليس لديها منشورات. كان أندرو الأشقر لا يحبّ ليلي ويراها فتاة عصاميّـة

دون أفق. باستيان، وهو جندي قديم في الجيش الاستعماريّ في السنغال [115]، تودّد إليها لفترة وجيزة دون جدوى، ثمّ آثر الابتعاد، ومثله فعل لوبيك -وهو من منطقة بريتاني- الذي كان مهتمّاً فقط بمجهره. وحده شارل، وهو شابّ متين البنية من منطقة روشيل ويكنّ للفلمنكيّ احتراماً يُقارب القدسيّـة، بدا قلقاً. وحين علمت ليلي من شارل هذا نفسه أنّ إحدى المريضات اللّواتي أُخذت عينّة منهنّ توفّيت للتوّ، حزنت لموتها لكنّها لم تشعر بالخوف.

بحلول صباح اليوم الثالث، عجزت عن النّهوض. شعرت وكأنّ طبولاً تقرع داخل رأسها. ألمَّ وخز حادّ برقبتها المتصلّبة مثل حطبة. اجتمعَ الأطبّاء بجانب سريرها، لكنّها كادت لا تشعر بوجودهم. بدا لها أنّها تغوص في مياهٍ جليديّـة سوداء. لاحظ الجميع كم كانت جميلة في لحظات مرضها تلك. بسحنتها الشاحبة التي بدت كأنّها مضاءة من الدّاخل وعينيها اللّتين تلتمع فيهما الحمى والمشدودتين إلى صدغيها، بدا وجهها وكأنّه منحوت على يد أحد فنّاني نهاية القرن التاسع عشر الذين ينامون في مساكن فقيرة ويحلمون بالأنموذج الأمثل.

متكوّمة في قاع سريرها، كانت تشعر وكأنّ قصبتي ساقيها مطوّقتان بألواح كما لو كانت تتعرّض لبعض ضروب التّعذيب في القرون الوسطى. ما إن تحاول الاستدارة حتّى تنتفض خاصرتاها وكأنّها ضُربَت بمخباط. ومع ذلك، وفي لحظات انحسار أوجاع رأسها كانت تراقب بضميرٍ مهنيّ رفيع حالتها السريريّـة مدوّنة جميع الأعراض. لم يعد المساعدون الذين تناوبوا على سريرها متفاجئين برؤية حرارتها ترتفع. كانت تقرأ موتها في أعينهم متبيّنة أيضاً شعوراً أكثر تلقائيّـة هو الخوف. لم ينسَ أيّ منهم أنّه كان في حضرة مرضٍ شديد العدوى.

ذات صباح جاء أودويرتس لرؤيتها فيما كانت تغفو. لاحظ شحوب خدّيها وصدغيها وشفتيها المشدودتين الكاشفتين عن أسنانها في تكشيرة تدلّل على فداحة مرضها. وضع راحة يده على جبينها الحارق واستمع إلى تنفّسها المنتهي بشخير أجوف. تمتم: «السيّدة الإسبانية، سرعان ما استجابت لدعوتنا!». فتحت ليلي إحدى عينيها ممرّرة لسانها على شفتيها المتيبّستين. قالت: «لقد التقطت هذا الفيروس ولكن هو من يمسك بي ويجرّني وراءه الآن». بقي الفلمنكيّ مشدوهاً إزاء هذا الصوت الغريب الذي كان يكلّمه، صوت امرأة على وشك الموت. وفي لفتة حنان منه غير معتادة، رفع الملاءة والغطاء حتّى ذقن ليلي التي كانت ترتجف. داعبَ خدّها ثمّ خرج وهو يلوم نفسه: «هذا لم يعد اختباراً، إنّه حكم بالإعدام».

كانت ليلي ترتجف في سريرها على الرغم من تدثيرها ببطانيّتين ولحاف من الرّيش. كانت أضعف من أن ترغب أو تأمل في أيّ شيء مكابدةً الألمَ بصبرٍ بهيمةٍ اختلطت عليها البداية والنهاية. لم تتخيّل قطّ أنّ العالم يمكنه أن يتقلّص ليصير متجمّعاً مثل كرة من الإرهاق والذهول، وبأنّ نور الربيع الذي يغمر الغرفة قادر على أن يصبح تلك النار الشاحبة المغروسة في الجمجمة التي تحرق العينين والقلب. كان الأطبّاء الذين يتناوبون على الاعتناء بها يتذكّرون ما أوصاهم به أساتذتهم في الكليّـة: «لا تستسلموا أبداً، لا تقولوا أبداً أمام مريض أنّ أمره انتهى. فما فكرة الموت أيّها الشبّان إن لم تكن جحيم الطبيب؟». كانوا يجلسون بجانب ليلي هازّين رؤوسهم بمرارة. «وأيّ فكرة تتحفنا بها يا أستاذي العزيز إن كنت ترى الموت الآن أمام عينيك؟».

في العالم الغريب الذي انساقت إليه، لم يعد هناك نهارات ولا ليالٍ. عاودت التفكير في المرأة التي توفيَت للتوّ والتي كان مرضُها يجري عبرَ شرايينها هي بالذّات. مثلها، كانت حياتها محتلّة من قبل أكثر الكائنات خفاء في

هذا العالم: جرثومة صغيرة تجتذبها مثل كوكب ميت. ارتفعت حرارة الحمّى مرّة أخرى، نسيت كيف تتنفّس وفتحَت فماً كفم سمكة الشبّوط الملقاة على العشب.

أخذت تهذي، سابحَة في صوَر الماضي التي كانت تتدافع بالآلاف، وتغمرها دون أن تتمكّن من مقاومتها. كانت ترى وجهي أورور وماري ينحنيان فوقها لتقصّي السمات التي تربطها بوالدتها، الأرانب تعدو بجنون في الثلج، معركة خنفساء مع النّمل، الجهود الجبّارة لبرغوث يجرّ كريولة صغيرة، نملة تحتضر بعدما سحقَها العثّ المتشبّث بها، النظرة الزّجاجيّـة لثعلب تلتهمه الطفيليّات حيّاً... كانت تنزلق في هذه الرؤى مثل سبّاح يتابع مجرى دمه.

ذات ليلةٍ استيقظت على صراخ بومة. بدأ رأسها بالطّنين. شعرَت أنّها تخترق لججاً سحيقة في داخلها، أبعد من الأعضاء أو الدم. لم يعد المرض يعزلها عن العالَم فحسب بل يدخلها في بعد مختلفٍ لا شكل له ولا هيئة محدّدة. رأى شارل الذي كان يسهر عليها أنّها تتململ في سريرها. اعتقدَ أنّها كانت عطشى، فسند رقبتها ببطء وقرّب كوب ماء من فمها لكنّها أشاحت بوجهها مرتجفة. خرج مُسرِعاً ليخطر الفلمنكيّ. كانت من الضعف بحيث خال أنّها تحتضر. ومع ذلكَ كانت مفعمةً بهدوءٍ لم تعرف له مثيلاً من قبل.

أبقت عينيها مغمضتين. توالت صوَر عند أقاصي روحها لكنّها كانت تهرب منها بمجرّد أن توليها انتباهها بأسرع من سمكة ترويت يجرفها السّيل. في حلمها شبه اليقِظ ذاك، دفعت عنها البطانيّات واللّحاف بعيداً. حين أتى أودويرتس، توقّف عند عتبة الغرفة. كانت ليلي متقوقعة في وضع جنينيّ والأغطية ملقاة أرضاً ووجهها يقبّضه انفعال ظنّه الألم. أعاد تغطية الجسد الهزيل وتفحّصها بسرعة. كانت تتنفّس بصعوبة كبيرة، وما عادت تتحرّك.

توقّفت عن المقاومة، كانت قوّة عاتية راعبة تجرفها وتستحوذ عليها تماماً. وكانتا تتبادلان حياتهما باتّصال حميم يضاهي أطول قُبلة. وفي خضمّ الدوار الذي تسبّبه الحمّى تذكّرت كلمات ماري أوفرازي عن أعماق الحياة الواسعة. رأت حلماً دوّنته لاحقاً.

تضخّم بطني بشكلٍ فظيع. أشعر بالبرد، وبألمٍ شديد. الماء ينزل منّي وكأنّي سألد طفلاً وما من طفل. أودّ أن أتنفّس بعمق، كما علّمتني القابلة لتسريع الوضع. وفي الوقت نفسه أعلم أنّه لن تكون ولادة. يأتي الألم نوبات تزداد قرباً. أشعر بأحشائي تتمزّق. ثمّ فجأةً وكأنّني أتدحرج لأغرق في اللّيل، في ظلام دافئ وعطر، تجتازه أصوات مخنوقة. أفهم ما يحدث لي، أنا داخل جسد، داخل جسدي. على مقربة منّي، شيء ما يتحرّك، وجود ينمو، يتحرّر ببطء من الغلاف الذي احتُبس فيه.

الكيس يتمزّق، أتبيّن حركات غامضة في الظلمة، اندفاعة خرقاء نحو الحياة، والحريّـة. ولكن بالتأكيد ليس نحو الضوء! الوجود الغريب يقاوم ويتقلّص ساعياً لاحتواء الحركة التي تسعى إلى دفعه. الجسد، جسدي يبذل جهداً أخيراً ليتخلّص من الدّخيل. عند هذه اللّحظة بدأ المخلوق في الانتفاخ. أشعر أنّه سيخنقني، ويفجّر جلدي مثل غلاف شديد الضيق. الصدمة تصيب رئتيّ وحلقي وعينيّ. إنّها مثل سرب نحلٍ يتناثر في جميع الاتجاهات متسلّلاً إلى كلّ قطرة من دمي.

هذا الإطباق يشبه قبلة لا أستطيع تفاديها، امتصاص حميميّ مرعب. ومن ثمّ لا أستطيع التفكير في التملّص منه فقد انتشر في كلّ مكان، ممتصّاً حياتي ومتطفّلاً على هذه الحياة. لكأنّي أتحرّك فأشعر أنّ كائناً ما يلتصق بكلّ حركاتي. أرتجف فيرتجف معي، أتنفّس فيأخذ أنفاسي. وفي لحظةٍ ما ألاحظ أنّ أحشائي فرغَت، وأنّ شعوري بالألم انتهى وأنّ الأوان قد فات. وفي لحظة انبهار، أدرك أنّ الكائن يتكاثر فيّ، وأنّ قلبي أصبح قلبه وأنّ جسدي المكان الذي يتوالد فيه. فيُغمى علـيّ اشمئزازاً.

عندما استيقظت شعرت أنّنا اثنان، وأنّ شيئاً ما يطفو في دمي كلّه مثل عابر سريّ يحيا معي من حياتي».

«ليلي هل أنت بخير؟». وشيئاً فشيئاً أخذت تسمع همسات بجانب سريرها. كان شارل يراقبها قلِقاً. أرادت أن تُطمئنَه لكنّها كانت أضعف من أن تتكلّم. كانت مرهقة. أغمضت عينيها ونامت يومين بلا انقطاع. في نومها كانت تعود بإصرار صورة البطّتين النافقتين بمنقاريهما المفتوحين على تكشيرة النزاع... رأت من جديد المزارع ممدّداً على سريره تحت سرب من الغربان، والغريب في الأمر أنّ وجهه كان سليماً لكنّه اتّخذ وجه هنري، رجل التّموس، المتوفّى في الدوفليير. ثمّ طالعها خنزير بريّ جريح يركض في الغابة ناشراً الموت في كلّ مكان... بدا لها أنّ كلّ شيءٍ كان يتجمّد وأنّ العالم متكثّف حول ذكرى. «بالتأكيد»، قالت وهي تفتح فجأةً عينيها. ثمّ عادت للنوم من جديد ولمحتْ في رؤيا خاطفة نمساً يندفع نحو الضوء في نهاية النفق، وقد وجدت للتوّ مفتاح اللّغز الذي بحثا عنه بإصرار، هي وأودويرتس.

وأكثر من الأمل برؤية أرمان يوماً ما، إنّ ما كان يبقيها آنذاك حيّـة كان اليقين بأنّها توصّلت إلى حقيقة لا تزال غامضة، مثل شيءٍ تراه عن كثب ويجب ألّا تدعه يفلت منها مهما كلّف الأمر. كان جسدها يختلج بكليّته محارباً المرض بقوّة لا يستطيع أيّ دواء أن يُضاهيها. في اليوم السّابع، بدأت الحمّى بالانخفاض. السائل الذي جُرّعت إيّاه اختفى في حلقها كالماء في الرمل. وأخيراً استطاعت أن تستلقي مرتاحة دون أن تضطرّ للالتواء هرباً من المخباط الذي يضرب حقويها. أخذت تتنفّس وقد هدأ سعالها قليلاً، وتمرّغت في ملاءاتها مطلقة تنهيدات ارتياح. كانت على طريق الشّفاء.

حين استعادت عافيتها واستطاعت الوقوف على قدميها، شعرت بوخز في قلبها. في بعض الأحيان، كان نبضها يتسارع ويتملّكها الدوار. كان ذلك العناق الأخير للمرض يجعلها تلهث كامرأة عجوز. لم تعد تبالي فهي لم تخفق

في إصابة هدفها. ومع ذلك قرّرت ألّا تتحدّث عن الأمر مع أودويرتس على الفور. شغلتها هموم أخرى.

اضطر شارل لملازمة سريره. لم يجرؤ أحد على أن يقول علانيةً ما يفكّر فيه الجميع. كانت أبحاثهم تشكّل خطراً عليهم، فالجرثومة القاتلة محتبسة في المختبر وتجول فيه بحريّـة. «هيّا شدّوا حيلكم!» قال الفلمنكيّ لرفع معنويّات مساعديه. «ما بالكم! لسنا في مواجهة مع الطاعون الأسود بعد كلّ حساب!» واقفاً في إحدى الزاويا، التفت أندرو صوبه وقد بدا ناعم البال شبه حالم، ثمّ قال: «على الأقلّ الطاعون، يا سيّدي، نعرف كيفيّـة انتقاله ولدينا الوسائل لمكافحته، أمّا هذا...»

في الأيّام التي تلت، استمعت ليلي المتعبة إلى نقاشاتهم وجدالهم طوال الوقت دون أن تتدخّل. انتظرت مرور عشرة أيّام ثمّ واصلت التجربة. كان من الضّروريّ التحقّق ممّا إذا كان اللّقاح الذي حُقِنَت به منَحَها مناعة ضدّ المرض. بحضور أودويرتس، أمسكت بأنبوب اختبار يحتوي على مرشح للبلغم المأخوذ من مرضى الإنفلونزا ومن بينهم التعيس شارل. أخذت قطنة ملفوفة على عودٍ صغير من خشب، ثمّ غمستها في الوعاء ومسحَت بعناية حلقها وداخل أنفها. كان الفيروس يجول من جديد في جسدها.

بعد ثلاثة أيّام، وبعد وفاة مريضَين، لاحظ الفلمنكيّ أنّ ليلي لم تصب بأيّ أعراض وأنّها باتت محصّنة ضدّ الجرثومة. دوّنت استنتاجاتها باجتهاد تلميذة نجيبة. وكان التقرير مثيراً للإعجاب عن هذه التجربة التي توسّلت ثلاثة أشياء بسيطة وهي كأس ذو قاعدة ومصفاة ومحقنة، لكنّها استطاعت تطوير معارفهم. كان في حوزتهم فرضيّات تمّ التحقّق منها: كانت الإنفلونزا مرضاً فيروسيّاً. ولم تكن تنتقل عبر الدم بل بإدخال الجرثومة تحت الجلد أو في

الأنف. وانطلاقاً من هنا كان بالإمكان صنع لقاح. وبالطبع، لم يراعوا تماماً القوانين التي وضعها روبرت كوخ لإثبات أن الميكروب هو سبب مرض معيّن، ولم يكن لديهم الوقت للقيام بعملٍ أفضل.

ذات مساء، وبعدما أخلد جميع المعاونين إلى النّوم، وفيما كان أودويرتس يدخّن سيجاراً وحيداً في الصّالون، قامت ليلي بما ندمت عليه بقيّة حياتها. أعطته مفتاح حلّ اللّغز الذي لطالما بحث عنه: شرحت له مصدر الفيروس وكيف يمكن تخزينه.

جلسَت قربَه على كنبة الجلد الكبيرة المهترئة وقالت وهي تلتفت ناحيته: «حلمتُ بطيور كبيرة تحمل الموت بداخلها، وبخنزيرٍ جريحٍ ينشر الداء عبر الغابات، وبوجوهٍ زرقاء تبتسم رغماً عن الاحتضار. لم أعرف ماذا أفعل بكلّ هذه الرؤى... ألقيتُ باللّوم على الهذيان... ثمّ وجدْتُ هذا في قعر الكيس».

أعطته مفكّرة جلديّـة صغيرة من الجلد الأزرق المهلهل والورق المصفرّ قائلة: «إليك مذكّراتي عندما كنت أصغر سنّاً».

أظهرَت للفلمنكيّ صفحة تتعلّق بالفترة التي توفّي فيها هنري في دوفليير:

«لم أعد أريد البقاء هنا. تفشّت العدوى في المزرعةِ كلّها. لم أرَ لذلك من قبل مثيلاً. لقد توفّي ثلاثة أشخاص أقوياء وأصحّاء. العلامات السريريّـة هي الحمّى الشّديدة والسعال المستمرّ مع ازدياد الصّعوبة في التنفّس. ولكنّ الخنازير مريضة أيضاً، والبطّ نفق، ويبدو أنّ النّموس أصيبت أيضاً. لكأنّ مرضاً واحداً أصاب الناس والحيوانات.

يقول السيّد أودويرتس إنّ الجراثيم لا تنتقل من البشر إلى الحيوانات. ومع ذلك، يبدو الأمر هنا وكأنّ الجرثومة نفسها تنتشر بين جميع الكائنات الحيّـة. أودّ لو كان أودويرتس هنا ليشرح لي ما يجري، لكنّ مكانه لا يزال مجهولاً، على أيّ حال أشكّ في أن يكون رأى هذا النوع من الأوبئة.

قرّرتُ أن أعود مع أرمان إلى المنزل في بريمونتريه. أعرف أنّ الشرطة قد تأتي للبحث عنّي لكنّ الخطر هناك أقلّ من هواء هذه المزرعة المسموم بجرثومة مجهولة.

نسيتُ علامة: في النهاية، يصبح وجه المرضى الذين يحتضرون مكتسياً بزرقة داكنة، مخيفة. أعتقد أنّ هذا يُسمّى مرض السيانوز والاسم لا يفصح بشيء عن الرعب الذي يتملّكك عندما تنظر إلى هذه الوجوه التي لم تعد بشريّـة».

أوضحَت قائلة: «تذكّرتُ هنري، وهو صديق أصيب بالإنفلونزا وخنازيره في الوقت نفسه. بدا الأمر له غريباً وجديراً بالسخرية. لم يكن يعتقد أنّ الإنفلونزا يمكن أن تتنقل من نوع حيوانيّ إلى آخر ومنه إلى البشر».

ما كان الفلمنكيّ ليقبل بأن يدَع معاونة صغيرة تحاول خداعه: «ما تقولينه ليس علميّاً بما يكفي، يا آنستي! أوّلاً العدوى من الإنسان للحيوان أمر نادر...».

فجأةً توقّف عن الكلام، أمسكَ ذقنَه بين الإبهام والسبّابة، ونفث الدخان من سيجارته. رأى نفسه مرّة أخرى عند مدخل معسكر إيتابل عام 1916. كان هناك سرب يهتزّ في السّماء فوق رأسه مباشرة. سرب من طيور البطّ المهاجر باتّجاه الجنوب. ثمّ عادت إليه صورة جنديّ بريطانيّ ينتف ريش ديكٍ روميّ للعشاء، وهو في غاية الابتهاج. كان جنديّاً إنجليزيّاً قويّ البنية متورّد السّحنة جهوريّ الصّوت، واقفاً أمام حظيرة الخنازير. عاودته الذكرى في هذه اللّحظة. وماذا لو كان هنا مصدر الوباء الذي تفشّى في المخيّم؟ بدأ جفنه الأيمن يرتعش، وأشار لليلي بأن تواصل حديثها.

قالت: هذا لا يفسّر سبب وفاة هنري بالمرض نفسه في المرّة الثانية... أذكر أنّه في ذلك الوقت أصيبَت عدّة حيوانات بالمرض: الخنازير والبطّ أيضاً.

كانت جرثومة مختلفة تلك التي أصابت أنواعاً أكثر من الجرثومة السابقة.

- وماذا في ذلك؟

- أعتقد أنّ هذا سبب التحوّر: انتقلت الجرثومة إلى أجسام البط والخنازير وحيوانات أخرى. وبانتقالها من الواحد للآخر تغيّرت وتحوّرت. وحين عادت إلى الإنسان، كانت لا تزال تشبه الإنفلونزا البشريّـة ولكن على نحوٍ أكثر تعقيداً ربّما، وأكثر ضراوة أيضاً».

هزّ أودويرتس رأسه قائلاً:

- برهان جذّاب أكثر ممّا هو مقنع!

- هذا من شأنه أن يفسّر سبب ندرة هذا الفيروس. إنّه يأتي من مكان آخر، من نوعٍ حيوانيّ لا يتّصل عادة بالبشر.

- أيّ نوع؟

- في الجوار، لا أرى إلّا نوعاً واحداً فقط.

راقبها أودويرتس وجفنه يرتجف قليلاً. التمع نور في عينيه الزرقاوين وأدركت أنّه فهم ما ترمي إليه: «البطّ البريّ!».

- بالضبط. ربّما ينتقل الفيروس مع البطّ. عادةً، لا يسعه إصابة الإنسان. من أجل ذلك يحتاج إلى أن يتحوّل وأن «يتأنسن» ليصبح قادراً على النموّ في رئتي إنسان...

ابتسم أودويرتس بسخرية:

- وكيف يحدث هذا التحوّر المعجزة؟

- بواسطة الخنزير! أعتقد أنّه يشكّل جسراً بين الطّائر والإنسان. يصاب الخنزير بفيروس طيريّ وفيروس بشريّ. يتّحد الاثنان في جسمه ليُشكّلا فيروساً هجيناً يصيب البشر مع احتفاظه بطابعه الطيريّ. وهذا ما يجعله خطيراً.

- يجب الاعتراف بأنّ ما تقولينه عبقريّ! ولكن لسوء الحظّ فرضيّتك غير قابلة للإثبات... انتقال بكتيريا أو فيروس من نوعٍ لآخر مكتسباً في كلّ مرّة ضراوة أكبر... بالطبع يمكن اعتبارها طريقة في شرح أصل المرض. ولكن من أجل برهنة الفرضيّـة يجب أن نكون قادرين على عزل هذه الجرثومة الشاملة. لسنا على هذا المستوى!».

أطلقت ليلي ضحكة خافتة تشي بتفوّقها:

- لم تقرأ إذاً ما كتبته كما يجب!

- ؟

- إنّه مكتوب بوضوحٍ في دفتر ملاحظاتي... حين ذكرتُ النّمس!

- النّمس.. ماذا تقصدين؟

- آنذاك كانت النُّموس مريضة أيضاً... حين كنت طفلة كنت ألعب مع نمس أحببته كثيراً، ليون. كم كان يضحكني!... ذات يوم أصيب بمرضٍ، وأخذ يعطس مثل الإنسان. كنت طفلة ووجدت الأمر مسلّياً. وفي الواقع كان محموماً... تماماً مثل هنري».

قطّب الفلمنكي حاجبيه كما حين نعرض له برهاناً مبهماً. سحق السيجارة في المنفضة.

- قلتِ إنّ النّمس التقط الإنفلونزا؟

قامت بإيماءة ساحرة من يدها وهي تبسط راحتها كما لو أنّها تقدّم له هديّـة ثمّ قالت وقد ارتسمت على زاوية شفتيها ابتسامة ماكرة: «هل فهمت قصدي؟».

في صباح اليوم التالي، اشترى أودويرتس خمسة نموس وخمسة أقفاص من مزارع في الجوار، هو نفسه متمرّس خبير في صيد النموس. وفي غرفة كبيرة في الطابق السفليّ، قام بفصل الأقفاص بعناية، وبعدما حذّرَته ليلي من قوّة فكوك هذه البهائم تَجَهَّز بقفازات شديدة الصلابة وقام بحقن مرشّح يحوي إفرازات شارل في أنف أوّل نمس أسماه ألفا [116]. بعد ثلاثة أيّام كان ألفا يعطس وأنفه يسيل وحرارته مرتفعة وظهرت عليه كلّ أعراض الإنفلونزا وسرعان ما نفقَ بعد فترة وجيزة... وفعلَ التجربة نفسها مع النّمس الثاني أسماه بيتا [117]، بطبيعة الحال، وظهرَت عليه علامات سريريّـة مماثلة. عجباً! بفضل ليلي حقّق ما لم يفعله أحدٌ من قبل: العثور على حيوان اختبار قادرٍ على تطوير الإنفلونزا البشريّـة ويمكن إجراء تجارب عليه لتحليل الفيروس.

فكّر مرّة أخرى بالمترجم الصيني في سفينة «لوميراكل» سائراً في بِرَك الدم بين المرضى الغارقين في القيء والحمّى. كان هذا الفيروس قادراً على فتح باب الجحيم. في ظلمة الطّابق السّفليّ، ابتسم أودويرتس في سرّه.

بفضل ليلي تيسّرت له القدرة على إعادة انتاجه في الجسم الحيّ والسيطرة عليه. طلب إحضار عشرين حيواناً جديداً وعشرين قفصاً. أمامه مهمّة عظيمة تعلن عن نفسها: صناعة سلاحٍ غير مسبوق، السّلاح المطلق.

مصحُّ سانت آنّ، يونيو 1919

- الإنفلونزا الإسبانيّـة سلاح!

لم يستطع أمبرتو الامتناع عن مقاطعة ليلي. لم يفكّر قطّ أنّ الوباء الذي أودى بحياة الكثير من الرّجال والنّساء كان مؤامرة حربيّـة. الآن، على الأقلّ، بات يفهم اهتمام الجيش بأمر ليلي روسّو...

وسرعان ما لام نفسه على تدخّله. كانت تحدّق في الهواء أمامها وبدا عليها أنّها تنتظر. جسّ نبضها. كان دائم الانتظام.

- اعذريني، ألست متعبة؟

- قليلاً... لكنّي أشعر أنّه يجب أن أخبرَك. هذا وحده ما يهمّني.

- أكملي... ما هي الذكرى الطاغية في تلك الفترة؟

- الرائحة.

- عذراً؟

- رائحة النّموس. كان المختبر تنبعث منه نتانة الحيوانات التي كنّا نشتريها والتي نقلنا إليها العدوى. في البداية، كان أودويرتس فخوراً بأن يُعلمَنا أنّ الاسم العلمي للنّمس المشتق من اللّاتينيّـة يعني اللّص النتن... لم يكن لدى حيواناتنا التّعيسة الوقت لتسرق الشيء الكثير. لكنّ رائحتها كانت كريهة، نعم!

- هل في ذاك المكان تمكّنتم من عزل الفيروس؟

- «عزل»، ليست الكلمة الصّحيحة... ولكن بسبب خطئي تقدّم أودويرتس بفارق كبير عن علماء الأحياء الآخرين. كنت سعيدة لأنّني عاونته. كنت آمل أن يعثر على لقاح في حين لم يكن هو يفكّر إلّا في إيذاء العدوّ.

- ألم تتوقّعي ذلك؟

- كنت متحمّسة بكلّ بساطة. مثل مبتدئة تشعر بأنّها ستقدر على العمل واكتشاف لقاح أو أشياء جديدة أخرى... آه ما الذي فعلتُه! لا بل إنّه انتهى بي الأمر إلى الانصياع لأودويرتس. كان هناك شيء يبعث على الحماس في تطوير سلاح بهذه القوّة. كنت في حالة استثارة نسيت معها أوجاع رأسي ونوبات الدوار التي أصابتني أثناء نزهاتي حول البِرَك... أراد أودويرتس أن يكافئني فأصرّ لدى المخابرات أن تزوّدني بالأخبار عن أرمان...

استوَت قليلاً في سريرها وعلت وجهها ابتسامة خاطفة، وأضافت: - تخيّلْ! أتى مبعوث من قبل جوزيف كارتييز لرؤيتنا عبر المنطقة الحرّة... كان رجلاً أشقر خجولاً يُدعى ريمون فاكيت. لن أنسى أبداً هذا الاسم!... مصوّر قديم رأيته في «عمل الشّمال». في ذاك اليوم، كنت أرغب في تقبيل أودويرتس لشدّة فرحي. حدّثني فاكيت عن أرمان، وعن المؤسّسة التي أُلحق بها والطريقة التي سيتمّ من خلالها تهريبه. أصبحت المعابر عبر الحدود الهولنديّـة أكثر خطورة، حسبَ رأيه، وخصوصاً منذ وُضع السّياج الكهربائيّ. لكنه بدا واثقاً من خطّته. قبل أن يغادر وعدني بالذهاب لرؤية أرمان. أرسلت معه رسالة لابني... كنت في غاية السعادة! كانت هذه المرّة الأولى منذ أعوام التي أقدر فيها على تزويده بأخباري...

ثمّ تجهّم وجهها وبدَت متردّدة. ثمّ غرقت في صمتٍ عميق.

- وتيو أودويرتس ماذا كان يفعل؟

- في البداية تصرّف كعالم مسؤول. عزل المبنى ومنع الجميع من الدخول باستثناء الحارس أنسيلم، وعاملات التنظيف. ونصب طوقاً أمنيّاً حول المزرعة المجاورة. وأحرقت جميع جثث الحيوانات النافقة.

- إجراءات سليمة.

- نعم. كذلك فرض علينا ألّا نقترب من أقفاص النّموس إلّا مرتدين قميصاً خاصّاً وكِمامة على الوجه. جرى احتواء الفيروس ...

للمرّة الأولى مذ بدأت تسرد قصّتها، التفتت ليلي إلى الطّبيب لتنظر إلى عينيه مباشرة. ثمّ أردفت قائلة: - كان يعتقد أنّه قويّ للغاية، والأسوأ أنّني كنت مثله فخورة.. وفي منتهى الغباء. لم نكن على قدر المهمّة.

- هل يكون أودويرتس القوّة الشّرّيرة التي دفعتك؟

- هو! قالت بنبرة حادّة مرتجفة يلوح فيها الاحتقار. لولاي لما كان شيئاً ولما عرف شيئاً. كان سيستمرّ في التسكّع حتّى نهاية الحرب... أنا من رمَيت النّرد... ليتني عرفت أنّه سيتدحرج بعيداً إلى هذا الحدّ! أنا المسؤولة الأولى، دكتور... أنا ليليت الملعونة. هل كنت تعرف أنّ ليليت كانت أوّل زوجة لآدم قبل حوّاء؟ البعض سيقولون لك إنّ الله خلق ليليت لأنّ الإنسان يجب ألّا يكون سعيداً.

- الأساطير لا تهمّني. أكملي، ماذا فعل أودويرتس بعد ذلك؟

- كان يتخبّط كعادته دون أيّ نتيجة. كلّ شيء كان آمناً في المختبر. جرى احتواء الفيروس القاتل. وبعد ذلك، ذات صباح...

بِرَك كوميل، صيف 1918

- ما بك يا أنسيلم؟

كان الرّجل بساقٍ واحدة يرتجف من الحمّى مرتدياً زيّه القديم الذي كان معتمداً في بدايات الحرب. كان أنسيلم يعمل بجدّ، دائم الانشغال بإصلاح شيء ما في المبنى الهائل الذي كان مؤتمناً على حراسته. ساعدته ليلي للوصول إلى القاعة المخصّصة للمرضى، والاستلقاء على السرير. لم يكن هناك من داعٍ للسؤال، فنظرة واحدة من المرأة الشابّة كانت كافية لتفهم وضع الحارس الصحيّ، وهو نفسه لم يكن غافلاً عمّا حلّ به. منذ ثلاثة أيّام أوكلت إليه مهمّة إطعام النموس، وعطس أحد الحيوانات المصابة في وجهه. لم تفِ كِمامة الشّاش بالغرض. أخذ يتناول شراب الرّوم، الكثير من الرّوم ليعالج نفسه. لكنّه كان يعلم أنّه محكوم عليه بالإعدام، مثله مثل شارل الذي باتت أيّامه معدودة، ومثل كلّ الآخرين الذين دفنوا في توابيت من رصاص. ومع ذلك ما أسرّ به لليلي، متردّداً أوّل الأمر، كان أكثر خطورة. كان عائداً من ليلة أمضاها في ماخور شانتيي.

- ضعفت يا سيّدة روسّو أمام الشهوة. أعرف ذلك تمام المعرفة. اعذريني، ومع احترامي لشخصك، أردت أن أتمتّع للمرّة الأخيرة.

- استرح فالرّاحة ستفيدك.

نظرَ إليها غير مصدّق:

-الرّاحة هنا يا سيّدتي كمن يأخذ قيلولة وسط مجزرة... لن يكون ذلك في مقدوري.

أرادت ليلي أن تطمئنه.

- استلقِ قليلاً. سأعود.

خرجت لتُخطرَ أودويرتس بالأمر. استمع إليها منحنياً على مجهره. حين رفع رأسَه، رأت أنّه كان منزعجاً فالنزهة التي قام بها أنسيلم أحدثت كارثة. ونظراً لنشاط هؤلاء السيّدات في الدّعارة لا بدّ أنّ العديد من الزبائن أصيبوا في شانتيي وفي المناطق المجاورة.

عندما عادوا إلى الغرفة، كان الحارس قد اختفى. عبثاً فتّشوا عنه. اندفع أندرو للبحث عنه لكنّه عاد خائباً. نظر الفلمنكيّ إلى ليلي يائساً. ليس هناك ما يمكن فعله إلّا الدّعاء من أجل أن يوقف الفيروس تفشّيه السّريع.

جاء شقيق شارل ليعوده خلال إجازته، عريف في العشرين من عمره، أشقر على قدر سمرة شقيقه الأكبر. لم يجرؤ أودويرتس على أن يرفض زيارة أخويّـة ربّما تكون الأخيرة. بقي الجنديّ يوماً في المختبر متعجّباً من رائحة المكان النتنة. حتّى الخنادق في الصّيف كانت رائحتها أقلّ نتانة! ثمّ عاد إلى الجبهة في شامباني وتوفّي بعد عشرة أيام بسبب الإنفلونزا الإسبانيّـة. وذلك بعد أن نقل العدوى إلى عدّة رجال من كتيبته تولّاهم سعال شديد فأُجلوا إلى مستشفى خلف الجبهة حيث نقلوا بدورهم العدوى إلى جنود آخرين. في غضون ذلك، توفّي شارل.

سرعان ما ذاع صيت المختبر. كانت ساعية البريد تسلّم الرّسائل بأطراف أصابعها ثمّ تلوذ بالفرار مقلعة بدرّاجتها كمن يهرب من سباق فرنسا للدّراجات. استمرّ أودويرتس في نقل العدوى إلى النّموس وزراعة الجراثيم، محاطاً بمعاونيه الذين كانوا يعملون حاجبين وجوههم، عالقين بين الخشية من الفيروس والخوف من أن يُطرَدوا من هذا المنصب المريح بعد كلّ حساب وينتهي بهم الأمر على الجبهة. اكتسب الفلمنكيّ عادات مزعجة. كان يغسل يديه طيلة الوقت. على المائدة، كان يمسح كأسه بعناية وكذلك صحنه وأدوات المائدة ويكشط قشرة الخبز حتّى اللّب.

منذ زمنٍ طويل نسي خططه المذهلة للتوفيق بين العلم والدين. نادراً ما كان يفكّر في الله، فالصغير اللّامتناهي كان يستحوذ على كيانه كليّاً. يوم الأحد، في القدّاس، في كنيسة القرية المجاورة الصغيرة، كانت المقاعد تبقى فارغة من حوله. لم يكن هذا النفور فقط بسبب الرائحة التي ترافقه بل كان المؤمنون يُعْرضون عن الرّجل الذي جلب معه الموت إلى المنطقة.

ذات صباح، استيقظ أودويرتس كالعادة في الساعة الخامسة - فالعِلم لا ينتظر أبداً - لكنّه لاحظ أنْ لا أحد سواهما هو وليلي في المبنى الهائل. عبثاً ناديا القاطنين فالصّدى لم يُرجع إلّا زمجرة النّموس في أقفاصها. هرب المعاونون. أخذ الفلمنكيّ يتفقّد الغرف الفارغة صافقاً الأبواب بعنفٍ وهو يصرخ قائلاً: «لم يفهموا شيئاً! لم يفهموا أنّ أهميّـة الأمر تكمن في خطورته!».

ولكن من ذا الذي يمكنه أن يخطّئهم؟ لقد هربوا من مكان مميت، نتنٍ كالجحيم. ولكن بعد فوات الأوان، لسوء الحظّ. كان ثلاثة منهم يحملون الفيروس وإن كانوا يجهلون ذلك. جرى تعقّب مساراتهم بفضل ألكسندر الذي استخدم نفوذه ومعارفه لدى دوائر الشرطة. لوييك لجأ إلى أقاربه في

بريست. حاول دون جدوى أن يتجنّد كطبيب مساعد في البحريّـة. الله يعلم كم من البحّارة المستعدّين للسفر نقل إليهم العدوى خلال أيّامه التي قضاها في الدردشة والشرب في حانات المرفأ. أندرو أبحر إلى بوسطن، وباستيان، المستوطن، إلى السنغال. وبسبب وباء الطاعون في داكار، حُوّلت سفينته إلى فريتاون في سيراليون.

لم ينج أحد منهم، ولكن تسنّى لهم الوقت لينقلوا الفيروس إلى مئات الأشخاص. عندما رسَت السفينة حيث كان أندرو يحتضر عند شواطىء الولايات المتّحدة كان عدد الركّاب المرضى يفوق الأصحّاء ومع ذلك لم يُعمد إلى إجراء حجرٍ صحيّ. وعلى المركب حيث كان باستيان يصارع المرض أصيب المسافرون التعساء، الذين اعتقدوا أنّهم نجوا من الطّاعون، بجرثومة أخطر وبدأوا ينشرونَ الداء في أفريقيا.

وسرعان ما تكرّر المشهدُ نفسه في كلّ مكان من فرنسا على جانبي الجبهة، ليشمل من ثمّ العالم كلّه. كان الطّبيب يقتربُ من مريضٍ دخل في غيبوبة، فيفحصه ويدرس السجلّ الذي يعرض لتطوّر المرض، في حال وُجد، ثمّ يراقبُ عن كثب اللّون الأزرق الغريب الذي يتّخذه الوجه والجسد كلّه أحياناً. وكانت النتيجة تأتي وكأنّها لازمة محزنة معادة: «لا أفهم!». كان يشعر أنّه أعزل في مواجهة هذا المرض الذي يُصيبُ بشكلٍ غريبٍ الشريحة الأقوى من السكّان، أي الذين تترواح أعمارهم بين 15 و40 سنة. كانت لائحة العلاجات الموصى بها تشهد على براعة أولئكَ المهرة بدءاً من المحاجم والفصد مروراً بحقن الأوكسجين تحت الجلد، والكافيين، وزيت الكافور أو الأدرينالين، وجرعات الكينين وصولاً إلى ضمادات الصدر الباردة، وهذا دون ذكر وصفات الجدّات العلاجيّـة كمثل شرائح نيئة من لحم العجل الصغير توضع على الصدر

لمدّة أربع وعشرين ساعة. ربّما سَخِرَ أولئك المرضى من لائحة العلاجات لو لم يقضوا نحبهم قبل استنفادها.

لان، 1918

أكان ألكسي كافيل يستمع إلى المؤمن الخامس يعترف بخطاياه أم السادس... لم يعد يعرف، ولكن الحمد لله، كان الأخير. على الرغم من المقعد الخشبيّ غير المريح الذي كان يؤلم ردْفَيه، بلغ درجة الألمعيّـة التي أرادها له أساتذته أيّام المدرسة الإكليريكيّـة: أن يصبح الوسيط الذي يسمح لكلام البشر بالوصول إلى الرحمة الإلهيّـة. بالنسبة إليه، كان الأمر أشبه بحالة من النعاس اللّطيف الذي تتخلّله بعض النواهي الرنّانة الصارمة والعبارات الغامضة وإشارات الصليب المرسومة على عجلٍ في الهواء. أي باختصار كان يقتصر على ممارسة ذلك الطقس الرتيب كالخطيئة التي يبدو السّماع عنها أقلّ متعة بكثير من ارتكابها.

بدأت التائبة الأخيرة اعترافها بنوبة سعال. ما إن قالت له «باركني يا أبتِ...» بنبرة جشّاء حتّى تعرّف كافيل على إميلي فورشييه، فتاة من المدينة العليا رآها تدخل منذ قليل متأبّطة ذراع عريف ألمانيّ. انحنى الكاهن وأزاح بخفرٍ الستارة القرمزيّـة ليتحقّق من الأمر. كان الجنديّ جالساً عند المدخل، أسمر قصير القامة، وبدا غبيّاً بعض الشيء بخدّيه الأجوفين وشاربه المشذّب بشكلٍ أخرق.

- يا أبتِ أخشى أنّني ارتكبت خطيئة.

كان كافيل يعرف إميلي هذه. كانت خائفة جدّاً من الخطيئة لدرجة أنّها كالدوار يكفي أن تتخيّله لتقع فيه. كانت من بنات الرعيّـة اللّواتي يجبرنه على

الخروج من خدره لاستجوابهنّ، وتقديم النصح، ونهيهنّ عن المعاصي. هؤلاء المؤمنات كنّ بحاجة إلى طبيب نفسيّ وليس إلى كاهن. لشدّ ما كان يسخر من كلّ هذه الملاحظات الاستبطانيّـة. كان يتجنّبها عادة باللّجوء إلى بعض العموميّات حول قبح الرذيلة. بالنسبة لإميلي التي عاودت السعال، بدَت الحالة مؤكّدة: كانت تنتظر نهياً عن أمر لتسارع إلى انتهاكه.

- لديّ صديق جديد. أوه! لم أمكّنْه من نفسي، بقيت محتشمة معه... هذا أمر غير وارد...

- هل هو الجنديّ الذي رأيته، عند المدخل؟

- إنّه هو يا أبتِ. يبدو غريباً بعض الشيء. لكنّه شابٌ لطيف. أعرفه منذ 1917. هو ليس كالجنود الآخرين الذين لا يفكّرون إلّا في الشرب والعبث مع النساء. إنّه ثرثار وسرعان ما تأخذه الحماسة أثناء الحديث، لكنّي لا أفهم سوى القليل من اللّغة الألمانيّـة. لذا أستمع إليه وأنا أقول: «نعم، نعم» بابتسامة عريضة فيستكين.

- لستِ بحاجة للدّفاع عنه يا بنيّتي. الأمر يتعلّق بك وبخلاص روحك.

لم يكن لدى الكاهن أدنى شكّ. لم تكن إميلي تطلب إلّا الانجرار إلى العربدة مع العريف كما فعلت مع الكثيرين غيره الذين نسيت أسماءهم. ومع ذلك لم يسبق أن تورّطت مع أحد المحتلّين. يفترض بها أن تكون فرنسيّـة متهوّرة جدّاً أو متضوّرة جوعاً لكي تظهر برفقة ألمانيّ. قال لها بلهجة قاسية:

- أحذّرك. ما الذي تخطّطين له؟ لا تخفي أيّ شيءٍ عنّي.

- يا أبتِ، إنّه صديق، لا أكثر.

- قلتِ لي ذلك مرّات عديدة ثمّ تعودين للاعتراف بخطئك، هل تذكرين يا بنيّتي؟

- نعم، يا أبتِ، ولكن هذه المرّة...

توقّفت عن الكلام وقد أخذتها نوبة سعال جديدة. انتهز كافيل الفرصة ليروز الموقف في عقله. كان الجميع يشعرون بأنّ الحرب في طريقها إلى الانكفاء. لطالما كان هذا يُشاع منذ سنوات، ولكن في تلك الآونة، نظراً لتواتر القصف على المنطقة، ناهيك عن تعبير الهزيمة على وجوه الضبّاط الألمان، باتت المسألة واضحة. كانت إميلي فتاة لطيفة. إذا استسلمت آنئذٍ لأحد الألمان فإن الشّيطان وحده يعرف ماذا سيصير بحالها حين يعود الفرنسيون أسيادَ لان مرّة أخرى. ثمّ إنّه لم يكن راغباً في تقديم أيّ هبة للألمان. كان مقرّباً منهم عندما كانوا منتصرين، أمّا الآن فعلَيه التفكير في المستقبل.

استخدم كلّ فصاحته لإقناع إميلي بالامتناع عن ملاقاة هذا الجنديّ الشابّ. وبما أنّه كان يعرف أنّ الاعتبارات الأخلاقيّـة قلّما تؤثّر فيها فقد أصرّ، وهذا أمر غير مألوف في كرسيّ الاعتراف، على ذكر الأمراض التي ينقلها الجنود وخصوصاً الألمان مع جراثيمهم المجلوبة من الشرق. لدى سماع إميلي هذه الكلمات، أصيبت بالذهول. واسترسل كافيل في خطابه لدرجة أنّ الفتاة شعرت في النهاية أنّ أبواب الجحيم فُتحت لها دون سواها وأنّها على وشك الغرق في سيل منصهر من الحمَم والجدريّ. لم يسبق للأب كافيل قطّ أن تحدّث إليها بهذه الطّريقة. حتّى أنّها توقّفت عن السّعال.

- آه يا أبتِ لم أكن أعرف ذلك، أنا مسيحيّـة صالحة، أؤكّد لك، ومُحبّة لوطني. الآن أصبحت على بصيرة من أمري.

- اذهبي يا بنيّتي وليجنّبك الربّ التّجارب [118].

خرجت إميلي مسرعة. نهض كافيل، أزاح الستارة خلسةً. رآها تسير نحو الباب الرئيسيّ. لدى مرورها بقرب العريف نهض مفرجاً عن ابتسامة عريضة تبين معها كلّ أسنانه الداكنة. ظلّت على مسافة متر منه متعمّدة تجاهله. فوجىء بتصرّفها متمتماً بضع كلمات لم تصل إلى مسامع الكاهن، ثمّ سارع إلى تعقّبها. لم تمنّ عليه بنظرة واحدة. خرجت دون أن تلتفت صافقةً الباب في وجه الجنديّ الذي وجد نفسه وحيداً في صحن الكنيسة، لا يصدّق ما تراه عيناه، خائباً، متهدّل الشاربين، مرسِلاً نظرات غاضبة، مجمجماً بضع كلمات تخرج من حلقه. كانت بالتأكيد مهينة للفرنسيّات.

كان كافيل راضياً عن تصرّفه. لم ينتبه لمجيء المفوّض رينو، ما جعله ينتفض. ابتسم الشرطيّ قائلاً: «لعِظاتك تأثير يا سيّدي الكاهن! هل تقنع فتياتنا الآن بالامتناع عن معاشرة المحتلّ؟»

لم يلتقِ كافيل المفوّض منذ فترة طويلة. بدا رينو مبتهجاً، لم تكن رؤية الألمان يحتلّون المدينة لتُتعسه كثيراً. مع الدوريّات البروسيّـة في الشوارع وحظر التجوّل عند الساعة السابعة مساء اختفت الجرائم في الواقع، وعلاوة على ذلك، لم يعد أحدٌ يتوجّه إلى رينو لمعاقبة مرتكبيها. أفرغ المحتلّون عمليّاً الأنفاق من الحثالة التي كانت تعشّش فيها قبل الحرب، واستتبّ النظام، لا سبيل لإنكار ذلك.

- أحذّرهنّ من الوقوع في الخطيئة يا سيّدي المفوّض. والخطيئة ليست فرنسيّـة أو ألمانيّـة، على حدّ علمي.

- الخطيئة أخطر دوماً عند المهزومين... في هذه اللّحظة يبدو أمر محتلّينا غريباً ألا تعتقد ذلك؟

وافق كافيل وهو يطلق تنهيدة. كان عائداً لتوّه من غداء عند الرّائد كلاين. كان البروسيّ يُقيم دوماً ولائم رائعة، وإن لم يكن يبدو على ما يرام. كان مستاء من الهجوم الألماني الذي شُنّ في نهاية هذا الرّبيع. بعد أن بدأ بنجاح أخذ يراوح مكانه. هذا ما ألمح به الرائد لكافيل. ثمّ سأله مستاءً: «وهل تعرف ما السبب؟... الإنفلونزا! لودندورف [119] نفسه كان سيعترف أنّ معنويّات الجنود يقوّضها هذا الوباء اللّعين!». تساءل الكاهن عمّا إذا كان الرائد يبالغ، ولكن بالنظر إلى مستوصف المستشفى، كان يشعر أنّه هناك ما يدعم هذا القول. لم يعد هنالك أسرّة كافية لكلّ هؤلاء الذين صرعتهم الإنفلونزا الإسبانيّـة.

مسّد رينو شاربَيه بطرف إصبعه ثمّ استأنف كلامه قائلاً: «ومع ذلك فإنّ هذا العريف ليس الأسوأ».

تريّث كافيل في الكلام. لم يكن يجهل أنّ رينو ألزاسيّ من جهة والدته، لذا كان يعمل أحياناً مترجماً فوريّاً للمحتلّين، ولكن أن يخالط الجنود فهذا لم يتَناهَ إلى علمه...

- أنت تعرفه إذَن؟

- إنّه من متذوّقي الفنّ والجمال. رآني أضع لوح الرّسم فأظهر اهتماماً بعملي لدى مروره للمرّة الأولى بالمدينة في شتاء 1917. هو نفسه أنجز رسوماً لمدينتنا بالألوان المائيّـة.

- إيّاك وهذا النوع من العلاقات.

قال رينو الذي تجهّم وجهه لدى تفكيره أنّ رحيل الألمان كان يعني العودة إلى أعمال الشّرطة الشاقّة التي فوّضها لهم مسروراً:

- ملاحظة مدهشة من قِبلك!... ولكن لا يهمّ، لستَ مخطِئاً، فمِنَ الأفضل التحسّب للمستقبل.

بعد ساعة، توجّه كافيل إلى شقّة جوزيف كاتييز الصّغيرة غير البعيدة عن كنيسّة سان مارتان التي دمّرها القصف. على الرّغم من المعاملة التفضيليّـة التي خصّ بها الألمانُ الكاهنَ وسمعته الطيّبة لديهم، كان يشعر أنّه يعيش وسطَ كارثة دائمة. أصبحَت المدينة القروسطيّـة الرائعة مكاناً مشؤوماً وشوارعها الفارغة مليئة بالأنقاض، حيث عدد الجراذين قد يفوق ربّما عدد الناس. وبسبب القصف المتواصل، استلزمَ إجلاء مئات السكّان. في اللّيل، كان الكاهن يضطرّ لمغادرة سريره مهرولاً إلى القبو. حتّى الجنازات في المدفن أصبحَت خطيرة بسبب القصف المتواصل.

استقبلَه كاتييز ببرودة. كان قد رجا الكاهن أن يأتي لزيارته «باسم الفرنسيين الذين يقاتلون في الظلّ». طلب من كافيل كتابة رسالة تعريفيّـة تخوّل رجلاً يُدعى ريمون فاكيت الدخول إلى دار رعاية «سانت ماري»، مدرسة داخليّـة في المدينة السفلى، لمقابلة أحد نُزلائها وهو الطفل أرمان روسّو. «إنّه قريب له ويودّ قضاء بضع ساعات معه، أي إنّها زيارة عائليّـة باختصار...»

كان الكاهن يتوقّع طلباً أهمّ لذا كان ميّالاً لطرده ثمّ عدل عن ذلك. كان من غير الحكمة رفض خدمة مماثلة في هذه الأوقات التي لم يعد فيها المحتلّ

قويّ الشكيمة، لذا وعده بأن يكتب الرّسالة. دوّن الأسماء وقال إنّه سيرسلها في اليوم التالي إلى راهبة في المأوى كان يعرفها، الأخت أورسول.

قال كاتييز بنبرة أقلّ جفاء:

- أشكرك يا أبتِ، باسم جميع رفاقي. هل الحياة أسهل عندكم في بيت الكهنة؟ هنا انقطاع المياه المتكرّر عذاب حقيقيّ؟ ولن أحدّثك عن الطّعام. ثلاثة أيّام ونحن نرغب في بعض الخبز وقديد اللّحم! ناهيك عن هذا الانتظار المتكرّر لبضع ساعات أمام أيّ دكّان!

قال كافيل بنبرةٍ جافّة هو الذي تلذّذ قبل بضع ساعاتٍ بفطيرة المربّى مصحوبة بفنجان من القهوة القادمة مباشرة من مطعم الضبّاط الألمان:

- لستُ غافلاً عن ذلك. كلّنا نعاني بدرجاتٍ متفاوتة. لنتحمّلْ ذلك كمسيحيّين...

قال كاتييز متفحّصاً الخصر الممتلئ للأب كافيل:

- وبالصّبر الذي يتحلّى به المسيحيّ بالطّبع... هل يمكنني أن أطلب منك خدمة أخيرة؟

- قلْ لي.

- هل بإمكانك أن تأخذ هذه الوثائق إلى منزلك؟ سأبقى بعيداً لفترة ولا أريدُ أن تعثر عليها الخادمة أو الناس الذين تأتي بهم إلى هنا.

وسلّمَه رزمة من الوثائق والرّسائل والمستندات من الورق المقوّى. كانت مثبّتة بحزام من القماش الأبيض أزرق الحوافّ. انتظر كافيل إيضاحات

من كاتييز لكنّه لم يُدلِ بشيء. منَ الواضح أنّها كانت أوراقاً تورّط صاحبها. تردّد في أخذها مفكّراً أنّ علاقته بالألمان كانت جيّدة ولا يستطيع بالتّالي أن يقوم بهذه المجازفة البسيطة. لكنّه عاد وأمسكَ الرّزمة ليخبّئها في ثنايا ثوبه.

رافق كاتييز الكاهن حتّى عتبة مسكنه وشيّعه لدى ابتعاده في عتمة الشارع المدمَّر. لم يكن يحبّ الكاهن وتصرّفه المزدوج المراعي للمحتلّين. لجأ إليه لأنّه كان يخطّط لتهريب أرمان روسّو نحو المنطقة الحرّة. كان اختفاء الصبيّ حَريّاً بأن يتسبّب ببعض المتاعب لكافيل وتوريطه، ولكن هذا آخر همّه. أغلق الباب من جديد ثمّ جلس في كنبته الصّغيرة.

كان ريمون فاكيت مصرّاً على أنّه حان الوقت المناسب لتهريب أرمان. فكّر البيكارديّ، وعيناه شاخصتان إلى الفراغ، في جميع التغييرات التي أحدثتها الحرب في رجالٍ مثله، هو فاكيت المصوّر البسيط المغمور. مَن كان يتخيّل أنّ مثل هذا الرّجل الخجول يمكنه أن يقوم بمثل هذه المجازفات الخطرة؟ اجتاز عدّة مرّات الحدود الهولنديّـة على مرأى من الألمان بشجاعة رائعة. هو نفسه، الذي كان تاجراً مُسالِماً، أصبح محوراً لشبكة تجسّس. لقد غيّرته الحرب إلى حدّ جعلته يتفاجأ بنفسه. نهض فالوقت ليس للتأمّل، والألمان يراقبونهم عن كثب.

مرّت ثلاثة أيّام. وبينما كان الكاهن يستعدّ لإقامة القدّاس، رأى جنديّين يدخلان إلى المَوهِف [120] ويأمرانه بأن يتبعهما إلى مقرّ القيادة. نظر إليهما: كانا نفرَين على شاكلة هؤلاء الجنود الذين يسيرون ليلاً يتعتعهم السّكر هاتفين: «حرس الراين» [121] فيما المرافقة الموسيقيّـة الوحيدة تتمثّل بضرب واجهات المحلّات بجزماتهـم. حاول عبثـاً الاعتراض إلّا أنّه وجبَ عليه الامتثال لأوامر السلطات. لم يعترِه قلق شديد لأنّ صديقه كلاين كان يحميه.

كان الأمر مختلفاً في مكتب الضابط شميتز، وهو بافاريّ سَمِجٌ يرتدي نظّارات كبيرة، وأقلّ بشاعة بقليل من القاضي بوتزنزيغر. «هل كتبت هذه الرّسالة؟» سأله الضابط من دون أن يدعوه حتّى للجلوس عارضاً عليه الرسالة الموجّهة من كنيسة لان، وكان كتبها الكاهن لكاتييز. أشار كافيل برأسه إيجاباً. ولكن الألمان ما عساهم يريدون من ريمون فاكيت والصبيّ؟ استعاد هدوءه. لا يمكن أن يكون الأمر بهذه الخطورة.

- هل تعرف شيئاً عن هذه الأوراق؟

امتُقِعَ وجه كافيل عندما رأى السَّيْر الأبيض بحوافّه الزرقاء: إنّها الوثائق التي سلّمه إيّاها كاتييز.

- وجدناها عندك...

- عندي! هل فتّشتم منزلي في غيابي؟

- وحسناً فعلنا. إنّها معلومات سريّـة عن وضع جيوشنا في المنطقة. ماذا تنوي أن تفعل بها؟ ما الذي كنت تخطّط للقيام به؟

- لا شيء، أنا...

وصمتَ. كانت المسألة تزداد خطورة. هل سيضطرّ للتشهير بجوزيف كاتييز؟ كان هذا تهوّراً لأنّه يجب الاحتياط للمستقبل. ولكن من جهة أخرى، هل كان لديه الخيار؟ وما الفائدة؟ كان متورّطاً في جميع الأحوال. فهل يلعب دور الأبطال ويمتنع عن الكلام؟... أخذ يمقت أكثر فأكثر المجرى الذي كانت تتّخذه الأحداث. وبعد التفكير مليّاً في الأمر رأى أنّ كاتييز هو المسؤول، وأنّه هو الذي

دفعه إلى هذه القضيّـة المشبوهة التي لم يكن يفهم منها شيئاً. ما العمل؟ ولكن ما العمل فعلاً؟

أعفاه الملازم من الوشاية.

- هل تعرف جوزف كاتييز؟

- نعم.

- قلْ نعم يا سيّدي الضابط. قالها بنبرة من الجفاف بحيث شعر كافيل وكأنّه يسمع صوت اصطفاق كعبيه. هذه الوثائق تخصّه. ألقينا القبض عليه هذا الصّباح.

- لا أفهم. ماذا تريدون منّي؟

فقد صوابه، كان يرى نفسه متورّطاً في مناورات تتجاوزه. كانت الفكرة الوحيدة المطمئنة معرفته أنّ الرّائد كلاين يحميه. لكنّ الثقة بخشبة الخلاص بدأت تتقلّص شيئاً فشيئاً. «أنا رجل سلام، أنا ابن الكنيسة...».

ابتسم البافاري ابتسامة ساخرة. «كنت تريد تهريب الصبيّ أرمان روسو مع ...» تفحّص ورقة على مكتبه «مع ريمون فاكيت... ذاك المصوّر... لماذا؟ كان يفترض بذاك الرّجل أن يمدّنا بالمعلومات لو أنّنا استجوبناه، لكنّه مات.

- مات! هل أعدمتموه؟

- لا تكن غبيّاً... كان مريضاً. قضى بالإنفلونزا الإسبانيّـة.

نظر كافيل مشدوهاً إلى الألمانيّ القصير القامة، إلى عينيه الشرّيرتين خلف نظّارتيه السّميكتين. كان كافيل يفقد صوابه. ولكن بمَ ورّطه كاتييز يا ترى؟

قال الضابط بلهجة هادئة: «أنت قيد الاعتقال يا سيّد كافيل.. وإنْ تكن كاهناً... أنت موقوف بتهمة التجسّس ومحاولة تهريب أحدهم إلى أراضي العدوّ. خذوه!»

في الرواق، بين الجنديّين المرافقين، رأى كافيلُ المصدومُ الرّائدَ كلاين الذي كان في انتظاره. كلاين، صديقه كلاين، لقد أرسلته النعمة الإلهيّـة! اعتملَ أملٌ فـي نفس الكاهن، لا شكّ أنّ الطبيـب سيتدخّل ويبـدّد سـوء التّفاهم ويطلق سراحه. ولكن لدى رؤيته الهيئة الغاضبة للرائد، فقد كافيل الثّقة فجأة. منذ أشهرٍ لاحظ كافيل التغيّر، لم يعد كلاين يشبه نفسه. اختفى الضابط الشابّ المفعم بالحيويّـة الذي قابله الكاهن في بداية الحرب. باءت أبحاثه حول الميكروبات والحرب الجرثوميّـة بالفشل. ما عاد قادراً حتّى على معالجة الجنود المصابين بوباءٍ شديد العدوى. وإلى ذلك كلّه بدأ يتساءل عن احتمال خسارة بلاده الحرب.

قال لدى اقترابه منه:

- خيّبت أملي، سيّدي الكاهن.

- لم أفعل شيئاً على الإطلاق، يا حضرة الرائد. يجب أن تصدّقني. قل لهم باسم ما أعتقده صداقتنا أنّني حليفكم!

شعر كافيل بالغضب وهو يفكّر أنّ نبرته كانت متوسّلة أكثر من اللّازم، لكن ما السّبيل إلى فعل شيءٍ آخر؟ كان مضطرباً. لمح شرارة في نظرة الألماني، الشّرارة نفسها التي تلتمع في عينيه هو كافيل حين كان يستمع لأحد المؤمنين وهو يعده بأنّه لن يقع في الخطيئة ثانية: عينا العارفِ بالطبيعة البشريّـة وضعفها الميؤوس منه.

- لا مجال لإنكار الواقع يا سيّدي الكاهن. لقد خنتنا.

- غير صحيح!

علا صوت كافيل إلى حدّ الصراخ تقريباً. أمسك الجنود بذراعيه مستعدّين لاقتياده قبل أن يقلّل من احترام الضابط. قاوم كافيل وسأل الرائدَ بصوتٍ أجشّ يثير الشّفقة: «ماذا سيفعلون بي؟ هل تعرف؟»

هزّ كلاين رأسه كالرجل الرّاشد تثير حفيظته حماقة ارتكبها طفل.

- ستُرسل إلى معسكر اعتقال، في بوميرانيا ربّما... استعدّ لتجارب صعبة، يا سيّد كافيل.

- لكن هذا ظلم. أنا صديقك.

أمسك الرّائد ذراعه في حركة مشجّعة وانقبضت شفتاه الرقيقتان بابتسامةٍ خاطفة، آخر ابتسامة سيراها على وجه ألمانيّ لعدّة أشهر. «تشجّع! اعتبر نفسكَ محظوظاً لأنّك لم تُعدم بالرّصاص!».

بِرَكُ كوميل، 1918

حين وجدت ليلي نفسها وحيدة بصحبة تيو أودويرتس في المباني التي اجتاحتها نتانة النُّموس ورائحة السيجار الذي كان يدخّنه وكأنّه نوع من العلاج، وحين بات واضحاً أنّ الفلمنكيّ غـير مهتمّ بالبحث عن لقاح، أدركتْ حجم الكارثة التي تسبّبت بها. في كلّ مكان، كانوا يعثرون على أناسٍ متوفَّيْنَ في منازلهم، وأحياناً على جثث متحلّلة بعد مضيّ أكثر من أسبوع على الوفاة. في أماكن أخرى، وُجدت عائلات بكامل أفرادها ممدّدين جنباً إلى جنب. في أحد المدافن في شانتيي، بينما كان الأقارب يشاهدون النعش الرّصاصيّ يُنزل إلى القبر، انهارَ أحد الحاضرين صريع المرض. التفت الكاهن بهدوء شديد إلى الحضور قائلاً: «إنّه الأوّل يا أصدقائي فمَن التالي؟»

سعَت ليلي لأن تعيدَ أودويرتس إلى صوابه، وتوسّلت إليه أن يوقف تجاربه. بات مخيفاً بشعرِه المنفوش الذي لم يعد يكلّف نفسه عناء تسريحه، وخدّيه المرقّطين بشعيرات شقراء وبيضاء، وعينه اليمنى التي لم تعد تنفتح إلّا بفعل تشنّجاتٍ عصبيّـة نادرة. كان يستمع إلى ليلي بنظرةٍ يلتمع فيها حماس جنونيّ ولا يجيبها إلّا نادراً وبنبرَةٍ سلطويّـةٍ ساحقة رافضاً التسليم بأنّ السلاح الذي أراد صنعه خرج عن نطاق السيطرة. ولأنّه كان يتجرّع لترات من القهوة الرديئة المجلوبة من القريَة ويأكل القليل فقد أصابته رجفة كانت تزعجه خلال عمله على المجهر. كان الفيروس الرفيق الوحيد الذي يهتمّ بأمره. فكّرت ليلي أنّ الاهتمام لم يكن متبادلاً، لأنّه بالرّغم من وجود العديد من المرضى الذين كانوا يدورون في فلكه لم يُصَب الفلمنكيّ ولا حتّى بزُكام. «وحدهم

المهووسون تكتب لهم النجاة»، قال لها ألكسندر عندما استشارته بشأن ما يجب القيام به. لكنّه لم يحرّك ساكناً لإيقاف أودويرتس عن مسعاه.

وعلى الرّغم من كلّ شيء، كان أودويرتس يشكّل فرصتها الكبرى لترى أرمان من جديد. كانت تأمل أن يكون فاكيت في لان قد تواصل مع جوزيف كاتييز، وسلّم رسالتها إلى أرمان. كان يُفترض أن تُحاط عمّا قريب عِلماً بما يجري. لكن في تلك الأثناء، كانت الأخبار الوحيدة التي تصلهم من الخارج تتعلّق بتطوّر الإنفلونزا.

وذات صباح، وقد سئمت أخيراً من الدوران بين هذه الجدران النتنة مترصّدةً إشارات لا تظهر، قرّرت الرّحيل. أرادت أن تودّع أودويرتس لكنّه غادر للتوّ بحثاً عن معاونين. كان يكرّس لهذه المهمّة نهارات بأكملها لأنّ المتطوّعين لم يكونوا يتزاحمون عند بابه. بدأت تكتب على عجل رسالة وداع صغيرة. قالت في نفسها إنّ شرحها أسباب الرحيل سيكون مسهباً ولن يفهمها في جميع الأحوال. تركت حقيبتها في مبنى المختبر حاملةً كيساً صغيراً ثمّ خرجت تحت رذاذ المطر. حين دارت حول قصر السيّدة بلانش معرّضةً وجهها للمطر، سقط حمل عن كتفيها. حمل ضئيل. كانت تعرف تماماً أنّها كانت تتخلّى هناك عن أكبر فرصة لها بإطلاق سراح أرمان، وأنّ الكارثة التي أشعلت فتيلها بدأت تتفاقم. حاولت ألّا تفكّر في الأمر.

في الغابة الصّغيرَة، مرّت بالقرب من أجمة بدا لها أنّها مرتعُ طنينٍ متواصل. أبعدت الأغصان وتوغّلت بين النباتات. كانت كتلة من الذباب تدبّ على العشب، وآلاف الحشرات تهتزّ مشكّلة حجاباً قزحيّ الألوان يغطّي حيواناً كبيراً ميتاً. استحوذت الرائحة المقزّزة على ليلي. أشاحَت بوجهها وانحنَت لتتقَيّأ. كانت على وشك الارتداد على أعقابها عندما رأت بقعة حمراء زاهيَة

تبرز بابتسارٍ تحت سرب الحشرات. أثار المشهد فضولها فغطّت فمها وأنفها بمنديل مستجمعة كلّ شجاعتها ودخلَت ببطء إلى الدائرة النتنة. كشحت بغصنٍ من السرخس الذبابَ الذي ما لبث أن عاد على الفور، ولكن تسنّى لها الوقت لتميّزَ قماش سروال أحمر. حرّكت الغصن من جديد وما إن تبدّدت سحابة الحشرات حتّى تعرّفت هذه المرّة مرتعبة على الزيّ القديم الذي كان أنسليم يرتديه. لم يعد وجهه معروفاً ولكن لا مجال للخطأ: للجثّة ساق واحدة فقط. لم يتسنّ للحارس المصاب الوقت للذهاب أبعد. رمَت ليلي غصن السّرخس وركضت باتّجاه الدرب.

لم يتأثّر تيو أودويرتس كثيراً برحيل ليلي. في المساء، حين بات واضحاً أنّها رحلت ولن تعود، أشعل سيجاراً وأخذ منه باستخفافٍ مجّةً وهو يُحدّق إلى السّقف. هربت أسوة بجميع الآخرين، لكنّها على الأقلّ أدّت واجبها، أعطته الفيروس، السلاح الذي يمكنه العمل عليه.

في اليوم التالي، ذهب ليطالب مجلس القيادة في باريس بِسُلَف جديدة ومعاونين آخرين أكثر أهلاً للثقة. أصرّ أمام اللّجنة العسكريّـة على إمكانيّـة شنّ هجومٍ فيروسيّ مع التقليل من الأضرار الجانبيّـة المحتملة. ثمّ، بدافعٍ من خبثه الذي لا يُضاهى، عرض إمكانيّـة إيجاد لقاح. لم يكد يلقى آذاناً صاغية. في صيف 1918 ذاك، رفضت أكاديميّـة الطبّ اعتبار الإنفلونزا مرضاً خطيراً: ما عاد مقبولاً عزل المرضى وارتداء الكمامات أو إغلاق المدارس. وإلّا لَعُدَّ الأمر إثارة للمخاوف بلا داعٍ. على أيّ حال أوضحت جريدة «لوماتان» لقرّائها أنّ المرض آثر أن يصيب الألمان ويتجنّب الفرنسيّين. إنّه لَصديقٌ هذا الجرثوم، صديق حقيقيّ، ولبِق في التصرّف مع مَن كان يعرفهم.

تحدّث الضابط الطبيّ المكلّف بإعداد تقرير عن نظريّات مشكوكٍ فيها وعن تجارب مشبوهة محفوفة بالمخاطر. وسرعان ما تباحثت اللّجنة في الأمر: بدأ الألمان في التّراجع، فهل ما زلنا بحاجة إلى الأسلحة البغيضة التي يقترحها هذا الباحث المريب؟ لذا صُعِقَ أودويرتس حين أُبلِغَ بأنّ عليه إيقاف أبحاثه، وأنّ مختبره قد أُغلِق، وأنّه عُيِّنَ في الفريق الطبّيّ في مستشفى كاليه.

عاد غاضباً إلى وادي التَّيف. كان يهمهم قائلاً: «هؤلاء الموظّفون لم يفهموا شيئاً! الألمان سيطوّرون أسلحة بيولوجيّـة. لن يسمحوا لأنفسهم بأن يُهزموا هكذا. علينا أن نكون مستعدّين لمواجهتهم». وظّف ثلاثة معاونين جدد، كانوا أربعينيّين ولديهم إلمام بعلم الأحياء، وهذا يُفترض أن يكون كافياً لإجراء اختبارات كيماويّـة. عقد العزم على أن يدفع لهم ممّا تبقّى له من السُّلَف التي خُصّصت له. لكنّ المعاونين الثلاثة تركوه بعد أسبوعٍ وقد أصيبوا بدورهم. كان الفيروس يتغلغل حتّى في جدران المختبر. بعد أيّام، جاء طبيب عسكريّ يُعلمه عن إغلاق المختبر، فطردَه وهو يركله ركلات شديدة في مؤخّرته. أرسلوا إليه الدّرك الذي كان يخشى لدى وصوله اقتحام ما قيل إنّه مصنع للجراثيم، لكنّ أودويرتس كان قد اختفى.

مع نُموسه والعمّال الصينيّين الذين جنّدهم لمساعدته، لجأ أودويرتس شمالاً، قرب آردلو، إلى بيت فسيح عند سفح الكثبان الرمليّـة وحوّله إلى مختبرٍ مؤقّت. كان يشتري النُّموس - وهذا ازداد صعوبة لأنّ مصادر اقتنائها بدأت تنضب - ويحقنها بالجراثيم للاحتفاظ بالميكروب الثمين، وزرْعه وعزْله في النهاية. حين يُصاب أحد مساعديه بالمرض، كان يأخذ عيّنات منه ويعاود الكرّة. انتهى الأمر بالمعاونين التعساء في مستشفى القرية. وكان الأكثر تعقّلاً بينهم يرحلون بعد أيّام قليلة ولكن هذا لم يحل دون إصابتهم.

ذهب إلى معسكر إيتابل. أراد أن يرى الرائد ويليامز ليحدّثه عن الفيروس الذي صادفاه معاً عام 1916 ولإطلاعه على التقدّم الذي أحرزَه منذ ذلك الحين. ربّما كان البريطانيّ يستطيع التدخّل لدى السلطات الفرنسيّـة ليقنعها بأهمّيّـة عمله. أصبحت رؤية ويليامز وتوضيح موقفه هاجساً لديه. للأسف كان الرّائد في إجازة في إنجلترا. وهكذا بقي الفلمنكيّ الذي حصل

على إذن بالمرور أسبوعاً في إيتابل منتظراً عودته. ليتَكم رأيتموه يتجوّل، متوتّراً وشبهَ أعور، بين ثكنات أكبر معسكرٍ طبيّ في الحرب، متبوعاً بمعاونٍ صينيّ متوعّك. التقيا جنوداً من كلّ دول الكومنولث، بهنودٍ وأفارقة جنوبيّين وأستراليّين ونيوزيلنديّين وكنديّين. كـان المشهد أطلساً حقيقيّاً، ما يسمح للفيروس بأن تنتشر عدواه بين كلّ الجيوش، ثمّ تنتقل من الجنود المسرّحين إلى سكّان بلادهم. ما كان أودويرتس يحفل بكلّ هذا حتّى أنّه لم يكن يفكّر في الأمر.

وأخيراً عدلَ عن مشروعه وغادر إيتابل عائداً إلى آردلو. وبما أنّ جميع معاونيه الصينيّين كانوا مرضى، قام بتوظيف جنودٍ إقليميّين من الهندِ الصينية كانوا يتحدّثون الفرنسيّـة أفضل قليلاً. ومع ذلك، لم يتمكّن أودويرتس من عزل الفيروس. في يوليو فُقِدَ أثَره. ثمّ شوهد في بولونيا، وبريست، وبوردو. وإذ سئمَ من النُّموس ذهب باحثاً عن متطوّعين من البشر واثقاً من قدرته على تغيير وجه الحرب. قام ببعض المحاولات لإجراء تجارب على السّجناء الألمان وأُبعِدَ دون مراعاة. في المرافئ وجد الأشخاص الذين يحتاجهم بين عشير البحّارة الذين يحاولون في جميع الأوقات العثور على أيّ عمل يعتاشون منه مهما يكن وضيعاً أو مشبوهاً. ولكن بالرغم من كلّ جهوده لم تفضِ أبحاثه إلى شيء ذي بال. وفي غضون ذلك، اصطحبت المراكبُ البحّارةَ الذين نقل إليهم العدوى وتفشّى المرض بين الركّاب المنتشرين حول العالم، وفي المحيطات لقيت سفن كثيرة مصيراً مشابهاً لسفينة «لوميراكل».

حُرّرَت لان في 13 ديسمبر 1918. كانت ليلي قد تطوّعت ممرّضةً في الصّليب الأحمر فوجدَت نفسها في جنوب نوايون، في مستشفى ميدانيّ. كانت تنتظر خبر تحريرها منذ أسابيع. بعد أن غادرت المختبر وصلت منهكة لا تكاد تستطيع الوقوف إلى مستشفى شانتيي حيث قُبلَت على الفور. طيلة عشرة أيّام بقيَت مستلقيَة في سريرها نائمةً معظم الوقت، تأكل قليلاً، وكانت شديدة الاكتئاب لا سيّما وأنّها كانت تستيقظ من النّوم لترى أمامها ويلات الإنفلونزا الإسبانيّـة. في القاعة المشتركة كان المرضى يسعلون إلى حدّ يبعث على الشّفقة. وكان المحتضرون كثيرين لدرجةِ أنّ الكاهن الذي جاء ليعطيهم المسحة الأخيرة لم يستطع أن يكرّس لكلّ واحد منهم سوى بضع دقائق.

خلال تلك الأيّام، تسنّى لها الوقت لإعادة ربط سلسلة الأحداث الجهنمية التي قادَت إلى الكارثة، هذا السّباق المخيف للفيروس الذي أعطاه زخمه الحاسم. في البداية، كان بضعة رجال مثل هنري على اتّصالٍ بجرثوم الإنفلونزا القاتلة، وسرعان ما لقوا حتفهم دون أن يكون لديهم الوقت لنقل العدوى إلى الكثيرين. ظلّ الفيروس محصوراً في نطاق الغابة وفي عددٍ قليلٍ من الأماكن الحضرية النادرة. ثمّ بسبب الحرب، ازداد عدد التنقّلات، ونشر الجنود المصابون في معسكر إيتابل الفيروس. بدأ تطوّر المرض دون وجهة، عشوائيّاً، لأنّ الفيروس ليس كائناً ذكيّاً، وإذا كان الانتشار في صلب طبيعته فمن البديهيّ أنّه لا يملك استراتيجيّـة لذلك. حين ازدادت حركة التنقّل بين أوروبا وأميركا وآسيا وأفريقيا توفّي عدد كبير من الناس من جرّاء الإنفلونزا،

لكن لم يميّزهم أحد عن سائر المرضى. حتّى ركّاب سفينة «لوميراكل» بدوا مصابين بالالتهاب الرئويّ. لم يفهم أحد، باستثناء أودويرتس وقلّة آخرين، أنّه كان جرثوماً من صنفٍ جديد.

وتسارعَ كلّ شيءٍ حين سمحَت ليلي للفلمنكيّ بالاحتفاظ بالفيروس. هنا كانت غلطتها، غلطتها التي لا تغتفر! أصبح وادي التَّيف بؤرةَ وباءٍ كان ينتشر إلى دوائر تتّسع باطّراد. وبسبب أعمالهم في المختبر، سافر الوباء في جميع الاتّجاهات، منطلقاً من مركز إشعاعه هذا ليرسل نتانته وسمومه باستمرار.

كانت ليلي ترى أنّ الأسوأ لم يأتِ بعد. لم تكن تعرف إنْ كان يجب عليها أن تصلّي لتتوقّف الحرب أو لكي تستمرّ لأنّ تسريح الجنود الوافدين من كلّ القارات كان من شأنه أن يحوّل المرض إلى كارثة عالميّـة. وكانت هي بالذات مَن تسبّب بهذه الكارثة! كانت تقضم أصابعها ندماً وتعضّ قبضتها حتّى يسيل الدم منها وتتقلّب في السرير غيظاً ضاربةً الفراش بقدميها وكأنّها تريد أن توجّه ركلات للقدر المشؤوم. كان مستحيلاً أن تلوم نفسها أكثر ممّا فعلت. على الأقلّ كان عليها إنقاذ أرمان، والذّهاب للبحث عنه في لان واصطحابه بعيداً عن الوباء. ولكن إلى أين؟ هل من مكان آمن؟

ذات صباح، أخبرتها المرأة التي كانت تشغل السّرير المجاور بأنّ الجيوش الألمانيّـة تتراجع. كانت ليلي قد سمعت هذا الخبر لأربع سنوات خلت عشرات المرّات، لذا استدارت لتعود إلى النوم، لكنّ جارتها أصرّت على الأمر متحدّثةً عن النّصر في أميان وعن هزيمة الألمان. بدت مطّلعة على الأوضاع كما يجب. عادت ليلي تمنّي النفس بلقاء أرمان. واستعادت طاقتها تدريجيّاً. حين تأكَّدَ انسحاب الجرمانيّين، تطوّعَت لمعالجة المقاتلين في البيكاردي.

حُرِّرت لان ولكن كان عليها الانتظار أسبوعين آخرين كيما تحصل على إذن بالذهاب إلى المدينة العليا.

غادرَت في سيّارة إسعاف برفقة اثنين من الجرّاحين الذين يرتادون الجبهات، وكانا في غاية السرور لأنهما برفقة امرأة مع أنّهما شعرا بقليلٍ من الانزعاج. ما عادا يعرفان كثيراً كيفيّـة التصرّف مع السيّدات، وخصوصاً مع فتاة بمثل هذا الجمال. مرّوا عبر طريقٍ تصطفّ على جانبيها جذوع أشجار بعلوّ قامة الإنسان، محطّمة وممزّقـة إرباً. فـي البعيـد، كانت حقول القمح والشّمندر المهجورة مليئةً بالفجوات التي أحدثتها القذائف وبمياهٍ موحلة. في القرى كانت المنازل بواجهاتها المقتلعة تعرض خزائن مبقورة وأثاثاً حائل اللّون وسط كِسَر الزجاج المحطّم والقرميد المتصدّع وشظايا الألواح الخشبيّـة المكسورة. وحين اجتازوا تيرنييه، لم تصدّق ليلي ما رأته عيناها. بين الأنقاض المتداعية كانت تمرّ قطط هزيلة شرسة وأيضاً جراذين بحجمها. توقّفوا لحظة أمام ما تبقّى من المحطّة: كانت ثلاث لافتاتٍ تحمل اسم القرية ملتوية بين الأنقاض التي تفترش الأرصفة.

تركت الطبيبين الخجولَين على بعد كيلومترات من بريمونتريه حيث قرّرا التوقّف. الطّرقات لم تعد سالكة. في الغابة متاهة من الأشجار المحطّمة. لم تجد صعوبة في تخيّل الصفوف الكثيفة للجنود الذين تخبّطوا على غير هدى تحت إمرَة ضبّاطٍ تائهين مثلهم. بقي شيء من يأسهم عالقاً بالأغصان العارية.

في بريمونتريه رأت بيتها. لا يزال كما تركتْه. سارت على طريقه مسرعة. كان أرمان في انتظارها.

دمّر الألمان نصف لان السّفلى. لم ترَ ليلي شيئاً من ذلك. كانت وكأنّها تسير على غيمة في تلك اللّحظة اللّذيذة التي ينتهي فيها انتظار طويل، في سكرة الخطوات الأخيرة قبل بلوغ القمّة. على حافّة حقلٍ مهجور، حفرته القذائف واجتاحه نبات القرّاص، رأت مبنى معزولاً. اقتربت منه وقلبها يخفق بسرعة.

كانت البوابة مغلقة بسلسلة وقفل ضخم كبير. وتعلوه كتابة شبه ممحوّة: مستشفى سانت ماري

دار للأيتام

كان المبنى مؤلّفاً من ثلاث طبقات وفي وسطه حديقة يمكن رؤيتها من ذرى الأشجار البازغة من خلف سطح القرميد الذي كساه الطحلب. فكّرت أنّ أرمان قضى شهوراً في هذا المكان المشؤوم فانفطر قلبها حزناً. قرعت الباب الثقيل عدّة مرّات راجية أن يُفتح لها، ولم يكن لذلك من أثر سوى بلبلة سرب من الغربان جاثم على السّطح وإثارة نبْحٍ في الجوار. دارت حول الجدران العالية الحجريّـة المشبّعة بالرّطوبة وطفقت تنادي. أجابتها كلاب في البعيد وصياح ديك تائه أخطأ في التوقيت. استدارت على عقبيها مغادرة باتّجاه المدينة العليا حيث كانت تأمل معرفة شيء عن مصير النّزلاء.

وجَدَت مقرّ القيادة الألمانيّ السابق في فوضى لا توصف. كانوا لا يزالون يُخلون التجهيزات الألمانيّـة. كان الجنود وبعض المدنيّين المرهقين يؤمّنون الخدمات الإداريّـة ولا يظهرون أيّ صبرٍ حيال الزوّار. حين شرحت لهم أنّها تبحث عن طفلٍ لم تره منذ سنوات، رفعوا أنظارهم استياءً، قائلين إنّ

هناك أموراً كثيرة أشدّ إلحاحاً وتستوجب الاهتمام بها! وعدوها بأن يفعلوا ما بوسعهم. تركت اسم أرمان على ورقة للموظّف الذي بدا واضحاً أنّه سيرميها في سلّة المهملات بمجرّد أن تدير ظهرها. ووجدت نفسها حائرة في ساحة مبنى البلديّـة. بدا لها الأمر مخالفاً للصواب. كان أرمان في مكان ما من المدينة، على مرمى حجر منها لكنّها عاجزة عن العثور عليه. قرّرت الذّهاب إلى مركز الشّرطة.

كان المفتّش الذي استقبلها خمسينيّاً، قصير القامة، أحمر البشرة، يدعى روسينيول. ولم يكن في أفضل حالاته. كان رئيسه المفوّض رينو يوبّخه منذ ساعتين أيّما توبيخ لأنّه طلب إجازة للذّهاب ومساعدة شقيقة زوجته، وهي مزارعة من كوسي، لا سيّما وأنّ زوجها كان مريضاً. مذ غادر الألمان أصبح المفوّض رينو أكثر عدوانية من جرذ سُرقت منه قطعة اللّحم. والسّبب أنّه كان لديه عمل من جديد وذاك أمر كان قد طواه النسيان. لم يعد بإمكانه أن يكرّس الكثير من الوقت لكلبه، وهو من فصيلة السّبنيليّ، ويعضّ الجميع، ولا لجلسات الرّسم في الرّيف. وُبّخ روسينيول بعنف. قال رينو غاضباً: «تطلب إجازة الآن. ألست معتوهاً بعض الشيء يا روسينيول! نحن بحاجة للجميع هنا!».

لمدّة أربع سنوات، كان متبطّلاً عن العمل ويكتفي بالذّهاب للقيام بتقارير عن لا شيء لمقرّ القيادة الألمانيّ. وها هو يرى برعبٍ سيلاً من المهامّ الجديدة يتدفّق على مكتبه. في ظلّ جوّ التفلّت والفوضى الذي أعقب رحيل الألمان، بدأ الأشرار ينْبتون مثل الفطر بعد أمطار الخريف. بعدما رفض رينو إعطاء المفتّش روسينيول إجازته خرج ليتنشّق بعض الهواء النقيّ. كلّ هذه الأعمال التي ظهرَت فجأة كانت تصيبه بالصّداع.

وهكذا حين أتت ليلي تشرح قضيّتها، لم يوارب روسينيول: «يا سيّدتي الصّغيرة...» قال متردّداً ثمّ استوى على كرسيّه خلف مكتبه مسارعاً إلى إخفاء زجاجة الخمر عن الطاولة. نسي لتوّه اسمها فاستدركت عليه القول: - روسو، ليلي روسّو يا سيدّي المفتّش... ابني يُدعى أرمان.

- حتّى وإن كان اسمه جورج أسوةً باسم كبيرنا جورج كليمنصو فلن أستطيع أن أساعدك أكثر... إنّ اليتامى من أمثاله...

قاطعته ليلي:

- ليس يتيماً، إنّه ابني.

- نعم... لنقل إنّ أطفالاً... متسكّعين...»

كاد يقول «لقطاء»، لكنّه وجد أنّ الكلمة غير لائقة بوجود والدته، عاين للحظة تأثير إجابته عليها فخوراً بأنّه وجد صفة مدهشة على هذه الشّاكلة.

- لا أعتقد أيضاً أنّه متسكّع. كان أحد نزلاء ملجأ سانت ماري.

- لا تقاطعيني طيلة الوقت! الملجأ الذي تخبرينني عنه أغلق وتشتّت النزلاء. أين؟ يا سلام! كيف تريدين أن أعرف؟ هذا ما كان ينقصنا: رعاية أطفال المدارس الداخليّـة الكاثوليكيّـة!

نهضت ليلي خائبة:

- أفهم قصدك سيدّي... ولكن من يمكنه أن يساعدني؟

كان لدى روسينيول قلب طيّب. كان في حضرة فتاة جميلة تعيسة وشعر برغبة في مواساتها. كان بإمكانه تقصّي المسألة قليلاً، وطلب معلومات من مُخبِريه الذين استأنفوا الخدمة. فكّر بذلك للحظة أمام برطمة ليلي الرائعة، ثمّ مثلت صورة مصيره التعس بالذّات أمامه. لم يؤذَن له حتّى بالذّهاب لمساعدة شقيقة زوجته. أيّ عالَم هذا! هو أيضاً كان يعاني، مكبّلاً بوظيفته، ولشدّة كدّه يقطر العرق من جبينه وبزّته! قرّر أن يترك ليلي تتدبّر أمرها بنفسها. قال وهو ينهض، إشارةً منه بأنّ المقابلة قد انتهت: «سيّدتي المحترمة، هذه ليست قضيّـة الشّرطة... أتمنّى لك حظّاً موفّقاً». رآها تتردّد حائرة. لو كانت الأزمنة مختلفة لكان استسلم لاستعطافها له. ولكنّه في هذه الآونة بلغ من الضّيق حدّاً لا يمكنه معه أن يضعف. بينما كان يُشاهدها تغادر، فكّر أنّ وجه هذه المرأة لم يكن يعني له شيئاً لكنّه سمع باسمها من قبل. أخذ ملفّاً وهو يتنهّد، وكأساً من الخمر لرفع معنويّاته ثمّ استغرق في قراءة مَحاضِره.

بعد مضيّ ربع ساعة على انصراف ليلي عاد رينو غاضباً. كان العمدة ومعاونوه يجولون في شوارع المدينة. ولم يكن من اللّائق أن يتنزّه خليّ البال. قرّر أن يتريّث في مكتبه ثمّ يذهب لاصطحاب كلبه لتناول طعام الغداء.

- ماذا يا روسينيول، أما من جديد؟

- لا جديد يا سيّدي المفوّض. آه تذكّرتُ! جاءت سيّدة تدعى ليلي روسّو تبحث عن ابنها الذي كان نزيلاً في ملجأ سانت ماري... شرحتُ لها بلطفٍ شديدٍ أنّنا لسنا مكتب المفقودين.

- حسناً فعلتَ... ليلي روسو؟....

- هذا اسمها.

أمسك رينو ذقنه بيده اليسرى ونظرته تهيم في الفراغ. اتّجه إلى الخزانة التي يُحتفظ فيها بملفّات ما قبل الحرب. تمتم وهو ينظر إلى أوراق في مجلّد من الورق الورديّ المقوّى: «ليلي روسّو». ثمّ عادَ إلى روسينيول قائلاً:

- هل تذكر المِيتة المشبوهة لتيودور لوفران، ذاك الممسوس الذي كان يُسمّي نفسه باسم ليزيار دو كريسي؟

- ذاك العجوز الغريب الأطوار؟ كان لديه مال أكثر من العقل! وتلك قضيّـة لم تنجلِ بعد...

قال له رينو وهو يناوله بطاقة:

- انظر! ليلي روسّو تلك إذا لم تكن المذنبة فعلى الأقلّ هي شاهدة مباشرة على الجريمة.

عندما نظر روسينيول إلى هيئة المفوّض وهو يضع الملفّ على الطاولة شعر بأنّ جاك السفّاح [122] أفلت من قبضته. قرأ الملاحظات المدوّنة بخطّ جميل بالحبر الأزرق وأعاد قراءتها، كانت تنوّه باسم ليلي روسّو فعلاً. حين رفع رأسه منزعجاً سأله في النّهاية: «هل تعتقد أنّه يجب علينا سجنها! القضيّـة قديمة! ثمّ إذا أخذنا بعين الاعتبار كلّ المهامّ التي علينا القيام بها في مثل هذه الظروف!».

أخذ رينو نفَساً عميقاً وهي إشارة سيّئة لدى شخصٍ محبّ للملذّات مثله، وأحد أتباع المسار البطيء والرتيب للأمور. «لدينا الكثير من المهامّ لدرجة أنّك كنت تريد أن تأخذ إجازة!... أنت ممثّل الشّرطة الفرنسيّـة روسينيول، لا تنسَ، هذه الشرطة التي يجب أن تثبت من جديد صرامتها وتمارس سلطتها بعد أربع سنوات أليمة».

حين كان رينو يتكلّم على هذا النّحو، يخاله السّامع أنّه مفوّض الشرطة الأكثر تفانياً الذي أنجبته الأمّة الفرنسيّـة على الإطلاق. كاد المفتّش يتأهّب لولا أنّه تذكّر أنّه يتعامل مع «الأب بلوفيوز» [123] وكانت المدينة كلّها تسخر منه. استرخى. ليس كثيراً على أيّ حال. كان رينو هو الرّئيس ويجب أخذ ذلك بعين الاعتبار خصوصاً حين كان يقترب هكذا من روسينيول، الذي كان هو يعلو قامته بشبرٍ، ليحدجه بنظرة سلطوية تعزّزها هيبة شاربَيه. قال المفوّض بصوتٍ متوتّر: «أعِدها لي، حان الوقت لنُظهر للناس أنّنا هنا وأنّنا نحميهم».

نزلت ليلي من التلّة من جديد بخطى سريعة لتعود إلى ملجأ سانت ماري. لا أحد كان يستطيع مساعدتها. ليس الأمر خطيراً. لم تكن لان كبيرة وكانت متأكّدة من العثور على أرمان. قرّرت البحث عنه بدءاً من المنطقة المجاورة للمبنى.

على مسافة أربعمائة متر من الملجأ توقّفت وقد أصابها دوار. لم تأكل شيئاً منذ الأمس واقتصرت وجبتها الأخيرة على علبة من لحم العجل المعلّب المطحون الذي يجعلك تشعر بالغثيان ولا يقيتك. أغمضت عينيها لتأخذ نفساً عميقاً. حين رفعت رأسَها، رأت امرأة عجوزاً ترتدي ثياباً سوداء وتقف عند عتبة الباب. اقتربت مرغِمة نفسها على الابتسام، وانتظرَت أن تُدخل الكلب الذي بدأ بالنباح لتسألها إنْ كانت تعرف شيئاً عمّا حدث في ملجأ سانت ماري. أخبرتها العجوز أنّ الجميع أُجْلوا بسبب القصف ولم يبقَ إلّا هي. ففي عمرها لم يكن لديها الكثير لتخسره.

أفصحت لها ليلي عن رغبتها في معرفة ما حدث لابنها الذي كان نزيلاً في الملجأ. كانت المرأة العجوز تجهل المكان الذي نُقل إليه الأطفال، ولكنّهم سلّموها مفاتيح المبنى، وإن شاءت ليلي أن تجرّب حظّها فبإمكانها تفقّد المبنى من الداخل علّها تجد دليلاً رغم اعتقادها أنْ ليس هناك ملفّات أو سجلّات لأنّ الألمان بلا شكّ أحرقوا كلّ شيء قبل رحيلهم.

دار المفتاح بسهولة في القفل. فكّت ليلي السلسلة. أحدث الباب صريراً خفيفاً لدى دخولها في الممرّ الضيّق المكشوف الذي يفصل الجدار الخارجيّ عن المبنى نفسه. أخذت المرأة العجوز مفتاحاً آخر من مجموعة المفاتيح وفتحت الباب الخشبيّ المدهون بالأزرق الداكن الذي يطلّ على الداخل.

في الغرف الفارغة كانت تطفو رائحة الأماكن المغلقة والخشب المحترق. أمّا ربّات المكان فكانت هي الفئران التي تعجّ في الزّوايا وتقفز على ألواح الأرضيّـة المغبّرة. دخلت ليلي إلى غرفة مربّعة حيث بقيت بعض الصور الدينيّـة معلّقة على الجدران. بين الألواح الخشبيّـة التي تحجب النافذة العالية في الخلف، انسلّ ضوء رماديّ. همسَت المرأة العجوز: «إنّه مكتب المديرة» وكأنّها كانت تخشى أن يسمعها أحد. «اعتقدتُ أنّ بعض السجلّات والأوراق القديمة تركت هنا...» نظرتْ إلى الرفوف الفارغة لمكتبة نُحتَت في الجدار. «لم يتركوا شيئاً».

توقّفت ليلي عند أسفل الدّرج الذي يؤدّي إلى الغرف. لدى رؤية حالة الطابق الأرضيّ، شعرت أنّه لا أمل لها في العثور على دليل يتعلّق بأرمان هناك في الأعلى. كلّ شيء مُحِيَ عن آخِره. استدارت معْرضة عن الصعود ونظرَت إلى المرأة التي بدت مثلها خائبة.

في آخر القاعة الكبيرة باب بألواح زجاجيّـة نصف شفّافة مطلّ على الخارج. خفضت ليلي المقبض، لم يكن مقفلاً. خرجتا إلى الدير المتروك للأعشاب والقرّاص. كان هناك قذيفة لم تنفجر عالقة في الحصى تحت جنينة من شجيرات الورد.

همست ليلي وهي تراقب القناطر المكسوّة باللّبلاب قائلة: «كلّ هذا لن يفيد بشيء».

اقتربت المرأة العجوز، أحدثت مجموعة المفاتيح التي كانت تمسكها رنيناً خافتاً. اقتفت أثر ليلي لدى سلوكها ممرّاً جانبيّاً يفضي إلى رواق. بعد السّير في ممرّ طويل وصلت إلى بقعة مكشوفة. بين الأعشاب العالية بانت أضرحة إسمنتيّـة مطروحة على الأرض.

قالت العجوز: «هنا مدفن الملجأ... هل رأيت كلّ شيء يا سيّدتي؟ أعتقد أنّنا لن نجد أيّ أثر لابنك في هذه الدّار».

التفتت ليلي لتنظرَ إليها. كانت تجاعيد دقيقة متّحدة المركز ترتسم على وجه المرأة. لاحظت أنّها كانت تبتسم تعبيراً عن تعاطفها وأسفها لاصطحابها إلى هذه الرحلة الاستكشافية غير المجديَة. «علينا الذّهاب يا سيّدتي. بدأت السّماء تمطر».

كانت معظم المدافن مهجورة والكتابات عليها نصف ممحوّة. في زاوية منعزلة، تحت شجرة الزيزفون، رأت ليلي عشرات الصّلبان البيضاء الصغيرة الجديدة والمتلاصقة؛ إنّه الترتيب التقليديّ لمقبرة جماعيّـة. صعد الدم إلى وجهها. كان الضّريح حديثا جدّاً على الأرجح. حين اقتربت، بدأ المطر ينزل بغزارةٍ ويسيل في قنواتٍ متسارعة على طول الصّلبان المزروعة في التراب الأصفر المقلوب حديثاً. قرأت بسرعةٍ الأسماء المكتوبة على اللّوحة المعدنيّـة الصّغيرة المثبّتة على كلّ صليب. كانت اللّوحة الرابعة التي تهجّتْها:

أرمان روسو

1912-1918

ربّما كان الكاتب ألمانيّاً لأنّه لم يكن متآلفاً مع كتابة الأسماء الفرنسيّـة، لا يهمّ. باتت ليلي على يقين. كان أرمان هناك تحت التراب ولن تراه ثانية أبداً. وفيما كانت تمطر بغزارة متزايدة، شعرت بوجود المرأة العجوز إلى جانبها. قالت بصوتٍ خافت:

- إنّه هو!

- الطّفل الذي كنتِ تبحثين عنه؟ ... يا ويلاه! آسفة يا سيّدتي...

هزّت ليلي رأسها لتبعدَ حبّات المطر المنهالة على وجهها. سألت بصوتٍ مخنوق:

- هل توفّي كلّ هؤلاء الأطفال في الوقت نفسه؟

- أجل سيّدتي، منذ أكثر من شهر تقريباً، بالضبط قبل جلاء الألمان.

- وما السّبب؟

كانت لا تزال تأمل أن يكون الجواب «بسبب القصف» أو «الحريق»، أو أيّ كارثة من تلك الكوارث الجمّة التي تحدثها الحرب والتي يمكنها أن تنظر إليها في مرآة المحتوم، إحدى هذه الحوادث التي تنزلها بنا الأقدار وتتعذّر سيطرتنا عليها. في أعماق نفسها كانت تتهيّب من الجواب الذي دوّى كضربة قاضيَة: «الإنفلونزا الإسبانيّـة يا سيّدتي».

وفي لحظةٍ واحدة، أصبح كلّ شيءٍ مشوّشاً ولم يعد بإمكان ليلي أن تفقه معنى أيّ شيء. انفطر قلبها حزناً، كلّ هذا كان يتجاوز قدرتها على الاحتمال. لم تبكِ لكنّ الصّرخة التي خرجت منها كانت مفجعة. سنَدَتها المرأة للخروج من الملجأ. مرتجفة، لاهثة الأنفاس، رأت شرطيّين يأتيان لملاقاتها على الطّريق. أُوكِل إليهما إحضارها إلى مركز الشّرطة. لم يسبق لهما أن اصطحبا سجيناً مطيعاً بهذا الشّكل. تبعتهما دون أن تنبس بكلمة، واجفة قليلاً تحت المطر النازل.

حين سألها المفوّض عن هويّتها بقيت خرساء، عيناها تحدّقان إلى الشرطيّ دون أن يبدو عليها أنّها فهمتْ. كانت ليلي روسّو فاقدة الرّوح، محطّمة، كانت امرأة أخرى، ترغب في الاختفاء والنسيان والهرب من الشّعور

الذي لا يُطاق بأنّها مسؤولة عمّا حدث في هذه المدينة حيث كان أرمان ينتظرها يائساً.

كان الوقت قد تأخّر. شعر رينو أنّه عمل بجدّ بما فيه الكفاية. أودِعت ليلي في زنزانة حيث أمضت اللّيل جالسة على سريرٍ معدنيّ صغير تتأمّل الجدار المتعفّن بنظرةٍ شاخصة إلى الغياب فحسب.

كان الدكتور أمبرتو يعتقد أنّه في تلك اللّحظة بالذات فقدت ليلي عقلها. حين اكتشفت أنّ الابن الذي كانت تأمل رؤيته لمدّة عامَين مات وحيداً متروكاً في أراضي العدوّ. قالت له خلال أوّل جلسة تنويم مغنطيسيّ: «أن تموت قبل طفلك يعني أن تموت بعد فوات الأوان». في السّجن، في تلك اللّيلة تسنّى لها الوقت لتقدّر مدى إسهامها في هذا الموت. عاد إليها كلّ عنف الحرب ليصفعها في وجهها. كانت تكره الألمان الذين احتجزوا ابنها، وتكره كاتييز الذي هرّبها تاركةً أرمان لمصيره وتكره أودويرتس الذي استغلّ حدسها لنشر المرض القاتل. ثمّة مشهد لم تكن تجد صعوبة في تخيّله ويعاودها كهاجس: كانت ترى ريمون فاكيت وقد أصيب بالفيروس خلال لقائهما في المختبر، يسلّم الرّسالة لأرمان ناقلاً إليه المرض بدوره. وأكثر من أيّ شيء، كانت تكره تلك التي جعلت هذه الكارثة ممكنة: هي نفسها. كان أمبرتو بصفته طبيباً نفسيّاً يتحدّث عن شعور بالذنب مرَضيّ، عن شعورٍ متفاقمٍ بالمسؤوليّـة، ويستخدم تعابير عالِمٍ منفصلٍ عمّا يحـدث. كانت ليلي تتعذّب من جرّاء يقين تعجز عن مواجهته دون أن تؤذي نفسها، كاليد التي تنغلق على نصل خنجرٍ ولا تني تنزف. ابنها الذي تخلّت عنه قُتل بجرثومة شاركت هي بالتأكيد في انتشارها في كلّ مكان. لم يكن بوسعِ أيّ قوّةٍ في العالم أن توقف دوّامة المآسي هذه.

وابتداءً من تلك اللّحظة، عاشت كالسّائر في نومه. تلاشى الوقت والعالم. كانت تمضي أيّامها يتناوبها الاكتئاب والغيظ دون أن يكون لديها فكرة دقيقة عن التسلسل الزّمنيّ، وتشعر أنّها تقترب من شكل من أشكال الأبديّـة

ينتمي إلى نسق الجرح، والنَّدبة التي لا تندمل، وكانت تحاول تفادي هذا الشعور قدر استطاعتها. وفي أحيان خاطفة كان وضوح البصيرة يعود إليها فتتساءل عن الأحداث التي أوصلتها إلى هناك. كيف استطاعت أن تتخلّى عن ابنها؟ لماذا كان لديها هذه الثقة العمياء بتيو أودويرتس؟ لم يكن لديها أيّ جواب، ما زاد في عذابها لا سيّما لدى معاينتها المآسي التي تسبّب بها الفيروس وكانت قدّمته هديّـة، إذا جاز القول، للفلمنكيّ. من زنزانتها كانت تستمع إلى رجال الشرطة يتهامسون عن تقارير العملاء المتعلّقة بأحوال السكّان. تلك السيّدة التي كانت جالسة على شرفتها المطلّة على الممرّ المؤدّي إلى المقبرة وقد أحصت خمساً وعشرين جنازة في غضون ثلاث ساعات. أولئك المسعِفون الذين كانوا يشتكون لعثورهم على أعداد متزايدة من الناس المتوفَّين في منازلهم وحيدين لأنّ عائلاتهم هربت بعدما طلبت الإغاثة. ساعي البريد ذاك الذي عُثر عليه على مسافة 50 كيلومتراً من مدينة لييس مصاباً بالإنفلونزا في مراحلها الأخيرة وكان عاجزاً عن التذكّر كيف وصل إلى هناك. تلك السيّدة العجوز التي رُفعت شكوى ضدّها لأنّها بصقت على تمثال القدّيس يوسف في كنيسة شوني لأنّه لم يُصغِ إلى صلاتها وترك زوجها يموت. لم تكن هذه التقارير لتنتهي.

احتُجزت لمدّة أسبوع في السّجن. كانت الاستجوابات رتيبة. وبقيت معاندة في صمتها: عبثاً حاول روسينيول الوعيد والصّراخ ومضاعفة التهديدات، إلّا أنّ أيّ جواب لم يصدر عنها. كان لديه الشّعور أحياناً أنّها لا تسمعه. في اللّيل، كان رجال الشرطة يسمعونها تنتحب في زنزانتها، وكان واضحاً أنّها تتعذّب لكنّ هذا كلّ ما يعرفونه. لم تحدّثهم عن أيّ شيء ولا حتّى عن موت ابنها. قرّر رينو عدم الاستمرار في تكبّد هذا العناء غير المجدي، وأمر

المفتّش بأن يفرج عنها. لفت روسينيول نظره إلى أنّها لم تكن في حالة طبيعيّـة وأنها مكتئبة إلى حدّ مقلق. هزّ المفوّض كتفيه: «هناك الكثير من الأشخاص المعتوهين في الخارج ويسرحون بكلّ حريّـة، أن تنقص مجنونة أو تزيد فإنّ الأمر لن يؤثّر...».

لم يكن لدى ليلي أيّ مكان تذهب إليه، فعادت إلى المنزل في بريمونتريه. أمضت فيه بضعة أسابيع تقتات من المؤن التي تركها الألمان. في النهار كانت تُشاهَد وهي تتجوّل في شوارع لان، هائمة النظرات، متجنّبة التحدّث مع أيّ شخص، مارّةً دون أن تنظر إلى شيء ومع ذلك لم تكن أضرار الإنفلونزا تخفى عليها: المحلّات المقفلة بسبب الموظّفين المرضى، بائعو الأزهار المجبرون على إعداد الأكاليل الجنائزيّة بأقصى سرعة، قوائم الانتظار عند الصيادلة، النقص في التوابيت، والموتى الذين يوارون الثرى في عزّ اللّيل لأنّ النهارات لم تعد كافية لدفنهم.

وكما في الماضي، عندما كانت تزور أودويرتس، كانت البيوت والشّوارع والمدينة من حولها تتلاشى في ضباب من الأبخرة القذرة. كانت المياه موحلة، والطريق تعجّ بالحشرات غير المرئيّة وأرجاء المنازل تطفح بالجراثيم، وأسراب الكائنات الخفيّة تغزو الجميع، تعيش على الجلد وفي اللّعاب والدم، ووسط كلّ هذه الأحياء الدقيقة التي تبسط مملكتها بلا مهادنة، يسري الأخطر بينها، ذاك الفيروس الذي كانت السّبب في تفشّيه، وينجز في كلّ مكان عمله المدمّر. يقال إنّ هناك أناساً يحسبون أنّ الصّراع ضدّ الشّيطان لن ينتهي إلّا بنهاية الأرض، وأنّ المعركة ستكون بلا نهاية! هذا صحيح، ولكن لم يكن هناك من شيطان، بل فقط عالم مظلمٌ وكليّ الحضور لا ينبغي الاقتراب منه تحت أيّ ذريعة، فالجحيم يبدأ عند جزء من المليون من المليمتر.

ذات صباح، استيقظت من النعاس الخانع الذي كانت غارقة فيه على وقع انفجارات وصوت أجراس تصدح دون توقّف. خرجت مسرعةً من المنزل.

كان اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر. على بعد كيلومترات قليلة وُقِّعَت الهدنة. بالنسبة إليها، لم تعزف أيّ جوقة نشيد المارسيلييز، ولم يسرْ أيّ موكب ابتهاجاً بالنصر حتّى الثمالة، ولا خفقَ عَلَمٌ في ريح بلدٍ محرَّر. كانت تعرف أنّ المنتصر الحقيقيّ لم يكن ينتمي لأيّ أمة وأنّه يفيد من الابتهاج العامّ لينشر جيوشه التي لا عديد لها. كانت الأجراس التي تصدح في الصّباح تحجب ناقوس الموت فحسب. وإذا كان شمل العائلات قد التمّ من جديد فذلك لتنتقل العدوى بين أفرادها انتقالاً أفضل. أخذ الكثير من الناس يتحدّثون عن عصر جديد لم يكن في الواقع إلّا حقبة جديدة يفتك فيها الفيروس بالنّاس أكثر ممّا فعلت أيّ حرب.

في النروج، في بورشغرن، كانت أنغريد في الرابعة عشرة من عمرها وتستعدّ لتأكيد تثبيتها [124]. ارتدت بكلّ فخر فستاناً قطنيّاً أبيض يليق بها أكثر من كلّ تلك التي ارتدتها من قبل. اقتربت من المذبح وانحنت أمام الكاهن اللّوثريّ. رفع يده ليباركها ملتمساً الروح القدس فسال دم أسود مثل الحبر من أنف الصبيّـة ورسم خطوطاً طويلة على الثّوب الناصع البياض. تصاعدت همهمة انزعاج من صفوف المؤمنين فيما انفجرت الفتاة بالبكاء ونُقلت شبه فاقدة الوعي إلى المَوهف. في نفق كروزيرو في ريو دوجانيرو، سأل رجلٌ طالباً في الطبّ يدعى جيرالدو هل كانت تلك محطّة الترام الذاهب إلى برايا فيرميليا. فأكّد له الشابّ ذلك. «شكراً جزيلاً» أجاب الرّجل ثمّ انهار على الرّصيف ميتاً. رسَت سفينة قادمة من سيراليون في ميناء كاب تاون في جنوب أفريقيا وعلى متنها تسعون شخصاً أودت بهم الإنفلونزا الإسبانية، فيما سُمِح لألف راكب آخر بالنزول من السّفينة بهدوء. بعد بضعة أيّام، في شارع أديرلي ستريت الرئيسي توقّف رجال ونساء فجأة عن السّير كما لو طُعنوا

بخنجر ثمّ سقطوا ببطء على الرّصيف محاولين عبثاً التشبّث بسارية أو بعمود إنارة. في باريس، وبعد يومٍ من الرعاية الطبيّـة بين غابة بولونيا ومونمارتر، ارتمى الطبيب بيير على كنبته وقام بإحصاء عدد الزّيارات التي تلقّاها: مائتا زيارة في اثنتي عشرة ساعة، مخصِّصاً بالضبط ثلاث دقائق لكلّ مريض. بطبيعة الحال. كان التشخيص سهلاً! أمّا العلاج فمجهول. في كندا، رافق روبير، وهو موظّف في «سكّة حديد الباسيفيك»، قافلة من الجنود العائدين من كيبيك إلى فانكوفر. عند كلّ محطّة: كوشران، ريجينا، فينيبَغ، كالفاري، وجبَ فصل مقطورة أصيب ركّابها بالمرض واستلزم وضعهم في حجرٍ صحيّ. وحين وصل القطار بالقرب من فانكوفر لم يتبقّ منه إلّا ثلاث مقطورات. ثمّ أُبلغ أنّ القافلة ستتوجّه إلى تحويلة جانبية ولن يُسمح لأحدٍ بالخروج من القطار. وبما أنّه لم يكن يريد أن يُحتجَز، تسلّل خفية عند توقّف القطار وصعد قطاراً يسير في الاتجاه المعاكس ليجد بعد اثنتي عشرة ساعة في كيبيك أنّ الجميع كانوا مرضى في الشرق كما في الغرب. في ميلانو، أخذ بينيتو، وهو رجل ينفر من الاتصال البشريّ، يعلن متباهياً في جريدته التافهة «إيل بوبولو ديتاليا» أنّه يجب منع الناس عن المصافحة للحدّ من الإنفلونزا. على أيّ حال، إنّ موسوليني هذا سيفرض لاحقاً تحيّـة تستبعد كل اتّصال، ولكن حتّى ذلك الحين، مدينة وحيدة في العالم فقط أقرّت مثل هذا القانون، وهي بريسكوت في أريزونا، لكنّ هذا لم يمنع سقوط الإيطاليّين مثل الذّباب.

على الأقلّ لنفكّر في تسمية ما لا قدرة لنا على التحكّم فيه. وهكذا ازدهرت الأسماء من الشمال إلى الجنوب: في الولايات المتحدة أطلقوا على الوباء اسم «السيّدة الإسبانيّـة»، وفـي كوبـا والفيليبين سمّوه «ترانكازو» أي ضربـة العصا، أمّا المجريّون فسمّوه «السّوط الأسود»، والسويسريّون

«المغْناج»، والتايلانديّون تحدّثوا عن «كابي وات كاي» أي الحمّى العظيمة، والرّوس عن إسبانكا، أي السيّدة الإسبانيّـة، والبولنديّون عن «المرض البولشفيّ»، والفرنسيّون لم يتورّعوا عن وصفه بـ«الطاعون الرئويّ». في سيلان، جعلوا له اسم «حمّى بومباي»، وفي بيتانغ «حمّى سنغافورة». أمّا الأرجنتينيّون فاكتفوا بتسميته «الإنفلونزا الإسبانيّـة»، وبالتالي حظَروا طبخة البايلا.

في ما يخصّ الأرقام؟ أحصي مليون مصاب في جاوة، ومائتان وخمسون ألف وفاة في البنجاب وألف ومائتا وفاة يوميّاً في برشلونة. أين يتوقّف العدّ المشؤوم؟ وعمَّ يمكنه أن يعبّر؟ حين نموت نتوقّف عن العدّ. ومع ذلك. في يومٍ واحدٍ صافح شخص مصابٌ ما معدّله عشرة أشخاص أو كان على اتّصال وثيق بهم، وكلّ واحدٍ من أولئك التقى عشرة آخرين في اليوم التالي وفي غضون أسبوع أصيب أكثر من مليون شخص. كان يكفي أن يستمرّ الوباء على هذا المعدّل لبضعة أشهر فتختفي الحضارة الإنسانيّـة عن وجه الأرض. لطالما تصوّرت ليلي نهاية العالم انهياراً، دماراً عظيماً يترك خلفه أنقاضاً هائلة. لكنّها أدركت أنّ سبب هذا الدّمار يمكنه أن يكون أكثر تخفّياً من ذلك بكثير: جرثوم من الصّغر بحيث يدقّ عن النظر، شيء متناهٍ في الصّغر.

في اللّيلة التي أعقبت الهدنة، حلمت بأنّها تسمع أغنية والدتها، والموسيقى تنبعث بذاك الجمال الذي يحمل وعداً بملاذٍ منيعٍ بمنأى عن الشقاء. يكفي لذلك الاستماع إلى الألحان مراراً وتكراراً والاستسلام لها. وما لبثت أن استفاقت في الغرفة الرّطبة فاختفت الأغنية وكأنّ ريحاً جامحة بدّدتها. في الضوء المكفهرّ خطر لليلي أنّ والدتها توفّيت دون أن تتمكّن من حمايتها لكنّها كانت أسوأ حالاً منها بكثير لأنّها كانت السبب في نشرها لمرَضٍ

أدّى إلى وفاة ابنها بالذات. لم تستطع العودة إلى النوم. ارتدت ثيابها وذهبت إلى الغابة.

كانت شمسٌ باردة تضيء الغابات والندى يتلألأ على أوراق السّرخس وسيقانه، وحبيباته اللّامعة متشبّثة بلحاء الجذوع. ارتفعت من كلّ صوب أغاني الطّيور، وخشخشة الأيائل الكبيرة الغادية إلى قلب الغابة، وصريف الحشرات الأخيرة التي تكافح البرد القارس، وحفيف الرّيح الشّرقيّـة في الأغصان. كان كلّ شيء على ما يرام إلّا عالم البشر، وفيه يصرّ أحدهم على نشر الشّقاء أينما يحلّ. إنّه صانع الرّعب الذي كان يجب أن تردعه منذ زمنٍ طويل، وذاك أسهل قرار يمكنها اتّخاذه.

لدى عودتها إلى المنزل، فتّشت عن خنجر الصّيد الذي خبّأته أورور منذ زمن طويل في عمق المستودع. اكتسى النّصل ببعض الصدأ، تفحصَت حدّته بطرف سبّابتها ثمّ لفّته بقطعة قماش ووضعته في حقيبتها الصّغيرة مع بعض الأشياء الأخرى، ثمّ غادرت منزل طفولتها إلى الأبد.

كان مركز التسريح يكتظّ بالجنود غادين رائحين في جميع الاتجاهات، وكانوا أكثر ضياعاً من الضبّاط ورجال الدرك الذين كان يفترض بهم أن ينظّموا تسريحهم. كان الجميع متلهّفين لمعرفة موعد مغادرتهم والقطار الذي سيخرجهم من هذه المنطقة المدمّرة حيث سقط العديد من الرّفاق، وفي أيّ وقت. طفق الجنود يتبادلون معلومات يتعذّر التحقّق منها وسط هرجٍ ومرجٍ يتخلّلهما صوت الصافرات المستمرّ. كانوا يتوقّفون عن سعيهم ليستعلموا عمّا يجري ثمّ ليدركوا أنْ لا شيء خطير. كان بعض الجنود يتنادون، وآخرون يتدافعون، ثمّ تأتي موجة جديدة لتجرف الجميع نحو اللّافتات التي كتبت عليها مواعيد القطارات ووجهاتها. لم يكن أيّ منهم يملك فكرة واضحة عمّا يجري، فيرتئي أن يراجع الضبّاط الذين كان عليهم الاعتراف بدورهم أنّهم هم أيضاً لم يكونوا على دراية بما يحدث. كان التّراتب الهرميّ العسكريّ يفقد الكثير من هيبته هنا في خضمّ هذه الفوضى.

كان هناك قطاران أو ثلاثة متّجهة إلى باريس وكلّ واحد منها يُقِلّ ألف رجلٍ متلاصقين حتّى أنّ القمل لم يكن مضطرّاً إلى بذل جهدٍ لينتقل من شخص لآخر. كان الجميع مغتبطين للهروب من الحرب أخيراً والابتعاد عن هذا المكان المزدحم الصّاخب حيث لا يعود الجنود للحديث عن التآخي العظيم الذي يجمعهم في خنادق القتال. كانوا سعداء فقط لكونهم على قيد الحياة، وفي صحّة جيّدة تقريباً، وأحراراً عمّـا قريب. كان هؤلاء الذين ينتظرون رحيلهم يُلْفون أنفسهم دون حيلة، ولكن الأكثر جسارة بينهم سعوا للاقتراب من الحواجز التي تقطع الطريق على الوصول إلى القطارات، وما لبثوا أن استنتجوا أنّه لن يُسمح لهم بالعبور على هذا النحو، وأصيبوا بالإحباط. بعد

أشهر من البقاء على قيد الحياة في الجبهة، رأوا أنفسهم مضطرين إلى قضاء ليالٍ أخرى نوماً على الأرض في معاطفهم ناظرين إلى القطارات تصل وتغادر. أخذوا يشتمون ضبّاطهم العاجزين عن تيسير رحيلهم، المنشغلين بمراجعة قوائمهم ووسم علامات بجانب أسماء لا نهاية لها. كان يُقدَّم للجنود حساءٌ بارد وقهوة غثّة ظنّاً أنّ ذلك يخفّف من وطأة انتظارهم. وهكذا تدبّروا أمرهم بالجلوس ناظرين بقلقٍ إلى هؤلاء الذين يأخذهم السعال وتبدو عليهم الحمّى، فربّما كانوا من حاملي الطاعون الرئويّ. منذ بعض الوقت، بدأت تنتشر شائعات مقلقة. لقد صدر قرار بحظر رشق الجنود بالأزهار في المسيرات أو رمي النثار خلال الأعراس خوفاً من انتشار الجراثيم. كان يحكى أنّ الكنائس لم يعد لها الحقّ في قرع ناقوس الموت، وأنّ المآتم يجب أن تُقام في اللّيل بهدف عدم نشر الذعر بين السكّان. إنّها نكد الطالع هذه الإنفلونزا الإسبانيّة! تنجو من القذائف والقنابل والرّصاص ولكنّك تقضي نحبَكَ بسبب مرض غريب! كان الجنود يفكّرون في حظّهم السيّئ معلّلين أنفسهم بالصبر حين لاحظوا دخول كاهنٍ ومجموعة من الراهبات.

مصحوباً بمجموعة من الممرّضات الكاثوليكيّات، قطّب الكاهن كافيل حاجبيه منذ دخوله إلى العنبر المجلجِل وكأنّه طبلة. مرّ شهر على عودته من معسكر بوميرانيا حيث رُحّل. عاش تجربة مروّعة رزح فيها تحت وطأة الجوع والبرد خصوصاً، ذاك الصقيع لم يسبق له أن شهده حتّى في عزّ أسوأ شتاءات البيكاردي. جوزيف كاتييز الذي شاركه المصير لم تكتب له النجاة. لحسن الحظّ، ساعدت كافيلَ مكانتُه بصفته رجل كنيسة. لقي تعاطفاً من رجل الدين الملحق بالمعسكر وهو بروتستنتيّ. فأيّاً يكن الأمر، لا يُعدَم أن توجد بعض العناصر الجيّدة بين حفّاظ الكتاب المقدّس أولئك. استطاع كافيل أن يأكل أفضل قليلاً من الآخرين وأن يتدفّأ أحياناً في الغرفة المخصّصة للصلاة. على

أيّ حال، انتهت الحرب في الوقت المناسب وإلّا لما كان استطاع الصّمود شهرين آخرين.

عند العودة إلى لان، كانت بانتظاره مفاجأة إلهيّـة: استُقبِل استقبال الأبطال. كادوا يصوّرون للنّاس أنّ دول الحلفاء كسبت الحرب بفضله. تناسى الجميع قربَه من الألمان لا سيّما وأنّ المقاومين الحقيقيّين من أمثال كاتييز وفاكيت لم يعودوا على قيد الحياة ليثبتوا العكس. أصبح أسقفاً بطوليّاً. ما من منصب أرفع في تلك الأوقات التي يميّزها الامتعاض والتنفيس عن المشاعر. والأسوأ أنّ شظف العيش الذي تسبّبت به سنوات الحرب كان مدمّراً للكثير من هؤلاء الرّجال المسنّين الخائرين والمتكلّفين الذين هم الأساقفة. ما إن مَثَلَ كافيل أمام أسقف سواسون الذي لم تكن صحّته مزدهرة، على ما يبدو، حتّى نُظّم احتفال دينيّ على شرفه مع إفهامه أنّ الطريق باتت سالكة أمام أسقفيّـة بربينيان أو بواتييه، أو في أسوأ الأحوال في ركن من جبال الألب نسي اسمه (فهو لم يكن يحبّ الأماكن المرتفعة). كان لا يزال متفاجِئاً بما آلت إليه الأحداث. كلّ ما احتاجه الأمر للوصول إلى ما كان يطمحُ إليه لسنواتٍ دون جدوى هو البقاء بضعة أسابيع في معتقل للسجناء إثر سوء فهمٍ فادح. كان حريّاً به مراجعة لاهوته لأنّ الصدفة كانت أقدر على تحقيق المراد من الشيطان أو الربّ الرحيم.

في القاعة الكبيرة، أدرك أنّ محبّته للحشود تتناقص يوماً بعد يوم، وخصوصاً لهؤلاء الجنود الثرثارين المتعبين والقذرين الذين كان الكثيرون يرمقونه بنظرات ساخرة، وهذا كان كافيل يفهمه على أيّ حال: كيف بالإمكان أن يصدّقوا عبارات التقوى التافهة هذه، التي كانت رأسماله، بعد كلّ هذه الأشهر في جحيم لا تشبه في شيءٍ الجحيمَ وفق العقيدة الكاثوليكيّـة، جحيم متجدّدة بنارها، وقد حدّدت الكنيسة معالمها تحديداً واضحاً. فهؤلاء الرّجال

كانوا يعرفون أكثر من الجميع عن العذاب والعار الإنسانيّين، وجلّ ما يتوقون إليه هو الراحة والرّفاهية الوثيرة للحياة المدنيّـة.

منذ أسبوع أشار له الأسقف بأنّ بادرة من جانبه، مباركة على سبيل المثال للجنود الذاهبين لملاقاة عائلاتهم بعد الكثير من المعارك، ستلقى التقدير من السّفير البابوي ناهيك عن الانطباع الإيجابيّ الذي ستتركه لدى وزير الشؤون الدينية. كان من الجيّد حقّاً أن يظهر الكاهن كافيل، هذا البطل الكاثوليكيّ، أمام الملأ مبيّناً الدور الذي لعبه الأساقفة في إحراز النصر، لا سيّما وأنّ الموقف البابويّ -وعندئذٍ تنهّد الرّجل العجوز تنهيدة تشي بارتباكه العميق- قد أسيء فهمه. وباختصار، إذا أراد كافيل نيلَ ترقيَةٍ فعليه أن يخدم كنيسته، هذه الكنيسة المقاومة الحاضرة أبداً لدعم المدافعين عن الوطن. نظر كافيل إلى الرّجل العجوز وهو لا يصدّق أذنيه محتفظاً بالصّمت. حتّى السكرتير الأوّل للأسقفيّـة لم يعد يصدّق هذه الترّهات. كان كافيل يأمل فقط أن يكون الشّعب أكثر سذاجة.

وبينما كان الكاهن كافيل، بمعيّـة الراهبات، يخترق الحشد، بدا المحاربون الشّجعان ساخرين إلى حدّ ما وغير عاقدين النيّـة كثيراً على السّماح له بمؤازرتهم. كانت إشارة ركوب القطار تناسبهم أكثر بكثير من مواساة الكاهن لهم. بعض الذين تعرّفوا عليه حاولوا أن يشرحوا للآخرين أنّ كافيل جازف بحياته ونال هو أيضاً قسطه من العذاب. لكنّ معظم العساكر كانوا من التعب بحيث لم يعيروه أهميّـة، فالكهنة بالنسبة إليهم كانوا يتقنون فنّ الحديث لكنّهم يردّدون الكلام نفسه عن الصّبر والحياة المتّزنة، فيما كانوا هم على عجلة من أمرهم للمغادرة والاستمتاع بالحياة أخيراً.

كان الكاهن يدرك أنّه سيُقابل بصيحات الاستهجان، ولذا احترز للأمر وجعل الممرّضات يرافقنه. لعلّ جميع الجنود تلقّوا الرّعاية من أولئك الممرّضات، في مستشفيات ميدانيّـة، وكانوا يعرفون تماماً ما يدينون لهنّ به من امتنان. بالطّبع، في ركن من الذّاكرة، كان الكثيرون يضمرون ضغينة لرئيسة الممرّضات، تلك التي بعد أيّامٍ أو أسابيع قليلة، وفيما كانوا يتنعّمون بالراحة في أعماق أسرّتهم، كانت تأتي لتخبرهم أنّهم شُفوا وأنّ عليها التوقيع على القسيمة التي ستعيدهم إلى الجبهة. في الواقع، عليهم الاعتراف بأنّ ما تقوم به كان صحيحاً ولكنّهم لم يستحسنوا قطّ ذلك التصرّف. ولكن بالمقابل كانوا مستعدّين لقتل كلّ من يجرؤ على لمس واحدة من قرناوات [125] هؤلاء النساء. كان كافيل يأمل أن يفرض احترامه على هذا الحشد الذي لا يكاد يطيع ضبّاطه معوّلاً على الهالة التي تضفيها عليه سمعته بصفته أسيراً، ومرافقة ملائكة التفاني تلك. لا بل إنه سمع بعض كلمات التحيّـة: «صباح الخير يا أبتِ»، كلمات يلفظونها محاولين أن يضمّنوها الودّ على قدر المستطاع من بعد سنوات أمضوها في أوحال الخنادق وقد صمّت آذانهم أصوات الأسلحة.

شاعراً بالدوار من الضّجيج، وبالغثيان من رائحة العرق والأنفاس الكريهة، وصل إلى المنصّة الصغيرة التي تَقرّر أن يوجّه الصلاة الجماعيّـة منها، باذلاً جهده لأن يظهر بوجهٍ سمحٍ مبتسم وهو لا ينفكّ يبارك الجماهير. استدار محدّقاً إلى حشد الجنود، إلى كلّ تلك الوجوه الهزيلة، اللّامبالية أو المخبولة. وفي الحقيقة لم يكن هناك من مكان للصّلاة والتأمّل. تجمّعت الراهبات خلفه. كانت قدماه تؤلمانه والسّجن الألمانيّ لم يلائم مسامير قدميه. ما أصعب إرضاء الأسقف! تماسك قائلاً في نفسه إنّها الخطوة الأخيرة قبل منحه العصا الأسقفية والبُرطُل. أعادت له هذه الفكرة فخره بنفسه. وأيّ

أهميّـة إذَن لهؤلاء المتسكّعين القذرين الصّاخبين؟ كان يجدر به أن يرى فيهم ذريعة لآخر عمل شاقّ يقوم به قبل أن يصبح مرشداً لقطيع مغاير حسن المظهر كريم.

كان على وشك اعتلاء المنصّة عندما لمح وجهاً إلى جانبه، شخصاً مدنيّاً أشقر أشعث الشعر وعيناه نصف مغمضتين. أحسّ إحساساً غامضاً أنّه يعرفه دون أن يتوصّل إلى تذكّر اسمه. كان برفقته اثنان من الهند الصّينيّـة [126] بدا عليهما الإرهاق وكان أحدهما يسعل باستمرار. قال الرجل المجهول: «صباح الخير يا سيّد كافيل. منذ زمنٍ بعيد...»

رمقه الكاهن بنظرات متفاجئة ومتحرّية. فأردف الأشقر مبتسماً:

- تيو أودويرتس. كنت أستاذاً في «عمل الشمال».

هزّ كافيل رأسه. تذكّر ذاك الفلمنكيّ بدروسه التي قلّما كانت بنّاءة. «عمل الشّمال»... كلّ ذلك أصبح بعيداً جدّاً...

قال أودويرتس:

- يبدو أنّك عانيت بسبب هذه الحرب، مثلنا جميعاً.

كان له عين واحدة مفتوحة والأخرى تطْرف باستمرار، ومع ذلك كان يعاين الكاهن بصفته طبيباً.

كان كافيل قد هزلَ بالفعل والسّبب طعام المعسكر الذي كان مقتّراً، وهو نوع من عصيدة تصلح للكلاب ولكنّها أقلّ تغذية. وكانت الطامّة دودة وحيدة استوطنت أمعاءه. الله وحده يعرف أين تلقّف الكاهن مثل هذا الحيوان!

أصابه الذهول حين رأى للمرّة الأولى حلقات الديدان البيضاء، وخال أنّ شيطاناً قد أتى ليستقرّ في بطنه. للحظة تردّد متسائلاً: أيعقل أن يكون ممسوساً؟ ثمّ عاد يفكّر بطريقة أكثر واقعية عندما شعر بالجوع ينهش أحشاءه. الحيوان الذي بدا مستسيغاً نظام الغذاء الجرمانيّ كان يمتصّ احتياطه الغذائيّ الضئيل وقد عانى كثيراً للتخلّص من الدّودة.

قد يكون الفلمنكي طبيباً، لكن لم يكن لدى كافيل أيّ رغبة في شرح مشاكله مع ثمرة أحشائه المنبوذة، هكذا كان يسمّيها في لحظاته الفكاهيّـة النادرة. قال لأودويرتس وهو يحاول أن يكون لطيفاً:

- عانيت، بالطّبع، مثلك، على ما أعتقد. كنت تعمل في علم الأحياء أليس كذلك؟

ابتسم أودويرتس ابتسامة متشنّجة. توقّف جفنه الأيمن عن الاهتزاز للحظة. حتّى في بوميرانيا لم يرَ كافيل سجيناً بهذا الهُزال وتلتهمه مثلُ هذه النار الدفينة.

- أتابع أبحاثي يا أبتِ. عمّا قريب سيكون لديّ سلاح يردع أيّ عدوّ عن مهاجمة بلادنا.

وجد الكاهن المكان غير مناسبٍ إطلاقاً للحديث، فقال متعجّباً وبتهذيب عفويّ:

- سلاح!

لكنّ الفلمنكيّ انتهز الفرصة ليجيبه قائلاً:

- سلاح مصمّم علـ....م....يّ....اً. أخبرك أيضاً بأنّني بحاجة لمتطوّعين لاختباره. والكثير من هؤلاء الناس- قالها وهو يقوم بإشارة دائريّـة باتّجاه حشد الجنود - يبحثون عن عمل في الوقت الحالي. ويمكنهم كسب القليل من المال لقاء مساعدتي.

على يمينه سعل أحد الهنديّين الصينيّين. سرّى عن نفسه بالبصق على الأرض. لاحظ أودويرتس اشمئزاز الكاهن فلكز الرّجل بطرف مرفقه فاعتذر هذا بصوتٍ يشوبه التعب.

قال الكاهن بلهجة لوم:

- حان الوقت للتفكير بشيءٍ آخر غير الأسلحة سيّد أودويرتس.. ألا تعتقد ذلك؟

لم يقل أكثر من ذلك. خرجت من الحشد امرأة شابّة ترتدي معطفاً أزرق بالياً وكانت تحمل فـي يدها سكّيناً. سمع كافيل راهبة تصرخ خلف ظهره. ارتمت المرأة على أودويرتس الذي تجمّد في مكانه متدلّي الذراعين، وبدا وكأنّه ينتظر شيئاً غير معروف. في اللّحظة الأخيرة وفيما الخنجر يتهاوى على عنقه، سارع إلى رفع ساعده متصدّياً للضربة. للحظة استقرّ النصل في الفراغ ثمّ أمسك أودويرتس بمعصم الفتاة مرغماً إيّاها على إفلات السلاح. وبدأ العراك أمام نظر كافيل المصعوق. ارتخت ساقاه وقد أشعره صراخ الراهبات بالدوار. رأى الكاهن اليد والسكين ترسمان قوس دائرة بسرعة. أحكم أودويرتس قبضته لكنّ الفتاة المجهولة ظلّت تقاوم، ووجهها أحمر وفكّاها مشدودان. انهال النّصل على كافيل بسرعة حالت دون تراجعه. شعر بألم لا

يوصف في فمه وامتلأ حلقه بطعمٍ لاذع. أدرك في ذهول كليّ أنّ الشيء الضخم الذي كان يخترق خدّه كان نصل الخنجر فتهاوى أرضاً.

انقضّت راهبة على الفتاة التي كانت ترفض بشدّة إفلات السّكين، وتدحرجت كلتاهما على الأرض. وسرعان ما أمسك بهما جنديّان وردعا المهاجِمة. «ليلي!» هتف أودويرتس الذي تعرّف إليها. «ماذا دهاكِ؟».

استولى عريف على الخنجر، وكان الجنديّان يمسكان بالفتاة الشاحبة البكماء حتّى وصلت الشرطة وأجليَ الكاهن الذي كان خدّه مشطوراً والدّم ينفر منه. رأت ليلي عبر الخصلات المبعثرة على وجهها أودويرتس ينسحب بهدوء بمعيّـة معاونيه الاثنين دون أن يفكّر أحد في القبض عليه. وإذ أمسك بها الجنديّان، ما عادت تقاوم بل انفجرت ضاحكة وقد ارتفعت كتفاها فجأة واعترتهما تشنّجات تخلو من البهجة. نظر إليها حارساها مذهولين. تحلّق أناس حولهم. ظنّ الجميع أنّهم أمام مشهد مألوف محزن، أمام مجنونة تعيسة أخرى، حياتها ممزّقة مثل تلك الأعلام التي مزّقها انفجار القذائف. ومع ذلك، لدى اقترابهم لرؤية هذه الفتاة التي كان بإمكانها أن تكون جميلة لولا هيئتها التائهة، أحسّوا أنّ المسألة في مكان آخر. هذه الضحكة كانوا سمعوها من قبل في الخنادق لحظة الهجوم، الضحكة التي كان يسترسل فيها بعض الرجال تحت وابل القذائف، بالضبط قبل اندفاعهم راكضين إلى ساحة المعركة جاهلين أنّ سعيهم سوف يقتلهم. تلك الضحكة التي تشبه جلداً يُسلخ والتي توافيك حين لا تعود تعرف كيف تدبّر حياتك.

في حلقة الجنود توقّفت الأحاديث. تبادلوا النّظرات ورفعوا قبّعاتهم كاشفين فجأة عن وجوههم المنهكة، وأعينهم التي يلوح فيها الاستسلام أكثر من الحزن، وشبابهم الذي ضاع في الخنادق وقد التهمته الجرذان والغربان

وبَشِمَتْ من بؤسهم. لكأنّ نوراً أضاء في هذه اللّحظة حياتهم من الدّاخل. كانت هذه الفتاة الغريبة تعيدهم، دون أن يعرفوا السبب بوضوحٍ، إلى ما أمضوا وقتهم يحاولون نسيانه. لَكَم أخافهم مدى القذارة والإهانة الذي بلغته حياتهم، ولَكَم كانوا عاجزين عن إغفال هذه الحقيقة الآن. وهذه الحياة التي ابتهجوا بها لأنّها ما زالت مُلكهم فيما سُلبت من رفاقٍ كثيرين، ما عادت تبدو لهم الكنز الأثمن. كانت الضحكة تذكّرهم بطريقة غامضة أنّها تُعاش دوماً في ظلّ رعب لا أحدَ يُشفى منه تماماً.

في السيّارة التي كانت تقلّهم إلى المخفر، صفع شرطيّ غاضب ليلي مراراً دون أن تتوقّف لحظة عن الضحك. وأخيراً، أغميَ عليها في الزنزانة وقد انهدّت قواها.

في الصّباح، جاء ألكسندر لرؤيتها بعدما أبلغوه عن حالتها. كانت فاقدة الصوت ولا يُسمع لها إلّا أنين متواصل مثل أسطوانة بالية. ربّما عرفته لكنّها لم تظهر أيّ أمارة. نجح ألكسندر بفضل علاقاته في إدخالها إلى مصحّ سانت آنّ وتجنيبها السّجن. وُضعَت في قسم النساء المضطربات عصبيّاً مع أنّه لم يعد لديها في ذهنها أيّ صلة بالعالم الخارجيّ في الواقع، ومع أنّها كانت معظم الوقت هادئة كحملٍ وديع.

اقتصرَت حياتها على غرفة من ثمانية أسرّة كانت تمرّ بها نساء مكتئبات شاحبات السحنة، وهاذيات ثرثارات، ومهووسات يخرجن بين الفينة والأخرى من رقية ليدخلن في تعزيمِ من يجاورهنّ بصوتٍ عالٍ. لم تكن تتحدّث إليهنّ البتّة ولم يكن يبدو عليها أنّها تبصرهنّ. منصاعة، كانت تنقاد لمن يصطحبها إلى الحديقة الصغيرة حيث تتجوّل ببطء تحت أشجار الدّلب والكستناء والسّنط. وإذا كانت تبدأ أحياناً في الصّراخ فهذا لأنّها خرجت للحظة

من حلمها. والحارسات المتّفقات على إطلاق العنان لضرباتهنّ التي تقطع الأنفاس، كنّ يوقفنها في الحال. لم يتمكّن أيّ طبيب من التحدّث إليها قبل الدكتور أمبرتو.

مصحّ سانت آن، يونيو 1919

كان ضوء المساء يلتمع عبر النافذة الصّغيرة المسيّجة. جالسة على سريرها وظهرها لصق الحائط، توقّفت ليلي عن الكلام. في الجناح، سُمعت صرخات وجلبة مشوشّة تختلط فيها خطى متسارعة وزحزحة كراسيّ واصطفاق أبواب. إنّها الساعة التي يصبح فيها المرضى الأكثر هدوءاً مضطربين ومهتاجين، والممرّضات يصدرن أوامرهنّ كالنباح. أدركَ أمبرتو أنّه كان عليه الإسراع في مهمّته. عمّا قريب تصل حافلة السجن مصطحبة مجموعة من المرضى الآتين من جميع مراكز الشرطة الباريسيّـة. كان راضياً عن حديثه مع ليلي، ويعرف ما يكفي للبتّ في قضيّتها مع السّلطات. ومع ذلك، بقي الأصعب قيد الإنجاز. يجب إبلاغها الخبرَ بلباقة تتطلّب وقتاً أطول ممّا كان لديه.

وبحركة سريعة وعصبيّـة، تحقّق مرّة أخرى من نبض ليلي ليمنح نفسه بضع لحظات تفكير. من هي في الواقع؟ تساءل وهو ينظر إلى وجهها المتورّم من النوم بعينيها نصف المغمضتين: إنّها المسؤولة عن عدد لا يحصى من الوَفَيات. هل هي إحدى أعظم المجرمات في التاريخ أم الضحيّـة المطلقة؟ هل هي ليليت أم ليلي؟ ليس صعباً تخيّل الصّدمة المتكرّرة التي كابدتها. ما إن تخرج إلى الشّارع حتّى كان يستحيل عليها أن تتجاهل الكمامات على الوجوه، وعربات الموتى، والمقابر حيث يدفن الناس على عجل. كان بإمكانها أن تسافر إلى أقاصي الأرض ولن تجد إلّا مشهد الخراب نفسه. يتحدّث القضاة عن القتل غير المتعمّد، ولكن في مثل هذه الحالة تُرى ماذا نقول؟

دخلَت ممرّضة لاهثة الأنفاس:

- دكتور، الحافلة وصلت...

- أنا آتٍ... في غضون عشر دقائق...

حين رأت ليلي أنّ المرض مستمرٌّ في الانتشار أرادت إيقاف الرجل الذي كان ينشره بسبب خطئها. نجحت إلى حدٍّ ما. اضطرّ تيو أودويرتس إلى مغادرة فرنسا هرباً من الشرطة. آخر الأخبار تفيد أنّه كان في اليابان وهي بلاد بدأت تظهر اهتماماً بالحرب الجرثوميّـة. تساءل أمبرتو عن إمكانيّـة شفائها وهل أنّ ما قد أزمع أن يخبرها به سيزيد حالها سوءاً.

أخذ يدها واقترب منها قائلاً بصوتٍ هادئ:

- ماذا تريدين الآن يا ليلي؟

غضّن عبوس خفيف أنفها. بدت كأنها تركّز للخروج من الحذر الذي يسيطر عليها منذ بداية الحديث.

- أنا تعِبة يا دكتور، لن أتمكّن من التحدّث معك لفترة أطول... سأذهب. لا تحاول الإمساك بي. لم أعد أريد التذكّر... ولا كلّ هذا الشقاء... أريد أن تطلق سراحي.

- ليس هذا في عداد الممكن. لا أستطيع أن أدعكَ تخرجين، تفهمين قصدي، أليس كذلك؟

- لا يا دكتور! أنا لا أطلب منك إخراجي من هنا. بطبيعة الحال! كلّ ما أريده هو أن توقف التنويم المغنطيسيّ لأتمكّن من العودة إلى بريمونتريه.

- إلى بريمونتريه، لكن لماذا؟

هزّت ليلي رأسها لتؤكّد أنّها جادّة في ما تقول. صوّبت نظرها إلى الطبيب بحدقتيها المتّسعتين ثمّ قالت وهي تلفظ كلّ كلمة بمشقّة: «فاتتني الأشياء الجوهريّـة في حياتي. ولّى زمني. قتل الفيروس أناساً كثراً! ومن بينهم ابنك! وابني أرمان! هذا يفوق طاقتي!».

- هذا بالضبط ما أردت أن أحدّثك عنه. يجب أن تتغلّبي على هذا الشعور بالذنب... يجب أن أخبرك بأنّ...

قاطعته:

- دكتور، فقط مع التنويم المغنطيسيّ أتذكّر شقائي. قبل تدخّلك كنت أعيش في عالم مثاليّ... كنت في بريمونتريه مع أرمان وبالرغم من الحرب ومن شظف العيش، كنت خليّـة البال. كان العيش هناك حلماً خفيفاً حيث الخارج متوارٍ، وحيث العالم الخارجيّ وهمٌ مزعجٌ يمكن التخلّص منه بسهولة... إلى أن أعدتني إلى حلقة الشقاء.

هزّ أمبرتو رأسه منفعلاً: «لا أعرف... بصفتي طبيباً كان علـيّ أن ... هل أنت واثقة من أنّك تريدين العيش هكذا منزوية في كنف الهذيان حتّى آخر أيّامك؟

- أطلق سراحي يا دكتور! دعني أرحل لأعيش حياتي الحقيقيّـة، الحياة التي أردت أن أعيشها، في انسحار عميق. ما تسمّيه هذياني هو دفاعي الوحيد في مواجهة الماضي، وإزاء ما فعلتُه... هل لديك ما هو أفضل لتقترحه علـيّ؟

- أنت تطرحين السؤال الصحيح. ربّما يمكنني تغيير رأيك...».

أخرج ساعة من جيب قميصه، راقب قرص ساعة الجيب مقطّباً وجهه قليلاً. «اسمعيني جيّداً. لم يعد لدينا إلّا القليل من الوقت».

لان، بعد ثلاثة أيّام

في اللّيل المضيء الدافئ رأى أمبرتو النجوم الأولى تتوهّج فوق أدخنة المنازل في المدينة العليا. كان يمرّ عبر الشوارع الضيّقة شبه المضاءة حيث تتراءى في كلّ زاوية أنقاض المنازل المتداعية وظلال الآبار الغارقة في كثافة التلّة الأزليّـة. على المنتزه حيث تحدّث كافيل وكلاين فيما مضى، رأى للحظةٍ السهل الهائل تتخلّله بقع متناثرة من الضوء. ثمّ انحرف باتّجاه الطيف الباسق للكاتدرائية ليتسلّل، كما قيل له، عبر باب جانبيّ مفتوح.

في صحن الكنيسة المهجور، الذي لم يتعافَ بعدَ ويلات الحرب، إذ جرى تحويله إلى ملجأ للجنود وأحياناً إلى حظيرة لأحصنتهم، كان يلمح في غير مكان لهب الشّموع المرتعش. ثمّة نور خافت كان يخترق العدد القليل من النوافذ الزجاجيّـة الملوّنة التي بقيَت سليمة، ويضيء الأعمدة الضخمة. توقّف بالقرب من عمود حجريّ مخدوش قليلاً لينتظر ألكسي كافيل. كان عصفور دخل إلى المبنى وبقي أسيراً تحت القبّة وكان يُسمع رفيف جناحيه الخافت حين يعبر فوق رأسه.

بات كافيل أسقف توركوان. كان ينتمي إلى الطبقة الجديدة المهيمنة، طبقة الناس الذين ذاع صيتهم بصفتهم مقاومين خلال الحرب وبدأوا يعتزمون الحصول على أجر الظافرين. لم يبتهج أمبرتو قطّ بلقاء شخص كان يتخيّله شبيهاً بطير جارحٍ موضوعٍ وسط أغنام الكنيسة، ولكن بعد آخر حديث له مع ليلي، لم يكن لديه الخيار.

إلى يساره خرج طيف من الظلمة واتّجه نحوه بخطى بطيئة، وكأنه يرزح تحت أعباء ثقيلة. تلقائيّاً سار الطّبيب ليلتقي بالخيال الذي جمد عند أسفل تمثال قدّيس تضيئه عشرات الشموع. على بعد ثلاثة أمتار توقّف متسمّراً في مكانه.

على ضوء الشّموع، كان ألكسي كافيل يرتدي جبّة بسيطة ويبدو أنّه كان يتوقّع من الزّائر أن يعتاد على مظهره الغريب. فوجئ أمبرتو بما رآه. وبصفته طبيباً قيّم بادئ ذي بدء عمل الجرّاحين.

خلّف هجوم ليلي آثاراً مخيفة. اختفى قسم من وجنة كافيل، وهؤلاء الذين أجروا له العمليّـة خاطوا دون كبير عناية -ربّما لأنّ مرضى مشوّهين بنحوٍ أكثر خطورة كانوا ينتظرون تدخّلاً جراحيّاً- فتحتَي الندبة التي تلوي فمه وجلد فكّه. كان الجرح العميق الذي يمتدّ من عظم الوجنة إلى الذقن يعطي الكاهن هيئة قرصان غريب. اختفى الثؤلول الضخم الذي كانت تذكره ليلي كلّما حاولت وصف الكاهن. «على الأقلّ هناك حسنة واحدة لهذه العمليّـة!» فكّر أمبرتو بسخرية لم يلم نفسه عليها كثيراً. لم يكن المظهر العامّ لوجه الكاهن راعباً كالوجوه المحطّمة التي كانت تُصادَف في كلّ مكان، ولكنّه كان يعبّر عن ازدواجيّـة صادمة. انعدام التناسق بين الجانب الأيسر من الوجه، الذي ظلّ سليماً، والجانب الأيمن المشوّه بشكلٍ شديد البشاعة، كان يشير إلى ميلَين متعارضين يتواجهان في داخل هذا الإنسان، ويتنازعان وجهه الذي أصبح أشبه بساحة معركة دمّرها صراعهما.

حين خفض أمبرتو بصره أدرك أنّه كان يقف بالقرب من ضريح جنائزيّ لأحد رجال الدين الرفيعي المقام إذ رأى قناعه القروسطي الوقور محاطاً بالحروف اللّاتينيّـة المنحوتة في الإسمنت. وكافيل نفسه كان يدوس غير

مكترث على نصب تذكاريّ لرجل دين من الأزمنة الغابرة. حين رفع يده بحركة متردّدة بين السّلام والمباركة رأى الطبيب خاتم الأسقف من الجمشت يتلألأ في إصبعه كما لو أنّه، على الرّغم من بساطة ثيابه، حرص على تذكير الآخرين بمن كان حقّاً. قال بصوت عذب تنبعث منه نبرة سلطويّـة دفينة لا تكاد تلحظ:

- دكتور أمبرتو أشكرك على مجيئك إلى هنا، إلى هذه المقاطعة النائية التي أنا على وشك مغادرتها.

كان الطبيب يعرف أنّه قد احتفل للتوّ بآخر قدّاس له في لان لينضمّ بعدئذٍ إلى مركز أسقفيّته الجديد. لا بدّ أنّها أمسية انتصارٍ له هو ابن المزارع الصغير البسيط الذي أصبحَ رجلاً رفيع الشأن من رجالات الكنيسة.

قال أمبرتو:

- أهنّئكَ على هذه الوظيفة... الجديدة والرفيعة...

شعرَ بالإحراجِ من وصفه الرتبة الجديدة للكاهن بـ«الوظيفة»، الذي لم يكن يتلاءم كما يجب مع التّفاصيل الدّقيقة للألقاب الكنسيّـة الشديدة التعقيد. لم يكن يعرف لقباً غيره. «سيادة الـ...»

حرّك كافيل يده بلا مبالاة. استدارَ شيئاً فشيئاً حتّى يتمكّنَ أمبرتو من رؤية جانب وجهه الذي بقي سليماً.

- دعنا من الألقاب أرجوك.

ثمّ اتّخذ وجهه فجأةً هيئة صارمة وأضاف:

- هل تحملُ لي أخباراً عن ليلي روسّو، تلك المسعورة... ماذا صار بقضيّتنا؟ هل استعادَت عقلها؟

- إنّها مريضة... تعذّبْتَ كثيراً بسببها. اعلمْ أنّها في بعض الأحيان لا تعود مدركة لأفعالها. لقد عانت الكثيرَ وكانت معاناتها تفوق قدرتها على التحمّل.

قاطعه كافيل بنبرةِ مَن عيلَ صبره:

- ليسَ لديّ أيّ نيّـة بتقديم شكوى ضدّها إذا كان ذلك يقلقك، لكن هل أخبرتَها... عن ابنها؟

- أخبرتُها... تعرف أنّ ابنَها أرمان حيّ يُرزَق... تعرف ذلك... قال الطبيب كلماته متهجّئاً كلّ مقطعٍ لفظيّ. «اعذر فضولي، لكن لماذا أخفيتَ ذلكَ عنها؟»

هزّ كافيل كتفَيه: «لم يُخفِ أحدٌ عنها شيئاً! كان سوء تفاهم مؤسفاً... حين علمَ الألمان أنّ كاتييز ينوي تهريب الصبيّ، أخرجوه من ملجأ سانت ماري لِيَضعوه في مدرسَة داخليّـة في المدينة العليا. كانوا يجهلون ما يريده الفرنسيّون منه لكنّهم اعتقدوا أنّهم كانوا بإجرائهم هذا يُحبطون خطط العدوّ أيّاً تكن. ولكن لكلّ مشقّةٍ عِوَضٌ فقد أنقذوا بكلّ تأكيد حياته بحمايته من الوباء الذي فتك برفاقه الصّغار.

- ولكن ماذا عن ذاك الصّليب الحامل اسمه في المقبرَة؟

- هذا بسبب الإهمال العامّ... كنّا على مسافة أيّام قليلةٍ من تحرير المدينة. لم يعد القصف يتوقّف. بدأ الألمان يُدمّرون كلّ البنى التحتيّـة. في مثل تلك الأوقات يصعب عادةً التفكير بشطبِ اسمٍ من القائمَة... ترتّبَ دفن الأطفالِ على عجلٍ في هذه المقبرة الجماعيّـة، وأُوصِيَ على الصّلبان لدى

متعهّد للوازم دفن الموتى كان يعمل فوق طاقته. لا أحد أعاد التدقيق في هذه القائمة. وأظنّ أنّ الدّفنَ جرى بسرعةٍ خوفاً من القذائف... إنّه لأمرٌ مأساويّ حقّاً أن تعثر والدته على ذلك الشاهد.

- كان بإمكانكم إبلاغها.

- لم أكن هنا حين حُرّرَت المدينة. يبدو أنّ الصبيّ أعطى اسمَين للسّلطات العسكريّـة. اسم والدته -المفقودة- واسم خاله ألكسندر دوفال. هو الذي اعتنى بأرمان.

- ألم يستطع أن يخبر ليلي بذلك؟

- لا، على ما يبدو.

- أجهل أسبابَه لكنّه يتحمّل مسؤوليّـة كبيرة. المصيبة تسبّبَت لليلي بصدمة نفسيّـة تتعذّر معالجتها ربّما، هي التي كانت في الأصل متألّمَةً للغايَة.

- تستطيع تحميله قدر ما تشاء من المسؤوليّـة يا دكتور. لكن هذا لن يغيّر شيئاً.

نظرَ إليه أمبرتو نظرة متسائلة.

- توفّيَ منذ ثلاثة أيّام هنا في لان حين جاء للقاء أرمان... من جرّاء مرضٍ عصبيّ... تردّت صحّته بسبب عمله في مكتب الشفرة... كنت بجانبِ سريره أمنحه المسحة الأخيرة...

- إذَن لن نعرف المزيد عمّا جرى!

- أعرف ألكسندر قليلاً... عانى منذ نعومة أظفاره، كان «عمل الشّمال» مكاناً مرعباً بالنسبة إلى طفلٍ. ولا أخبرك أمراً جديداً إذا قلت لك إنّه كان ثمرة زوجين متوحّشين. كبر حاملاً وصمات لا تُمحى...

صمتَ كافيل برْهَة ثمّ استأنفَ بنبرةٍ تعِبَة:

- كان هناك أسبابٌ أخرى أقلّ وضوحاً... كان يظنّ أنّ أرمان هو ابنه في الواقع وأنّ ليلي روسّو أخفَت عنه ذلك. ربّما كلّ ذلكَ كان مجرّد وهم. على أيّ حال لم يغفر لها قطّ كتمانها الأمر عنه خصوصاً بعد كلّ ما عاناه لمساعدتها على الفرار...

بدا وكأنّه يفكّر لبضع دقائق وقد استدار دون انتباه مبيناً من جديدٍ آثار الجرح الذي سبّبته له ليلي:

- كان رجلاً ضائعاً. هل تعرف أنّه، وعلى الرّغم من معارضة الجميع داخل جهاز المخابرات، هو الذي دعم مشروع الحرب الجرثوميّة لتيو أودويرتس؟ وذاكَ جنون يليق بمَن كبرَ في كنف الشّيطان. ربّما كان يرى ببساطة أرمان طفلاً مشابهاً لما كانَه، هشّاً ومهجوراً ويجب حمايته...

ثمّ أردف قائلاً:

- لديك يا سيّدي الطّبيب النفسيّ في هذا الموضوع حقائق أجهلها... أنا أعتقد أنّ نبتَةً لا يمكنها أن تنموَ مستقيمةً في أرضٍ ملعونة... ما همّ! ألكسندر أخذ سرّه معه وما أسرّ به إلى ربّه، كما يُقال، لم أكن إلّا الرسول.

رفع رأسَه ببطءٍ مصوّباً عينيه السوداوين المتحرّيتين إلى عيني أمبرتو. بدا وجهه وكأنّ له فقط جانباً بشريّاً وآخر مقضوماً ومخاطاً بفمٍ مشدود

وابتسامةٍ جامدةٍ ما يجعله أشبه بدمية مهرّج نُحِتت بشكلٍ أخرق:

أمّا في ما يخصّ ليلي روسّو، فلنكن واضحين: لا أحدَ يريدُها أن تخرجَ من ملجئكَ وتمْثل أمام المحكمَة. لا رجالات الحرب الذين يمكنها أن تكشف تلاعباتهم المحظورة، ولا السياسيّون الذين تغاضوا، ولا السّلطات الطبّيّـة التي أخطأت تماماً بشأن الإنفلونزا، ولا حتّى الشّرطة التي تركت تيو أودويرتس هذا يصول ويجول منذ وقت طويل طويل...

سعلَ سعالاً خفيفاً. «بالطّبع لك أنت وزملاؤك أن تقرّروا...» هزّ رأسَه. ضاعَت ضحكته الخافتة في الظلّ الهائل لجناح الكنيسة. «بانتظارِ ذلك، لا بدّ أنّها أخبرتك أشياء عنّي قلّما هيَ حميدَة...» قالها بنبرَةٍ ساخرَةٍ يشوبها المرح فاجأت الطبيب.

قال أمبرتو بحذر:

- أعتقد أنّ الشرّ يصبحُ بسهولةٍ هاجساً لدى هؤلاء الذين يريدون أن يخدموا الله.

أجابه كافيل بنبرةٍ حازمة:

- هذا ممكن...

وصمت محدّقاً في الفراغ. ثمّ أردف بنبرةٍ أقوى: «دعْنا نتحدّث رجلاً إلى رجل تربطهما معرفة أقلّ من أن تجعلهما يختاران سبيلاً آخر غير الصّدق...»

والتفَتَ إلى التّمثالِ الغارق في الظّلمة. لم يعد أمبرتو يرى إلّا ظهرَه فقط، وعنقه السمين وإكليل رأسه [127] الذي كان يتّسع في أعلى جمجمته، الأشيب. بدا مفكّراً. فوق رأسيهما، سُمعَ حفيف جناحي الطّائر المحاصر.

- لوقتٍ طويل وفي صلوات مكرّرة بطريقة آليّـة، تفوّهت بأكثر العبارات سذاجة في العالم...

- ألا وهي؟

- نجّنا من الشرّير. أجاب الكاهنُ بصوتٍ خفيض وكأنّما يتوجّه لنفسه. «ليسَ هناكَ نجاة ممكنة من الشرّ وما من أحد باستطاعته تنجيتنا».

- أنت الأسقف تقول ذلك! قال أمبرتو بلهجةٍ يشوبها السّخط.

استدارَ كافيل بعنفٍ لدرجة أنّ حركته جعلَت لهبَ الشّموع يرتعش. لمحَ أمبرتو الفم المشدودَ المفترّ عن هذه الابتسامة الغريبةِ التي كانت تكشف جزءاً من اللِّثَة:

- أنا رجل يعرف عمّا يتحدّث! اسمح لي بذلك يا سيّدي الطّبيب النفسيّ!

ارتسمت على وجهه لطافة عابرة ما لبثت أن تحوّلت إلى برودة خرساء ومقلقة. ثمّ قال وقد تحوّلت نبرته من رقيقة إلى لاذعة: «الشرّ، والخير... هل لدينا شيء آخر سوى هاتين الكلمتين الجوفاوين؟ كلّ ذلك ليس إلّا مزيجاً معقّداً مثلما اللّقاح دواء يقتلنا إذا أضفنا عليه أدنى قطرة. هذا يذكّرني بهؤلاء الجنود الشبّان الأبرياء، أولئك الرجال الأنقياء الذين يتهافتون على أكثر بيوت الدّعارة فحشاً لأنّهم كانوا يخشون الموت قبل أن يعرفوا امرأة.

قال أمبرتو وقد احتدمت نبرته قليلاً:

- الكلام عن ازدواجيّـة الأخلاق بات من ... الأفكار البالية!

نظر كافيل إلى الطبيب، متفاجئاً وكأنّه ارتاب بمتابعة الطبيب المتأنّية لأقواله:

- ما تقوله صحيح، لكنّك تبسّط الأمور! هل أنت مؤمن يا سيّد أمبرتو؟

- الإيمان أكثر إغواءاتنا معاندة... وأنا أتجنّب الاستسلام له.

ابتسم كافيل ابتسامة خاطفة ثمّ قال رافعاً بصره نحو الأيقونة الغارق أعلاها في العتمة:

- لطالما عجبتُ من شجاعة عبدة الشّيطان أمثال دوفال... أن تكون لديك الشجاعة لمواجهة الخصم الوحيد الذي لا تستطيع الانتصار عليه! أن تجرؤ على أن تكون عدوّ الله!

تغضّن جبين الكاهن واتّخذ هيئة أكثر صرامة. هزّ رأسَه وكأنه يريد أن يطرد فكرة مزعجة:

- تلك سذاجة أخرى! وَجَبَ التسليم بذلك... زعموا أنّ الله والشّيطان هما وجهان لمعركة واحدة اختُرِعَتْ لطمأنة الشعب البسيط، فماذا يبقى؟

- الإلحاد على ما أعتقد!

- الملحدون! هؤلاء الناس الذين لا يرون أنّ الموت فكرة غير مكتملة. يعيشون بمحاذاة «مَعْلَفِهم» ويعتبرون أنّهم قد أُنصفوا...

- لا أوافق...

- لم أعد أعرف... القوى الكبرى التي تقود العالم، وتلك التي تحاربنا منذ أوّل الأزمنة والتي تفلت منّا كليّاً تقريباً لأنّها تتّخذ وجه الصدفة.

ورفع ذراعيه قليلاً بحركة تعبّر عن العجز، وانعكس الأرجوان اللّامع للجمشت هنيهة ثمّ اختفى مرّة أخرى في الظلّ. تردّدت ضحكته الصّغيرة الساخرة بغرابةٍ في هذه الأماكن...

قد أكون عرفت أشخاصاً قاربوا ما لا يُفهم... امرأة كانت تسمع ما لا يسمعه أحد، دوفال أيضاً وفيما يتعدّى شيطانيّـته التقليديّـة، الأخت ماري أوفرازي التي جرّها معه في سقوطه، ومن ثمّ ليلي روسّو، عبر الطريق المتوحّش للعلم... حين ندرك مآلهم لا أنصح أحداً أن يحذو حذوهم. لا يمكن العودة من لججٍ كهذه...

وبيدٍ متردّدةٍ اتّكأ على الدرابزين المعدنيّ الذي يفصلهما عن المكان حيث الشموع المشتعلة. بدا فجأة طاعِناً في السنّ:

ربّما لأنّ الخارق للطبيعة يعرّينا تماماً أمام أنفسنا... في الواقع، ألا يوجد شيء متوحّش فينا جميعاً على حدّ سواء؟».

شعر أمبرتو فجأة أنّ اللّيل كان يمتلئ بالأصداء البعيدة، نباح كلبٍ في المدينة، الريح الخفيفة التي تحمل أصوات المتنزّهين في الفناء، تسارع حفيفُ رفرفةِ جناحَي العصفور العالق في مكانه... فوق رأسيهما، كانت زجاجيّـة حمراء مزخرفة ترسل ضوءها الخافت على الأرض المتّسخة في جناح الكنيسة. شعر الطبيب أنّه لم يكن لديه ما يقوله لهذا العجوز الذي كان محبَطاً أكثر منه منتصراً. ظنّ أنّه سيلتقي وصوليّاً متلهّفاً للتمتّع بإيرادات نهاية سيرته فوجد رجلاً مجرّداً من كلّ رجاء، مسلوب القوّة.

قال كافيل أخيراً وهو يرفع رأسه:

- حاول ألّا ترى في الأمر إلّا حيرة مريرة للغاية أيّها الطبيب، همّاً من تلك الهموم الحميمة والخاصّة التي نفصح عنها دوماً إفصاحاً أفضل للغرباء. أفضل شيء نفعله هو الاعتراف بالهزيمة والنأي بالنفس. كنت سأعيش دون إيمان ولا قناعة حقيقيّـة، أدرك ذلك الآن. ثّم رفع كتفيه قليلاً وأضاف:

- ربّما حماني عجزي عن درء إيماني! ولكن سامحني على إبقائك طيلة هذا الوقت! الصبيّ ينتظرك في المَوهف. أعدْه إلى والدته... بالنسبة إليّ، غداً عند الفجر سأرحل إلى توركوان. لا أظنّ أنّنا سنلتقي مرّة أخرى...

ثمّ اضاف وهو يمدّ يداً باردةً وجافّة لأمبرتو:

وداعاً دكتور... لن أصلّي لأجلك ولا لليلي روسو ولا لابنها، أجنّبكم كلّ الأكاذيب التي تفوّهت بها طيلة حياتي لأجل هؤلاء الذين كانوا بحاجة للمواساة.

في المَوهف المضاء بمصباحٍ نفطيّ، كان يجلس صبيّ أشقر هزيل. نهض ما إن دخل الطبيب. «مساء الخير يا أرمان» قال أمبرتو بقدر ما يستطيع من الودّ. لم يجب الطفل، بل جمد في مكانه جزعاً، وذراعاه متدلّيتان. لمح الطبيب في عنقه أيقونة القدّيس بنوا الصغيرة التي أخبرته عنها ليلي. ثمّ سألَه بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «هل أنت آتٍ من قبل أمّي»؟

بعد ساعة مرّ ألكسي كافيل ليودّع المفوّض رينو في الشقّة الجميلة التي استعادها الشرطيّ منذ إرساء الهدنة. كان الأسقف الجديد يَعُدّ رينو مثال الغباء وأكبر كسولٍ التقاه في حياته، لكنّ الأغبياء الذين نعرفهم منذ سنوات لديهم صفة خاصّة، إنّهم يشبهون النبيذ الغثّ الذي يفقد حموضته مع الزّمن. كان كافيل حريصاً على إلقاء التحيّـة عليه قبل أن يغادر المدينة.

كان المفوّض رينو جالساً في كنبته، يداعب كلبه المضطجع على فخذيه. رمق كافيل بنظراتٍ ماكرة:

- تهانينا يا سيّدي الكاهن. عفواً... حضرة الأسقف. كلّ الحقّ على العادة!... حتّى خلال الحرب عرفت دوماً كيف تأخذ مسافة دقيقة من هؤلاء الألمان الأفظاظ، الذين، ويجب الاعتراف بذلك، يملكون عبقريّـة التنظيم. كان النظام العامّ بوجودهم مستتبّاً... لا أزال أذكر الطريقة التي وعظت بها تلك الفتاة، إميلي فورشييه، لكي تمنعها من التعاطي مع عريف فَوج «لِيْست».

- لم أعد أراها في كرسيّ الاعتراف. ماذا صار بحالها؟

- كانت مريضة بالإنفلونزا الإسبانيّـة عندما رأيتَها! في الأيّام التي أعقبت الاعتراف نقلت العدوى لجميع أفراد عائلتها: الأب والأم والأخت، ولم ينجُ أحد، مات الجميـع... خبرٌ حزيـن... لكنّه كثـير الحدوث في الوقت الحالي.

توقّف رينو عن الكلام. للحظةٍ طافت صورة إميلي اللّطيفة، المرتبكة للغاية في حبّها للحياة، بين الرجلين. الكلب النائم في حضن المفوّض الذي كان ينظر إليه بعينِ أمٍّ حنون، أطلق أنيناً. ابتسم الشرطيّ ومرّر إصبعه سريعاً على شاربه. ثمّ قال:

- بالاستناد إلى ما جرى، أرى أنّك أنقذت حياة هذا العريف.

- من غير قصد، حضرة المفوّض. لكنّني لن أندمَ أبداً على إنقاذ حياة إنسان.

- أنا موافق. وهذا جاء في الوقت المناسب... أستطيع القول إنّني لم أجعل منه صديقاً بل رفيقاً لي في الفنّ. كان يرسم مثلي. هو، كان يرسم

ميونيخ. لو رأيت عينيه بزرقتهما المعدنيّـة ونوبات غضبه ضدّ العالم بأسره، لقُلتَ إنّه رجلٌ غريب. لم يكن يحبّ إلّا بلاده والرّسم. ولكن على الأقلّ، كان يقرأ وينجز رسوماً بألوانٍ مائيّـة بدلاً من الشّرب والجري وراء الفتيات... وإن تكن إميلي استثناء...

- جعلتَ منه رجلاً حكيماً! قال كافيل مبتسماً وكاشفاً للمفوّض دون أن يقصد عن الجانب الأيمن من وجهه وكان من الانتفاخ بحيث بدا وكأنّ الخطايا كلّها تجمّعت فيه.

- كان أكثر رعونة من أن يكون حكيماً. اسمع، كان معجباً بكاتدرائيّتنا قائلاً إنّها بديعة لأنّ مهندسيها تأثّروا بالفنّ الألمانيّ. غضب حين قلت له إنّ بُناة لان، بخلاف ما يُعتقد، هم الذين ألهموا الألمان! تأهّب لخنقي... عدا ذلك، كان رجلاً طيّباً يقدّر مدينتنا. جيّد أنّك انتزعتَه من بين ذراعي إميلي المسمومتين... ومع ذلك، لا بدّ أنّه أصيب بخيبة كبيرة من جرّاء هزيمة الألمان في الحرب!...»، قال رينو حالماً، مداعباً بشرودٍ رأس الكلب السّبنيليّ الذي كان نائماً وشدقه مفتوح على مصراعيه. «كان يحبّ الكلاب أيضاً... بعد كلّ حساب ليس جميع الألمان سيّئين!». أطلق ضحكة خافتة وبدا وكأنّه استعاد ذكرى طيّبة جعلته يرقّ للحظة ثمّ أغضى فجأة عن الذكرى وهو يحدّق بوجه الأسقف المهشّم.

في نهاية ربيع 1919، اختفت الإنفلونزا الإسبانيّـة من دون أن يفهم أحد لماذا، وكيف. «السيّدة الإسبانيّـة» احتجبت عن الأنظار. قامت بجولة أخيرة في أبريل حين أصابت رئيس الولايات المتّحدة وودرو ويلسون خلال مؤتمر الصّلح في باريس. تعافى منها لكنّها أضعفته ولم يعد لديه الطاقة للاعتراض على بعض البنود المشؤومة في معاهدة فرساي. في السنوات التالية لوحظ أنّها

أصابت نصف سكّان العالم وفتكت بعددٍ يتراوح بين أربعين مليون نسمة وخمسين مليوناً. حتّى أنّ الحرب العالميّـة الكبرى، التي قتل فيها ثمانية عشر مليون شخص، كانت هزيلة بالمقارنة مع ما أمكن نعته يوماً بأكبر كارثة طبيّـة في كلّ العصور. في الواقع، وكما لاحظ أحد علماء الجراثيم، تعدّ الحرب حادثة بسيطة يصنعها غباء الإنسان على هامش المعركة الأكثر فتكاً التي يخوضها منذ الأزل ضدّ الجراثيم.

نُسيَ أمر الوباء. قيل إنّ أصله كان طبيعيّاً وإنّه في مكانٍ ما في أوروبا أو في آسيا أو في أميركا تحوّر فيروس الإنفلونزا ليصبح قاتلاً، وإنّ الأجسام الحيّـة التي أضعفتها الحرب، وكذلك عمليّات النّزوح الهائلة التي أعقبت الهدنة سمحَت له بالانتشار في جميع أنحاء العالم. أمّا في ما يتعلّق بمعرفة أين ومتى بدأ فهذا أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قشّ بحجم الكوكب.

بعد ذلك بوقتٍ طويل، حين تقدّم العلم بما يكفي لإعداد صيغٍ بدقّة تضاهي دقّة المشرط مثل إنفلونزا الخنازير H1N1، جرى الكلام عن تسلسلات جينيّـة، ونُبشت جثث ضحايا الجائحة، وأعطى المجهر الإلكترونيّ وجهاً جديداً للوحش، ولكنّ الفيروس ظلّ عصيّاً على الفهم آنذاك. أراد الناس طيّ الصّفحة، والتخفّف من تلك الذكرى. ما من أحد أصرّ. كان الأمر يتطلّب القليل من الخيال لمواصلة التحقيقات عن شخصيّات خفيّـة ومشؤومة مثل ليلي روسّو أو تيو أودويرتس بهدف اقتفاء مصدر الوباء. لكنّها أُوقِفَت.

كان أمبرتو، فـي القطار الذي يعيده إلى باريس، جالساً قبالة أرمان الذي كان يقرأ بهدوء كتاباً مصوّراً. كان يفكّر في ما أسرّت به ليلي قبل أن تعود بنحوٍ نهائيٍّ أسيرة عالم جنونها الحميم المطلق، هذه الكلمات التي لم يَبُحْ

بها لكافيل والتي لن تهمّه إطلاقاً، لأنّه كان ببساطة مستعجلاً للتخلّص من وصاية الطفل.

تساءل عن سبب رغبة ليلي، التي باتت تعرف أنّ أرمان حيٌّ، في أن تعود مع ذلك إلى عالم أحلامها. في الواقع، لا الجنود ولا السياسيّون كانوا حريصين على أن تخرج من هذيانها لمواجهة المحاكمة. كان بإمكانها الكشف عن الكثير من المكائد السريّـة التي لا يمكن البوح بها. ولكن ماذا عنها؟ لقد بدا ما فعلته ذروة الأنانيّـة للطبيب النفسانيّ. وشيئاً فشيئاً أخذ يدرك أنّ القرار الذي اتّخذته ربّما كان الأصعب في حياة المرأة الشابّة لكنّها كانت على حقّ. لا بدّ أنّها شعرَت بأنّها لن تجد القوّة أبداً لنسيان الرعب الذي تسبّبت فيه، وأنّ الندم سيخيّم عليها بقيّـة أيّامها. أدركت أنّها كانت أضعف من أن تربّي طفلاً وأنّه سيتعذّب بالقرب من أمّ مريضة بشكلٍ خطير. لذلك قرّرت أن تنسحب إلى الأبد في بريمونتريه إلى عالم حلميّ يكون الطفل فيه محميّاً منها. اختارَت أن تعتق أرمان بتحريرها نفسَها.

وضع أرمان الكتاب المصوّر على ركبتيه. لم تعد مغامرات «الكسالى»[128] تثير اهتمامه. نظر عبر النافذة التي ارتطمت بها ذبابة صغيرة محاولة عبثاً استعادة ضوء النهار والحريّـة. في البعيد، في ضوء بعد الظهر الذّهبي، كانت حقول الواز تمتدّ في سلام تخاله أبديّاً. رفع نظره نحو الطبيب. ابتسم له أمبرتو ممسكاً بيده. سيهتمّ بالصبيّ كما لو كان ابنه، ويضع كلّ مواهبه العلاجيّـة لينسيه مخاوف الحرب. وذات يوم سيشرح له سبب رحيل أمّه. وقد وعد ليلي بذلك بالضّبط قبل أن يجنّبها نهائيّاً التنويم المغنطيسيّ ويتركها ترحل دون رجعة.

إشارات

الاستشهادات في بداية كلّ قسم مقتبسة من كتّاب وفنّانين أودَت بهم ويا للأسف! جائحة الإنفلونزا الإسبانيّـة. هنا مصادر القبسات الأربع[129]: ليلي (1): Edmond Rostand (Chantecler [1910], Paris, Éd. Fasquelle, 1927, p. 65).

ليلي (2): Justin-Frantz Simon («L'idylle douloureuse», Livret de vers contenant La dame en blanc, L'idylle douloureuse et sept poésies dans la lumière, Paris, Éditions de La Phalange, 1913).

ليليت (1): Guillaume Apollinaire (Lettres à Lou, Paris, Gallimard, «L'Imaginaire», 2010, p. 272).

ليليت (2): Egon Schiele (cité in Jean-François Fournier, Egon Schiele. La décadence de Vienne, 1890-1918, Paris, J.C. Lattès, 1992, p. 258).

وتدين هذه الرّواية للكثير من المؤلّفين الذين ليس لهم أيّـة مسؤوليّـة في انزياحاتها المحتملة في ما يتعلّق بالتاريخ العلميّ. بالنسبة للإنفلونزا

الإسبانيّـة، بعض الفصول مستوحاة من The Plague of the Spanish Lady لريشار كولييه Richard Collier (لندن، منشورات Macmillan، 1974) ومرض ليلي مستوحى من تجربة رينيه دوجاريك دو لا ريفيير René Dujarric de la Rivière التي يذكرها كلود هنّون Claude Hannon في La Grippe, ennemie intime (باريس، منشورات Balland، 2009).

كما أنّني مدين للمراجع التالية: Alfred W. Crosby, America's Forgotten Pandemic. The Influenza of 1918 [1989] (Cambridge University Press, 2010), Charles De Paolo, Pandemic Influenza in Fiction (Jefferson, Caroline du Nord, McFarland & Company, 2014), Niall Johnson, J. Müller, «Updating the Accounts : Global Mortality of the 1918-1920 «Spanish» Influenza Pandemic » (Bulletin of the History of Medicine, 76, I (2002)), Gina Kolata, Flu. The Story of the Great Influenza Pandemic of 1918 and the Search for the Virus that caused it (New York, Farrar, Straus and Giroux, 1999), Jeffery K. Taubenberger, Ann H. Reid, Amy E. Krafft, Karen E. Bijwaard et Thomas G. Fanning : «Initial Genetic Characterization of the 1918 «Spanish» Influenza Virus » (Science, Vol. 275, No. 5307 (1997)).

وعن تاريخ الفيروسات والحشرات: Patrick Berche, Une histoire des microbes (Paris, John Libbey Eurotext, 2007), Thierry Berrod, Martin Monestier, Les Envahisseurs invisibles (Paris, Éditions Place des Victoires, 2009), Pierre Darmon, L'Homme et les microbes, xviie-xxe siècle (Paris, Fayard, 1999), David Quammen, Spillover (Londres, Vintage, 2012), Jean-

François Saluzzo, À la conquête des virus (Paris, Belin, 2009), Tom Wakeford, Aux origines de la vie. Quand l’homme et le microbe s’apprivoisent (Bruxelles, De Boeck, 2004).

وعن الحرب العالميّـة الأولى: Sophie Delaporte, Les Médecins dans la Grande Guerre (Paris, Bayard, 2003), Jean-Claude Delhez, La France espionne le monde (1914-1919) (Paris, Economica, 2014), Franck et Michèle Jouve, La Vraie Histoire des femmes de 14-18 (Paris, Chronique, 2013), Olivier Lepick, La Grande Guerre chimique (Paris, PUF, 1998), Jean Marquiset, Les Allemands à Laon (2 septembre 1914-13 octobre 1918) [1919] (Paris, Le Livre d’histoire, Lorisse, 2007), Louis Maufrais, J’étais médecin dans les tranchées (Paris, Robert Laffont, 2008), Philippe Nivet, La France occupée 1914-1918 (Paris, Armand Colin, 2014).

وفي فقرات عديدة أدين بمعلومات للمؤلّفات التالية: Vera Brittain, Testament of Youth [1933] (Harmondsworth, Penguin Books, 2005), Martha Mc Kenna, Les Espions que j’ai connus [1934] (in François Rivière (dir.), Romans d’espionnage de la Grande Guerre, Paris, Robert Laffont, » Bouquins «, 2014), Marc Stéphane, La Cité des fous [1905], (Talence, Éditions de l’Arbre vengeur, 2013).

كما أشير إلى رواية كوليت إيفر: Colette Yver, Princesses de Science (Paris, Calmann-Lévy, 1907).

Notes

[1 ←]

Jean-Marc Moura, L'image du tiers monde dans la littérature française contemporaine, Thèse, Université de Paris III-Sorbonne-Nouvelle, Paris, 1987; L'Image du Tiers-Monde dans le roman français de 1968 à 1980, Paris, Presses Universitaires de France, coll. «Écriture», .1992

[2 ←]

.J.-M. Moura, Une légende de Bangkok, Paris, Albin Michel, 1986

[3←]

يترجم بعض النقّاد بالعربية تسمية «littérature exotique» إلى «الأدب الغرائبيّ»، ونرى في ذلك إمكان لبْس واختلاط بأدب الغريب والعجيب الذي تُطلق عليه أيضاً، حسب درجة غرابته، تسميات الغرائبيّ والفنطازيّ والعجائبيّ.

[4←]

.Gandara, Paris, Éditions Phébus, coll. «D’Aujourd’hui», 2000

[5 ←]

.La Musique des illusions, Paris, Albin Michel, 2014

[6←]

.La Guerre insaisissable, Paris, éd. Jean-Claude Lattès, 2018

[7 ←]

مؤسّسة فرنسيّـة تهتمّ خصوصاً بالبحث العلميّ. (جميع الحواشي وضعتْها المترجمة، إلّا إذا وردت بذلك إشارة مخالِفة).

[8←]

لازمة من أغنية شهيرة للأطفال، تُردّد أثناء لعبة التّمرير التي تحمل اسم الحيوان نفسه.

[9 ←]

بولونـي: المقصود بولونـي سور مير Boulogne-sur-Mer وهي مدينة تقع شمال فرنسا في إقليم با دو كاليه Pas-de-Calais.

[10←]

التماسيح (caïmans في الفرنسيّة، أي التماسيح الاستوائيّة): لقب كان يُطلق على اللّصوص وقطّاع الطّرق في بعض مناطق فرنسا.

[11←]
لان Laon: مدينة في منطقة البيكاردي الفرنسية.

[12 ←]

نسبة إلى العهد الميروفنجيّ، باسم سلالة حكمت بلاد الغال (فرنسا الحاليّـة) في الفترة ما بين القرنين الخامس والثّامن الميلاديّين.

[13 ←]
نوعان من الفطر لذيذا الطّعم.

[14←]
العبارة مذكورة في النصّ بالإنجليزيّـة وتعني زنبقة الوادي.

[15←]

إشارة إلى السّروال الأحمر الذي كان يرتديه جنود «جيش فرساي»، الذين قَمعوا، بقيادة المارشال ماك ماهون، الثوّار في كومونة باريس بطريقة وحشيّـة مستخدمين حتّى السلاح الأبيض. هذا عدا تنفيذ حكم الإعدام بمئات الثوّار رمياً بالرصاص. (بخصوص كومونة باريس انظر الحاشية التّالية).

[16←]

مُشعِلات الحرائق pétroleuses، حرفيّاً: «البتروليّات»، أي ساكبات البترول أو مُحدِثات الحرائق بالبترول: نساء من كومونة باريس أشيع عنهنّ أنّهنّ أحرقن العديد من المباني الباريسيّـة خلال الأيّام الأخيرة للكومونة بإلقاء زجاجات من البترول عليها. وكومونة باريس حكومة ثوريّـة راديكاليّـة اشتراكيّـة، حكمت باريس من 18 مارس إلى 28 مايو 1871، قمَعها الجيش الفرنسيّ النظاميّ أو «جيش فرساي» خلال ما عُرف في التاريخ باسم «الأسبوع الدامي»، الذي انتهى بانحلال الكومونة.

[17 ←]

يستثمر المُؤاكِر أو المُؤاجِر أرضاً لا يملكها.

[18 ←]

جمع «زبانى»، قرون الاستشعار لدى الحشرات.

[19←]

Saint-Quentin مدينة فرنسيّـة في إقليم أين Aisne في المنطقة الشماليّـة أعلى فرنسا.

[20 ←]

حشرة بيضاء مُصفرَّة تشبه النّملة، تظهر في الربيع وتعيش في مستعمرات كبيرة.

[21 ←]
لانوا: Laonnois منطقة طبيعبّة صغيرة في إقليم أين Aisne تتمركز حول مدينة لان Laon وتحدّها أنهار الواز Oise وإيلات Ailette وأين.

[22 ←]
الفصْد: إسالة مقدار من دم وريد المريض بقصد العلاج.

[23 ←]
وادٍ يقع في منطقة سوليتود في لانوا جنوب شرقيّ لان.

[24←]

البحرة: مستنقع الماء.

[25←]

Géricault, Boucher, David, Watteau: من مشاهير الرسّامين الفرنسيّين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

[26←]

إشارة إلى معركة سيدان خلال الحرب الفرنسيّـة البروسيّـة (سيدان Sedan مدينة تقع في إقليم الأردين Ardennes شمال شرق فرنسا).ما بين الأوّل والثاني من أيلول/سبتمبر 1870، مرّت فرنسا بأحد أحلك أيّامها حين ارتكب القائد الفرنسيّ ماك ماهون عدّة أخطاء عسكريّـة كبّدت جيشه خسائر فادحة واضطرّته للتراجع إلى سيدان. ظلت القوّات البروسيّـة تحتل سيدان حتّى عام 1873.

[27 ←]

Antoine Watteau رسّام فرنسي (1684- 1721)، من أشهر لوحاته «الحجّ الى جزيرة سيتير». لوحاته يلفّها شعور بالشّجن الخفيف والكآبة وهوس الجمال وأيضاً سرعة زواله.

[28 ←]

بيتر بروغل (1525-1569) Pieter Breughel رسّام هولندي لوحاته تصوّر مشاهد القرى والمواضيع الدينيّـة والمناظر الطبيعيّـة الريفيّـة.

[29 ←]

اسمها Adèle de la Passion، ومعناه الحرفيّ «أديلُ آلامِ المسيح».

[30←]

لويس باستور Louis Pasteur (1828- 1895) الكيميائيّ الشهير أهمّ مؤسّسي علم الأحياء الدقيقة في الطبّ والتطعيم العلاجيّ والوقائيّ. ساهم على سبيل المثال في إعداد لقاحات مضادّة لداء الكلب والجمرة الخبيثة. جان هنري فابر Jean-Henri Fabre (1823-1915) عالم حشرات (قال عنه إدمون روستان إنّه «فيرجيليوس الحشرات»)، ورائد علم سلوك الحيوان، ومؤلّف وشاعر. تحدّث فابر في تذكاراته عن لقائه مع باستور الذي أوكل إليه حلّ مشاكل وباء دودة القزّ. فوجئ فابر بعدما طلب منه باستور أن يريه شرنقة دودة القزّ بأنّه يحملها لأوّل مرّة في حياته. من خلال هذا الاجتماع، استشُفّت طريقتان علميّتان متعارضتان: باستور، عالم المختبر، الباحث الأكاديمي ينظر إلى العالم من خلال مجهره محاطاً بحشد من المساعدين والطلاب، وفابر، عالم الطبيعة، الذي يجوب الغابات ويراقب الطبيعة ميدانيّاً ولا يساعده في تجاربه سوى جنديّ متقاعد أو أحد أبنائه.

[31←]

روبرت كوخ Robert Koch: طبيب وعالم بكتيريا ألماني رائد توفّي سنة 1910، مكتشف البكتيريا المسبّبة للسلّ.

[32 ←]

مواد كيماويّـة تُستخدم للتعرُّف على الأجسام بواسطة التفاعلات التي تُحْدثها، ولإظهار حالة محلول ما عن طريق تغيُّر اللّون.

[33←]

الكأس المقدّسة التي استخدمها المسيح في العشاء الأخير وتقول الأساطير المسيحيّـة إنّ «فرسان الهيكل» أخفوها، وتقول كذلك إنّ لهذه الكأس قدرات خارقة.

[34←]

شجر من الفصيلة البقسيّـة يشبه الآس، دائم الخضرة، خشبه صلب يُعمل منه بعض الأَدوات، وأغصانه تستخدم في فرنسا في الأعياد والطقوس الدينيّـة.

[35←]
حيوانات مجهريّـة من ذوات الخليّـة الواحدة تعيش في السوائل وفي نقاعات المادّة العضويّـة.

[36←]
خميرة: فطر مجهريّ مكوّن من خليّـة قادرة على تحويل الموادّ العضويّـة.

[37 ←]

بكتيريا كثيرة الحركة.

[38 ←]

راهب متلقّي اعترافات.

[39←]
العبارة وردت باللّاتينّة في النصّ: memento mori.

[40←]

ليون باتيستا ألبرتي (1404- 1472): عالم إنسانيّ ومهندس معماريّ إيطاليّ، يعتبر الأنموذج المثالـيّ لرجل النهضة ذي النّزعة الإنسانيّـة الشّاملة في شخصيّته وأعماله واتّساع نطاق علمه. له مقالة في الذباب حيث قام بتضخيم مديح هوميروس للصفات التي تتمتّع بها الذبابة، وهذه المقالة هي ضمن نصوص أخرى عن الحيوانات كالعنكبوت والكلب.

[41 ←]

الفلمنكيّ أو الأستاذ الفلمنكيّ هو أودويرتس نفسه، يدعوه الكاتب أو السّارد بصفة النّسبة هذه في عدّة مواضع، وذلك تحاشياً لتكرار الاسم. (المُراجِع)

[42 ←]

دحروج داخليّ: خطّ منحنٍ ترسمه في المستوى نقطة مفروضة من محيط دائرة تتدحرج على دائرة أخرى من الداخل.

[43←]

أوغست فرديناند موبيوس (August Ferdinand Möbius (1790-1868: عالم فلك ورياضيّات ألمانيّ عُرف بشكل أساسيّ باختراعه «شريط موبيوس»، كما اهتمّ بنظريّة الأعداد والكوسمولوجيا.

[44←]

Carl Zeiss: مهندس ومصمّم عدسات ألمانيّ (1816-1888) كرّس معظم حياته لصناعة العدسات وتطويرها.

[45←]

باحث وعالم هولنديّ Antoni van Leeuwenhoek (1632- 1723) اخترع أوّل مجهر ضوئيّ بسيط شاهد من خلاله كائنات حيّـة دقيقة في قطرات الماء،وهو من أوائل العلماء الذين استخدموا العدسات.

[46 ←]

بيئة ملائمة لزرع الميكروبات.

[47 ←]
رمليّـة: قطعة حلوى هشّة تتفتّت كالرمل لكثرة الزبدة أو السّمنة فيها.

[48←]

Liesse-Notre-Dame: إحدى البلديّات التابعة لإقليم أين Aisne في منطقة أعالي فرنسا. وفيها كنيسة نوتردام دو لييس وكانـت أحـد أبرز مراكز الحجّ المسيحيّ من القرون الوسـطى حتّى القرن التاسع عشر في فرنسا وأوروبا يؤمّها المؤمنون الراغبون في زيارة مزار تمثال العذراء السّوداء.

[49 ←]

البازيليكة basilique : تشير المفردة في الأصل إلى معبد رومانيّ مستطيل مقسّم إلى أجنحة، ثمّ صارت التّسمية تُطلق على كنائس تتبع نمط البناء نفسه وتؤوي الواحدة منها رفات قدّيس. (المُراجِع).

[50←]

الكاهن القانونيّ (أو «الكانون» في بعض المراجع القديمة، نسبة إلى الإغريقية kanôn)، يتبع سلك الرهبنة الأغسطينيّـة التي أسّسها القدّيس أغسطينوس في شمالي إفريقيا ووضع لها قانوناً خاصّاً صار فيما بعد قانوناً لآلاف الأديرة في الغرب. في الماضي كان القانونيّ مرافقاً للبطريرك في الاحتفالات الرسميّـة، كما كان أحد المستشارين الرسميّين للأسقف. أمّا اليوم فتقتصر مسؤوليّـة القانونيّ على الطّقوس الدّينيّـة.

[51←]
حسبَ التقويم الثوريّ الفرنسيّ الذي استُخدم خلال الفترة الممتدّة من 1792 إلى 1806، وأيضاً لفترة وجيزة خلال كومونة باريس، «بلوفيوز» هو شهر الأمطار، يمتدّ من 20 كانون الثاني إلى 18 شباط. إنّه شهر الشتاء القارس وموت الطبيعة. وهنا يُلمّح الكاتب استعاريّاً إلى المظهر الكئيب والبارد والرتيب للمفتّش الكسول.

[52←]

أوجين فنترا (1807-1875): رجل دين فرنسيّ أفّاك ادّعى النبوّة وأنّ القدّيس يوسف ظهر له وبشّره بأنّه خليفة النبيّ إيليا. حُكِمَ عليه بالشعوذة عام 1842 وسُجِنَ لمدّة ستّ سنوات. جوزيف أنطوان بولان (1824-1893): كاهن فرنسيّ أسّس عام 1859 مع عشيقته الراهبة أديل شوفاليه جماعة دينيّـة تداوي الراهبات باستعمال البول وممارسة طقوس شعوذة. حوكم والرّاهبة عام 1861 وسُجن لمدّة ثلاث سنوات ترك بعدها الكنيسة وانضمّ إلى جماعة أوجين فنترا وكان يفكّر بخلافته لكنّه لم يفلح.

[53 ←]

نذكّر رفعاً للّبس بأنّ «آلام المسيح» هو هنا اسم شهرة الأخت «أديل» هذه. (المُراجِع)

[54 ←]
قانون الأول من يوليو 1901 يضع الجمعيات الدينية تحت الرقابة.

[55←]

شكّل هذا القانون في عهد رئيس الحكومة إميل كومب تغيّراً ملحوظاً في ما يتعلّق بالمكانة الرفيعة التي لطالما تبوّأتها الكنيسة الكاثوليكيّـة في فرنسا. في العام 1904 أُغلقت مئات المدارس الدينيّـة، وفي السنة نفسها قطعت العلاقات الديبلوماسيّـة مع الكرسي الرسوليّ.

[56←]

اتُّهم الضابط ألفريد دريفوس وهو من أصل يهوديّ بتسريب معلومات إلى الجيش الألمانيّ وحُكم عليه بالسّجن. لكنّ الصحافة بادرت للدفاع عنه ثم تمّت تبرئته لاحقاً، وإعادته إلى السلك العسكريّ، وقد شارك في الحرب العالميّـة الأولى.

[57 ←]

يدلّ هذا الفعل في المعجم الكنسيّ على تلقّي القسّ اعترافات الرّعايا في مقاصير صغيرة مخصّصة لذلك، وهو ما يعرف بـ «سرّ التّوبة». (المُراجِع)

[58←]

عاميّـة، متداولة في المعجم الكنسيّ، وتشير إلى رُقاقة القربان التي يتناولها الأفراد في الكنائس أثناء الطقوس الدّينيّـة. (المُراجِع)

[59 ←]

جمع «حَضون»: روح شريرة يُزعَم أنّها تحتضن النساء وهنّ نيام.

[60←]

جان مارتان شاركو Jean-Martin Charcot (1825-1893): طبيب نفسيّ فرنسي وبروفسور في علم الأعصاب وعلم الأمراض التشريحيّ. اشتهر بعمله في مجال التنويم المغنطيسيّ الذي استخدمه لسبر أغوار الأمراض النفسيّـة وعوارضها، وكذلك في اكتشاف الأساس النفسيّ للهستيريا التي كانت تُعدّ مسّاً شيطانيّاً يصيب النساء فقط.

[61 ←]

القدّيس مارتان أسقف كاتدرائيّة تُور، عُرف بتقشّفه وزهده بالمنصب وإحسانه، بخلاف الأسقف كوتينوس الذي بذّر مال الكنيسة وباع كنوزها لليهود.

[62 ←]

معربّة في المعجم الكنسيّ من اليونانيّة leitourgia، وتعني «طقوسيّ»، أي مرتبط بالطقوس والشّعائر الدّينيّـة. (المُراجِع)

[63 ←]

إيمان بالقوى الخفيّـة وبإمكان إخضاعها للسيطرة البشريّـة.

[64←]

بابوس Papus (1865-1916) واسمه الحقيقي Gérard Anaclet Vincent Encausse كان عالم سحر وتنجيم ومعالِجاً فرنسيّاً. اشتهر بأنّه ألّف أكثر من 400 مقال و 25 كتاباً عن السّحر منها: «المبحث الأوّل للسّحر العمليّ»، و«السّحر والتنويم المغنطيسيّ»، و«معلومات أوليّـة عن السّحر والتنجيم»، و«علم الأرقام»، و«علم الله والكون والإنسان». كان يُعَدّ شخصيّـة بارزة في مختلف المنظّمات الغامضة والدوائر الروحانيّـة والأدبيّـة الباريسيّـة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

[65←]

جوزفان بيلادان (1858-1918) Joséphin Péladan كان روائيّاً وناقداً أدبيّاً فرنسيّاً ومن أتباع التيوصوفيّـة وأيضاً جمعيّـة «الصليب الورديّ» إذ قام بتأسيس صالون فنّيّ للرسّامين والكتّاب والموسيقيّين من وحي هذه الجمعيّـة.وكان صديقاً مقرّباً لبابوس.

[66←]

«الصليب الورديّ» منظّمة شديدة السريّـة خرجت من رحم منظّمة فرسان الهيكل. تأسّست في ألمانيا بين عامي 1614 و1615. تمتزج فيها الرموز المصريّـة القديمة بالأفكار الغنوصيّـة وسِحر القبلانيّـة.

[67 ←]

إيريك ساتي (1866-1925) Erik Satie: عازف بيانو ومؤلّف موسيقيّ لامع. ألّف عدّة مقطوعات لصديقه بيلادان المذكور آنفاً في الرواية، أشهرها Sonneries de la Rose-Croix.

[68←]
إكسير الأب غوشيه: نُشر مقال في جريدة الفيغارو في 2 أكتوبر عام 1869 يتحدّث عن راهب في دير بريمونتريه بدأ بإنتاج إكسير خاصّ وبيعه ليتمكّن من ترميم الدير، ولقي رواجاً كبيراً.

[69 ←]
نذكّر، منعاً للّبس، بأنّ الأثير المقصود هو هنا سائل عضويّ لا لون له، يذيب الموادّ العضوية ويُستخدم في الطبّ للتّطهير والتّخدير. (المُراجِع)

[70 ←]

فريدريك لوفلر عالم جراثيم ألمانيّ. حصل على شهادة الطبّ من جامعة برلين في عام 1874. قام باكتشاف البكتيريا المسبّبة لمرض الدفتيريا، وكذلك تلك المسبّبة لمرض الحمّى القلاعيّـة. كما قام بتصنيع مصل الدم المتخثّر للكشف عن البكتيريا.

[71←]

مارتينوس ويليام بايرينك (1851-1931) Beijerinck: عالم نبات وأحياء دقيقة هولنديّ. دراساته في مجالات علم النبات وعلم الأحياء الدقيقة حُجبت ظلماً، ربّما بسبب أعمال علماء من أمثال روبرت كوخ ولوي باستور. عام 1898 استخدم مارتينوس بايرينك تجارب التّرشيح عبر المَصافي (filtrage)، وأبان أنّ تبرقش التبغ سببه شيء أصغر من البكتيريا، وأسماه فيروساً. وبذا يكون بايرينك قد اكتشف أوّل فيروس.

[72 ←]

جمع خذروف أو لعبة البلبل.

[73 ←]

في منطقة الأردين، شمال فرنسا.

[74←]

العبارة باللّاتينيّـة في النصّ، مختصرةً إلى حروفها الأولى ثمّ بتمامها:

V.R.S.N.S.M.V.S.M.Q.L.I.V.B » Vade retro Satanas, nunquam suade mihi vana- Sunt mala quae libas, ipse venena bibas».

[75 ←]

برزت شخصية ليليت للمرّة الأولى في ملحمة جلجامش السّومريّـة،وانتقـل تصورّهـا إلـى الثقافـة اليهوديّـة، فقدّمت اليهوديّـة الحاخاميّـة وجهـة نظر بديلة عن قصّة الخلق كما وردت في الكتاب المقدّس، حيث اعتُبرت ليليت زوجة آدم الأولى بدلاً من حوّاء، ثم تمرّدت وتخلّت عن آدم، فاستبدل اللّه بها حوّاء. ارتبط اسم ليليت بالشهوانيّـة والتمرّد والغواية. وقد اختلف لفظ اسمها وفق كلّ حضارة، فهي «ليليث» بالعبريّـة، و«ليليتو» بالأكّاديّـة، وكلاهما من الجذر «ليل» الذي يعني الظّلام.

[76←]

هناك وقعت المعركة الشهيرة في الحرب العالميّـة الأولى في 16 أبريل 1917 حين أطلق الجيش الفرنسي بأمر من الجنرال روبير نيفيل، في منطقة البيكاردي، هجوماً بمشاركة مليون رجل على هذا الدّرب الصغير الذي يسمّى Chemin des Dames (أي «درب السيّدات»). لكنّ الهجوم اصطدم بمقاومة ألمانيّـة. وحتّى مطلع مايو لم تتعدَّ المكاسب بضع مئات من الأمتار بينما وصل عدد القتلى في صفوف الفرنسيّين إلى حوالى مائة ألف خلال أسابيع.

[77 ←]
إشارة إلى الجنود الألمان الذين كانوا يعتمرون مثل هذه القبّعات.

[78 ←]
وضع المؤلّف بعض المفردات بالألمانيّـة.

[79←]

المكتب الثاني تسمية عامّة لجهاز المخابرات في فرنسا، وقد حقّق نجاحاً ملحوظاً خلال فترة اندلاع الحرب العالميّـة الأولى عندما اخترق المحلّلون الفرنسيّون نظام التشفير الدبلوماسي الألماني. ودوبون جنرال فرنسي كان رئيس المكتب الثاني من 1911 ولغاية 1917.

[80←]

جوزيف جاك جوفر Joseph-Jacques Joffre، مارشال فرنسي والقائد العام للقوّات الفرنسيّـة بين عامي 1914-1916 في الحرب العالميّـة الأولى.

[81 ←]
أوتوي Auteuil، من أهمّ أمكنة سباق الخيل في باريس.

[82 ←]
البوركهولدريا الرعامية، بوركهولدريا ماليي Burkholderia Mallei: الاسم العلمي لهذه الجرثومة.

[83←]

إشارة إلى غافريلو برينسيب وهو شاب صربيّ اغتال في سارايفو في يونيو 1914 وليّ عهد النّمسا الأرشيدوق فرانز فرديناند، وريث عرش الإمبراطوريّة النّمساويّة المجريّة، وزوجته صوفي. الأمر الذي أدّى إلى اندلاع الحرب العالميّة الأولى في يوليو 1914.

[84←]

خلال السنوات الثلاث الأولى من الحرب العالميّة الأولى، دعمت جميع الطبقات والأحزاب السياسيّة في فرنسا عموماً المجهود الحربيّ والجنود في الجبهة، وهو إجماع أُشير إليه باسم «الاتّحاد المقدس».

[85 ←]

روتاباغا: اللّفت السويديّ.

[86←]

بالألمانيّـة في النص: Deutsche Konditorei mit Kaffee وتعني المتجر الألمانيّ للحلويات والقهوة.

[87 ←]
نسبة إلى الموسيقيّ الألمانيّ الشهير ريتشارد فاغنر.

[88←]

إيتابل Étaples: مدينة تقع شمال فرنسا وكان فيها أكبر معسكر بريطانيّ فــي فرنســا خــلال الحرب العالميّـة الأولى. وفيها أكبر مقبرة عسكريّـة بريطانيّـة في فرنسا.

[89 ←]

إيبر Ypres: مدينة في بلجيكا، وقد استخدمت القوّات الألمانيّـة في 22 أبريل 1915 في معركة إيبر 168 طنّاً من غاز الكلور.

[90←]
كاليه Calais: مدينة في إقليم با دو كاليه Pas de Calais شمال فرنسا.

[91 ←]

اكتشفها عالم الجراثيم الألماني ريتشارد فايفر.

[92 ←]

«باري بلاج» Paris-plage (أي شاطئ باريس): اسم أعطيَ لقرية كوك Cucq في إقليم بادوكاليه Pas de Calais. وهذا على بعد أربعة كيلومترات من إيتابل عند مصبّ نهر كانش Canche.

[93←]

في التقاليد اليهودية، «الغولم» مجسّم أسطوريّ يُصنع من الطين ويوهب الحياة من خلال قوّة السّحر والطلاسم.

[94←]

توكيه Touquet: إحدى بلدات إقليم با دو كاليه في شمال فرنسا وكانت تعرف بـ «لو توكيه باري بلاج» Le Touquet-Paris-Plage، فالشاطئ الصّغير في توكيه كان يُسمّى «باري بلاج Paris-Plage» وموقعه جنوب مصبّ نهر كانش Canche.

[95←]

عائلة هوهنتسولِن Hohenzollern: أسرة ملكيّـة ذائعة الصّيت حكمت براندنبرغ وبروسيا والإمبراطورية الألمانيّـة.

[96←]
خوذة قتال استوحاها الجنرال الفرنسيّ أوغست لوي أدريان من الخوَذ القديمة واعتمدها الجيش الفرنسيّ خلال الحرب العالميّـة الأولى لتفادي شظايا القذائف.

[97 ←]

موبيوس Mobius: عالم فلك ورياضيّات ألمانيّ (1790-1868)، سبق ذكره.

[98←]

La Gazette des Ardennes: جريدة باللّغة الفرنسية أصدرها المحتلّ الألماني خلال الحرب العالميّـة الأولى.

[99←]

بوميرانيا: منطقة تاريخيّة وجغرافيّـة تقع في شمال بولندا وألمانيا على الساحل الجنوبيّ لبحر البلطيق.

[100←]
نسبة إلى سيرانو بطل المسرحيّـة الشهيرة «سيرانو دو برجوراك» Cyrano de Bergerac التي كتبها المؤلّف الفرنسيّ إدمون روستان، وقد عُرف بدمامته وطول أنفه.

[101 ←]
خيول من أصول برازيليّـة.

[102 ←]
تولون (Toulon): مدينة تقع في جنوب فرنسا على شاطىء البحر المتوسّط.

[103←]
كان ألكسندر يرسان Alexandre Yersin (1863-1943) طبيباً وعالم بكتيريات فرنسيّاً سويسريّاً، وهو مكتشف العُصَيّـة المسؤولة عن الطّاعون الدمّلي، وسُمّيَ نوع البكتيريا Yersinia نسبة إليه، بصفته مكتشفه الأوّل.

[104 ←]
هذه الخاطرة هي للفيلسوف الفرنسي بليز باسكال.

[105←]
دونكيرك Dunkerque: مدينة فرنسيّـة تقع في شمال البلاد.

[106←]

مدينة في منطقة أعالي فرنسا Hauts-de-France، في إقليم أين.

[107 ←]

رانس Reims: مدينة تقع في مقاطعة شامبانيا/الأردين في شمال فرنسا.

[108 ←]

بِرَك كوميل Étangs de Commelles: مجموعة بِرك منتشرة في وادي تَيف Thève بجوار مدينتي أوري لافيل Orry-la-Ville، وكوا لافوريه Coye-la-Forêt، في جنوب إقليم الواز، وهذه البِرَك أو الأهوار جزء من مقاطعة شانتيي. أقيم حولها في القرن الثالث عشر فضاء للنّزهات ما زال يمثّل أحد المنتزهات الأكثر ارتياداً في غابة شانتيي.

[109 ←]

قصر الملكة بلانش، الواقع عند الطرف الغربي لِبِرَكِ كوميل هو المبنى الرمزي للمنطقة. وفق الخرافة، يقال إنّ الملكة بلانش القشتاليّـة (1188-1252) سكنت فيه، لكن لا شيء يثبت أنّها أتت إليه أو زارته. والملكة بلانش ملكة فرنسا وزوجة لويس الثامن ووالدة القدّيس لويس.

[110←]

السّوم La Somme: إقليم فرنسيّ تابع لمنطقة البيكاردي، أخذ اسمه من نهر السّوم، وفيه وقعت خلال الحرب العالميّـة الأولى معركة بين القوّات الألمانيّـة وقوّات الحلفاء تكبّد فيها الطرفان خسائر فادحة.

[111 ←]

هاري هوديني Harry Houdini (مارس 1874- أكتوبر1926): ساحر ومقدّم عروض مجريّ. قدّم خلال الحرب العالميّـة الأولى العديد من العروض لتسلية الجنود وتعليمهم كيف يمكنهم الإفلات من الحبال والأصفاد إذا ما قُيِّدوا.

[112 ←]

البروموز مادة سامّة استعملت بدءاً من عام 1800 لتهدئة الأعصاب على شكل بروموز البوتاس.

تستعمل في أشكال مختلفة كمبيدات حشريّـة وفطريّـة.

[113←]
الإستركنين: مادة كيميائيّـة كانت تُعطى للمريض على شكل سائل يُحقن في الوريد وذلك لمعالجة التشنجّات العضليّـة، ولكن اكتُشفت سميّتها الشديدة ثم حُظِرَ استعمالها.

[114 ←]

مصفاة شمبرلند: مصفاة ماء خزفيّـة ابتكرها شارل شمبرلند عام 1884.

[115 ←]
كما إنّه ملحق بدائرة الأبحاث العلميّـة.

[116←]
باسم الحرف الأوّل من الأبجديّـة اليونانية (Alpha).

[117 ←]
باسم الحرف الثاني من الأبجديّـة اليونانية (Bêta).

[118 ←]
بالمعنى الإنجيليّ للكلمة، أي الغوايات والمِحَن. (المُراجِع)

[119 ←]

جنرال كان نائب رئيس أركان الجيش الألماني وصانع النصر في معركة لياج.

[120 ←]
المَوهِف أو السكرستيّا: غرفة المقدّسات وملابس الكهنة في الكنيسة. (المُراجِع)

[121 ←]
نشيد وطنيّ ألمانيّ يعود إلى تاريخ الحرب الألمانيّـة الفرنسيّـة والحرب العالميّـة الأولى.

[122 ←]

جـاك السفّاح، حرفيّـاً: جـاك الباقـر (بالإنجليزية: Jack the Ripper) هـو لقـب مجرم بريطانيّ ارتكب عدّة جرائم قتل متسلسلة استهدفت النّساء في لندن في العام 1888. (المُراجِع)

[123 ←]

لقب المفتّش رينو وقد أشير إلى معناه آنفاً.

[124←]

التثبيت، أي تثبيت المُعَمَّد، هو طقس مقدّس يُمارس في بعض الكنائس بمثابة علامة للنّضوج الروحيّ، به يصير الشابّ أو الفتاة عضواً رسميّاً بالكنيسة. (المُراجِع)

[125 ←]
القرناء: قبّعة الراهبات.

[126←]
الهند الصينيّـة أو شبه الجزيرة الهنديّـة الصينيّـة (بالفرنسية: Indochine) هو الاسم الذي أطلقته فرنسا على مستعمراتها ومحميّاتها في جنوب شرق آسيا لوقوعها في منطقة قريبة من شرق الهند وجنوب الصّين، ألا وهي فيتنام ولاوس وكمبوديا وجزء من الصّين يُدعى حاليّاً غواندونغ. (المُراجِع)

[127 ←]

دائرة محلوقة في قمّة رأس رجل الإكليروس.

[128 ←]

«الكسالى» Pieds-Nickelés: سلسلة من الرّسوم التصويريّة ابتكرها لويس فورتون Louis Forton ونشرت للمرّة الأولى في يونيو 1908 ولاقت نجاحاً متعاظماً.

[129 ←]

نضع عناوين هذه الأعمال وسائر العناوين التي يذكرها الكاتب في لائحة الكتب التي استأنس بها في كتابة روايته هذه بلغتها الأصليّـة عملاً بما هو جارٍ. (المُراجِع)